رواية

سيناجوج

مأمون المغازي

الألوكة

جائزة الألوكة
مسابقة الإبداع الروائي

سيناجوج

مامون المغازي

دار الألوكة للنشر

ح شبكة الألوكة الإلكترونية، ١٤٣٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

محمد، مأمون محمد المغازي

سيناجوج (رواية)./**مأمون محمد المغازي محمد**.- الرياض، ١٤٣٣هـ

٤٣٢ ص؛ ١٤×٢٠ سم.

ردمك: ٨-٠٤-٨١١١-٦٠٣-٩٧٨

١- القصص العربية ـ مصر   أ- العنوان

ديوي ٨١٣,٠٣٩٦٢   ١٤٣٣/٥١٠١

رقم الإيداع: ١٤٣٣/٥١٠١

ردمك: ٨-٠٤-٨١١١-٦٠٣-٩٧٨

حقوق الطبع والترجمة محفوظة

الطبعة الأولى

ربيع الأول ١٤٣٤هـ ـ شُباط ٢٠١٣م

الألوكة

دار الألوكة للنشر

المملكة العربية السعودية - الرياض

هاتف: ٢٠٥٢٨٨٥ ناسوخ: ٤٥٥٠٦٦٦ ص.ب ٣٠٥٦٦٠ الرياض ١١٣٦١

alukah@alukah.net

بسم الله الرحمن الرحيم

إهداء

إلى محمد المغازي

جَدًّا، وأبًا، وابنًا

إلى الذين عاشوا من قبل أن نكون. . .

إلينا . . .

إلى الآتين من بعدنا

(١)

الأخبار تطير في البلاد أن وطنًا سيُقام لليهود في فلسطين، وأن آمال السيِّد «هرتزل» التي بذلَها طَوالَ حياته ستتحقَّق كما رسمها وسعى لها، وأن عهد الربِّ مع شعبه لا بدَّ أن يتحقَّق، كما تحقَّقَ في كلِّ العصور، منذ أُمرَ «إبراهيم» أن يخرُجَ من «حرَّان» بأهله؛ لتكونَ له الأرض، ولشعبه من بعده، وليكونَ كلُّ من في الأرض خدمًا، ولتكون دولةُ إسرائيلَ الكبرى .

أصواتٌ تجدِّد نعيَ هرتزل، وتتمنَّى لو أنه عاش؛ ليرى بشائرَ ما غرس.

هل يمكن فعلاً أن تقومَ دولة لها حدودٌ ولها حكومة، ويرجع ما تحكي عنه التَّوراة من عصر يحكمنا ملوك؟

هل نترك مصرَ في يوم من الأيام إلى أرضٍ لا نعرفُها؛ لنعيشَ وحدنا، لا نرى غيرَ المعابد وأملاك اليهود، ولا أحدَ له سُلطان علينا؟

لكن ما السُّلطة التي تحكُمُنا؟

إننا نعيش هنا بين المصريِّين، لا أحدَ منهم يُشعرنا أننا أغراب.

هل نحن أغراب؟

أبي كلَّ يوم يخرج لأعماله، وأمِّي تداوم على ذِكر الهوانم المصريات، وذِكر كرَمِهن.

«تفيدة هانم» كثيرًا ما كانت تُعطيها فوق ما تستحق؛ تقديرًا لما تأتيها به من كلِّ جديد من الخُرْدَة، وفي مقابل هذا كانت أمي تتفانى في خدمتها، وتساعدُها في أعمال البيت.

في المرَّة الأولى التي ذهبتُ فيها مع أمي إلى منزل تفيدة هانم في «الجمَّاليَّة» استغرقني البيت بجماله وهدوئه، وبكلٍّ ما فيه من ناس وأثاث، وأشياء وُضِعَت بانتظام في أماكنَ كأنها أوجدت لأجلها، أو أن الأشياء صُنعت لها دون غيرها... إنه بيتٌ مرتَّب جدًّا.

تفيدة هانم هادئةُ الطَّبع، خفيفة الرُّوح، وجهُها مشرقٌ بابتسامة صافية، كانت كلَّما رأتني تقول: «اسم النبي حارسه وصاينه»، «ربنا يطرح لِك فيه البركة يا أم إيزاك»، في المرَّة الأولى مدَّت يدها إلى صندوقٍ بجوارها، أخرجَت لي منه الحلوى، وأعطتني قائلة: «ادخل... العب مع عماد».

«عماد» لم يكن وحدَه في الغرفة التي أرشدتني إليها الهانم،

كانت معه «نفيسة»، أصغر منَّا، لا تكفُّ عن الحركة واللعب والصُّراخ، شخصيَّتها قوية - كما كنت أراها - شعرُها الأسود تتدلَّى منه ضفيرتان على كتفَيها.

دخلتُ وهي جالسةٌ على الأرض، وبين يديها دُمْيةٌ (عروسة) من القُماش الملوَّن المحشوِّ بالقُطن، وعلى الأرض أمامها صناديقُ ورقيَّة، تقول: «إنها سريرُ العروسة، وغرفة نومها، والصالون، ولا بدَّ أن توقظَها الآن؛ لأن أمها أخبرتها أن في البُكور بركة».

لم يطُل وقوفي بالباب، قام عماد عن فراشه مبتسمًا، سألني في ثقة وهدوء:

- من أنت؟

- أنا إيزاك.

- مَن إيزاك؟

- أمي تجلس مع خالتي أم عماد.

- أهلاً بك.

- قالت خالتي أن ألعبَ معك.

- أفطرتَ يا إيزاك؟

نظرتُ وقتها إلى الأرض ولم أتكلَّم، إلا أنني تذكَّرتُ أن أبي دائمًا يوصيني ألَّا آكلَ في بيوت غير اليهود، فقلت له: نعم،

أكلتُ في بيتنا، وخالتي أعطتني حَلوى، وأخرجتُها له من جيب بنطالي.

كنت ألبَسُ بنطالي الجديدَ الذي اشتراه لي أبي في العيد الماضي - عيدهم... لا أعرف لماذا يصر في مناسباتهم شراء الجديد لنا - وقميصًا رماديًا، أمي تقول: الألوان الدَّاكنة لا تَّسِخُ بسرعة؛ لذلك كانت ملابسي دائمًا داكنةَ الألوان، مع أنني لم أكن كثيرَ اللعب أو الخروج من البيت؛ فلدينا أعمالٌ كثيرة في البيت نُنجزها أنا و«عزرا» و«سارة»، علينا أن ننظِّفَ البيت ونرتِّبَه، في الوقت الذي يخرُج فيه أبي وأمِّي لأعمالهما، ولأن سارة كانت هي الكُبرى، فقد تعلَّمَت الطَّبخ، كانت تمارس هذه المهمَّة التي أصبحَت عندها هوايةً، تملأ بها وقتَها الذي تقضيه معنا في البيت، وباقي الوقت تُمضيه قُبالةَ المرآة، كأنها ترسُم لها عالَمًا خاصًا، أما في المساء فكانت تتخذ ركنًا، وتقرأ ما يأتي به أبي من جرائد، كنت أتقرب إليها بحبي وتتقرب إلي بأن ترفع همسها لأسمع ما تقرأ.

أبي وأمي لا يعرفان القراءة والكتابة، لكنَّهما أصرَّا أن نتعلَّم؛ فسارةُ تعلمَت القراءةَ والكتابة على يد الأستاذة «ماكلين» التي كانت تعيش مع ابنيها: «إيزاك»، و«ديفيد» منذ مات زوجها السيد (إيهود جبرائيل) الذي كان يعمل كاتب محام.

«إيزاك» هاجرَ إلى أمريكا في نفس السَّنة التي وُلدتُّ فيها،

وهي التي سمَّتني «إيزاك» باسمِه؛ حيث كانت ترى في وجهي طيفًا يذكِّرُها به.

الأستاذة ماكلين تعرفُ العربية والعبرية والفرنسية، وكانت تعزفُ على (البيانو)، وعندها (فونوغراف) جميل، تعتني به جدًّا، دائمًا تنظِّفُه وتُلمِّعُه بعصير الليمون؛ ليبقى بريقه.

أحببت بوقَهُ الكبير، كنت أعتقد أن الذي يغنِّي يجلس في هذا الصُّندوق الصغير، وأن هذا البوقَ مخادع باتساعه الضَّخم في مقدَّمه، ويُمكن أن أصبحَ مغنِّيًا إذا دخلت فيه لأنزلقَ من العُنق الضيِّق إلى داخل الصُّندوق، من المؤكَّد أن ساحرًا يجلس بداخله، وأن الذي يدخل من الفُتحة الكبيرة يصغُر حجمه!

ذات يوم كنت مع سارة هناك، وانشغلت أختي مع الأستاذة ماكلين بالحديث في المطبخ، فانتهزتُ الفرصة، وهمَمتُ بالبوق، خرجتا فجأة، وإذا بي لا أنتبه إلا على صرخة الأستاذة ماكلين:

- ماذا تفعل يا عفريت؟

أخرجتُ رأسي الذي كنت أحاول حشرَه في البوق، انفجرت سارة صارخةً: أنت غبيٌّ وقليل الأدب، لا بدَّ أن تربِّيَك أمي من جديد.

- لا أعرف ماذا أفعل معه يا مدام ماكلين.

- لا شيء يا سارة، لم يحدُث شيء.

كانت في أثناء الكلام تضحك ضحكتها التي تختلط بسُعال خفيف، اقتربت منِّي، ومالت نحو وجهي حتى لامس شعرُها الشاحب وجهي، وسألتني بهَمسها المحبَّب لنا جميعًا: هل كنت تبحث عن شيء يا إيزاك؟

- لا .

كنت أرتجفُ خجَلاً، وغضبًا في نفس الوقت؛ فقد حرمتني من أمنيَّة طالما تمنَّيتُ أن تتحقَّق.

- إذن، لماذا كنت تنظرُ في البوق؟

- لم أكن أنظر، كنت أحاولُ الدُّخول!

انفجرَتا في الضَّحك بصوتٍ كاد الشارع كلُّه أن يسمعَه، وصداه يملأ أذنيَّ إلى الأبد.

- أين تدخل يا حبيبي؟

- أدخل في هذا الصُّندوق، أريد أن أغنِّيَ.

ردَّت سارة: وهل خرجَ مَن كان يغنِّي يا فالح؟

كانت تتكلَّم والضَّحك لا ينقطع، بل تفجَّر صدر الأستاذة بضحكٍ يعلو ويعلو، حتى ارتمت على الأريكة المخمليَّة التي كانت بالقُرب منها، وقد شَرِقَت بالضَّحك الذي لا يريد أن ينقطع، إنها (هيستريا) على ما يبدو، حتى إن وجهها اكتسى

بألوان كثيرة، واختنقت، هامسةً إلى سارة: ماء، ماء يا سارة.

قفزت سارة إلى طاولة في الرُّكن مُحضرةً قُلَّة، ورفعتها إلى فم الأستاذة، فارتشفت منها رشَفاتٍ، والسُّعال تنفض به هواءً محتبسًا في صدرها، ويعلو ضحكها... إنها لا تكاد ترشُف رشفةً حتى تضحكَ ويتطايرَ الماء، ثم تنهَّدت بعُمق قائلة: كدتُّما تقتلانني (يا ولاد راشيل)، وعادت للضَّحك.

- واحد يريد أن يدخل، والأخرى تسأل: «هل خرج الذي بداخله؟» ها ها ها

ويعلو ضحكُها، وسارة تضحك وتقول: الغباء بالغباء يا (مدام)، وتضحكان، وأنا في رهبة الموقف كدتُّ أختنق، حوصرتُ بشعوري بأني ارتكبتُ حماقة، وبأن السيِّدة أوشكت على الموت، فماذا نفعلُ لو ماتت ولا أحدَ معنا؟

هدأت الموجة التي لم تستمرَّ إلا بضع دقائق - غير أنني شعرتُ أن عمري كلَّه انقضى أثناءها - لتقول المدام: لو أن هذا ممكن يا إيزاك لكنتُ حقَّقتُ أمنيَّتي بأن أكونَ مطربةَ (أوبرا) من قديم.

ومن خلال ضحكة عالية انطلقت منها قالت: كنت سأحملُ (الفونوغراف) إلى كلِّ بيت من بيوت معارفنا وأدخل فيه وأغنِّي.

انفجرنا جميعًا بالضَّحك، وتداخلت عباراتُنا الساخرة،

غُصْت بكلامي في كلامهما لأجدَ ذاتي التي كادت (تندلق) تحت أقدامهما، ثم قامت (المدام) واقفة في مواجهتنا، وأخذت في صُراخ وكلامٍ متداخل، يعلو وينخفض به صوتُها، ويهتزُّ جسدُها الممتلئ، لكنَّه أحدث جوًّا من النَّشوة والانفعال عشناه أنا وسارة.

بعد سنوات عرفتُ أن هذا الصُّراخ هو الغناء (الأوبرالي)، وأن اللغة التي كانت تتكلَّمها هي الإيطالية.

- صحيح (مدام) سيتحقَّق ما يقولونه عن وطنٍ لنا؟

- ولِمَ لا يا سارة؟ هذا ما يجبُ أن يكونَ كما تقول التَّوراة.

- وأنت ماذا تقولين؟

- وهل أعيش حتَّى يتحقَّق؟

- ولو تحقَّق؟

- يا سارة، نحن عشنا عمرَنا هنا في مصر، نعرفها وتعرفنا، أنا مصرية، وأشيائي مصرية، والمعبَدُ الذي أتعبَّد فيه في مصر، نحن يا سارةُ ارتبطنا بهذه الأرض، صحيحٌ أننا نعتزُّ بهُويَّتنا اليهودية، إلا أن هذه الأرض حملت أحزاننا وأفراحنا، ودُفن فيها أهلونا، فكيف سآخذُهم معي إلى أرض أخرى؟!

نـزلت الدُّموع على خدَّيِ الأستاذة ماكلين دون أن تنتحب، تحدَّرت الدُّموع وهي تنظر في وجهي كأنها تلتهمُ تفاصيلي، أو

تنظر إلى الزَّمن الآتي من خلال عينيَّ في مشاعرَ لم أفهمها حينئذ، ولم أفهم سبب انتقالها من نافذة إلى أخرى بعد أن أنهت كلامها، كانت تتلمَّسُ الجدرانَ وأخشاب النَّوافذ، مدَّت يدها إلى قُلَّة الماء، رشَفَت منها رشفةً خفيفة، ابتلعتها وهي مغمضةُ العينين متلمِّظة، ثم سحبت نفَسًا عميقًا، وفردت ذراعيها في الهواء، كأنها تهمُّ بالطَّيَران.

انطلقتُ مع عماد إلى سطح بيتهم، وحينما مرَرنا بصالة البيت حيثُ أمي وأمُّ عماد، نادت أمي: إلى أين؟

ردَّت أم عماد: دعيهما، أعتقد سيصعدُ به عماد إلى سطح البيت، كانت رائحة البَخُور قد ملأت المكان، والعطور الطيِّبة تنفُذ إلى الرُّوح من خلال صدري الذي يريد أن يتسعَ للعالم.

على السَّطح عَريش، جلسنا تحته أنا وعماد، وفتح صندوقًا كبيرًا أخرج منه رُقعةَ شِطْرَنج وكيسًا من قُماش فيه القِطَع، وسألني:

- تلعب شِطرَنج؟

- ماذا؟

- شِطرَنج، ألا تعرفُه؟

- لا أعرفه!

- أعلِّمك؟

وضعَ الرُّقعة، وأخذ يفرز القِطَع؛ اللون الأسود في ناحية، والأبيض في ناحية، وسألني:

- أيَّ لون تريد؟

- هل أختار؟

- نعم، أنت ضيفي، ولك أن تختار.

يبدو أن كرم الضِّيافة عندهم يجعلهم يمنحون كلَّ شيء للضَّيف، لكنَّني لست ضيفًا، أنا ابن (الدلَّالة) التي تأتي إلى أمِّه بما تبيعُه لها من أقمشة وزينات، ولولا كرمُ أمِّه وطيبتُها لكانت أمي جالسةً على الأرض تُخرج لها الأشياء، لكنَّها تصرُّ أن تُجلسَها على مقعد مجاور لها، قائلة: «كلنا أولاد تسعة يا أم إيزاك، تعالي تعالي».

- الناس مقامات يا (هانم).

- المقام لله وحدَه، الله يرضى علينا أجمعين.

للحظةٍ شردَت بي الأفكار، في حين عماد ينتظر أن أختارَ اللونَ الذي أفضِّل، ولم أنتبه إلا وهو يقول: ها إيزاك؟ ودون مقدِّمات قلت: الأسود.

نظر إليَّ مبتسمًا، وقال:

- هذا قدَرُك وحظُّك.

- ماذا؟

دهشتُ لكلماته، ماذا يعني بقدَري وحظّي؟ أيقصد أن حظّي أسود؟ لا بدَّ أنه يعني هذا، نعم، هو يُدرك أنني ابن دلَّالة، ونحن خدمٌ لديهم، إنه يتعمَّد إهانتي، بل يقول ما يعرف ويسمع، عن قدَر اليهود الأسود، وحظّهم المرّ الذي جعلنا نعيش بين أفراد شعب كبير، ونحن قِلَّة، أبي دائمًا يحذّرني أن آكلَ في بيوتهم؛ لأنه يعلم أننا مختلفون عنهم.

- حظُّك؛ لأن الذي يلعب بالقِطَع البيضاء له أن يبدأ اللعب.

هزَزتُ رأسي، وأنا أتأمَّل وجهه الذي لا يحمل أيَّ علامات غير الابتسامة، وهو يصف القِطَع قائلاً لي:

- افعل كما أفعل، وضع القِطَع كما أضعُها بالضبط.

بعد أن صفَفنا القطع بدأ يعلّمني أسماءها، وقد تعلَّمت الأسماء كلَّها، ثم أخذ يعلّمني قوانينَ اللعبة وطريقةَ تحريك كلِّ قطعة، إنه جيشٌ كامل، إنني الآن سأتعلَّم العسكرية على هذه الرُّقعة.

قضينا ساعةً تقريبًا وهو يعلّمني، كان صبورًا علي، فقد أخفقتُ كثيرًا، وفي كلِّ مرَّة يردُّ القطعة قائلاً لي: لو أنك فعلتَ هذا سأضربُ الفيل، لو فعلتَ هذا أهدِّد الوزير، كان يعلّمني بهدوء وإصرار على أن أتعلَّم، وحين دخلت علينا «تحية» تقول:

«ستِّي تناديكما»، قال: أتحبُّ أن تبقى معي نلعب؟

- أتمنَّى، لكن يجب أن أذهبَ مع أمي؛ فأنا لا أعرفُ الطَّريق وحدي.

- تعال دائمًا وسأكونُ في انتظارك.

مدَّ يده إلى الصُّندوق وأخرج رُقعةَ شِطْرَنج قديمة، وكيسًا قديمًا، لا شكَّ أن القِطَع التي فيه هي الأخرى قديمة، وقال لي: هذا الشِّطرَنج لك لتتمرَّن عليه.

تناولت الرُّقعةَ والكيس، ومع أن كلَّ شيء قديم امتننتُ لما فعل، وقبلتُ هديته ونزلنا.

كانت أمي واقفةً بالباب، فسلَّمنا وخرجنا من البيت، تصحبنا تحايا أمِّ عماد، وفيضُ دعَواتها بأن يسهِّلَ الله لنا الأحوال، وأن يجعلَ في نهارنا بركة، ويفتحَ لنا أبوابَ الرِّزق.

في الشَّارع، وبينما نسير أنا وأمي، تحمل على رأسها كيسَها القُماشيَّ الكبير المملوء بصنوف الأقمشة والخِرْدَة، وأنا أحمل ما أعطاني عماد- تساءلتُ: في المعبد يردِّد الحاخام أننا شعبُ الله الذي اختارنا، وأنه يحبُّنا ولا يفارقنا، وأنه يمنحُنا كلَّ الخير، فأين هذا الخير؟ لماذا ليس لدينا من المال ما يجعل أمي تشتري لي مَنامةً (بيجاما) زاهيةً كالتي يلبَسُها عماد؟ لماذا لا يكون لدينا بيتٌ جميل كبيتهم؟ لماذا لا يكون فيه ألعابٌ

وأصناف من الطَّعام والحلوى كالتي في بيتهم؟! إنهم مصريون، وهذه بلادهم.

شعرتُ أن السَّماء تسقط على صدري، أو أن الربَّ حمل جبلاً ووضعه بتُؤَدة فوقي، يدكُّني في الأرض دكًّا، لماذا نعيش في ألفَ لماذا؟ (مدام) «ماكلين» تقول: إنها مصرية، وهي تعيشُ عيشة طيِّبة، لكن إيزاك ابنها هاجر منذ سنوات وترك مصر، على حين تصرُّ أنها مرتبطةٌ بهذه الأرض. ألأن بيتها أفضلُ من الجُحْر الذي نعيش فيه؟ لكنَّه في نفس الحارة وبين نفس البيوت!

انتشلتني أمي من هذه الأفكار حين سألتني: ما الذي معك؟

- أشياء أعطانيها عماد.

- وماذا أعطاك؟

- نسيتُ اسمه.

- هل أكلت معه شيئًا؟

- لا.

- متيقِّن؟

- حتى الحلوى التي أعطتني إياها أمه ما تزال في جيبي.

- هاتها.

أعطيتُها أمي، وأنا أنظر فيها، وتمنَّيتُ لو أتذوَّقها، لقد

شعرت بطعمها يجري في حلقي، ماذا لو اختلستُ واحدةً منها وأبقيتها في جيبي؟ وماذا لو نسيتها واكتشفت أمي أنني اختلستُ حبَّةً واحدة دون علمها؟

لا تكذب على يهودي.

لا تسرق يهوديًا.

لا تُرابي على يهودي.

لا تزنِ بيهودية.

لا تأكل في غير بيوت اليهود.

لا تتزوَّج غير يهودية.

هي أرضنا نعيش فيها ولا نعيش فيمن فيها.

إنها وصايا الحاخام، ولا ريبَ أن الربَّ قالها، وعليَّ أن ألتزمَ بها وإلا عاقبني أبي، وعاقبني الرب.

أخذت أمي الحلوى، ووضعتها في كيس معلّق بحبل في عنقها، سمعت صوتًا يدلُّ على أن حبَّاتي ارتطمت بأقاربَ لها في نفس الكيس.

«الحمزاوي» لا تنتهي فيه الحركة، مملوء بالنَّاس؛ أناسٌ يلبَسُون (الجلابيب) وآخرون يرتدون الزِّيَّ الإفرنجي، عالَمٌ من

البشَر يسير في الشارع؛ بنات، ونساء، أعرف المصريِّين والمصريَّات من ملابسهم، وأعرف الفلاحين من هيئتهم الفقيرة، إنهم في مشيتهم ينظرون كأنهم في عالم يختلف عن العالم الذي أتَوا منه، إنهم يُكثرون من النظر في كلِّ مكان، يتلفَّتون كثيرًا، يلتهمون كلَّ شيء بأعيُنهم، أطفالهم يلبَسُون (جلابيب) قصيرةً لا تصل إلى كعوبهم، والنساء يرتدين (جلابيب) طويلة يُجَرجرنَها خلفهن، ولا يعبأن بكنس الشَّارع بملابسهن؟

بينما كنت أتأمَّل هذا الذي أرى، توقَّفت أمي وقد تقدَّمتُ عنها خطوتين، فنادتني: إيزاك، تعال.

اقتربتُ منها وهي تتكلَّم مع دلَّالة لا أعرفها، سمعتُها تقول لها:

- «راؤول» شابٌّ ممتاز، وكلُّ بنت تتمنَّاه يا راشيل، يعمل مع أبيه في محلِّ السَّاعات على رأس الحارة، وأنت تعرفين «كوهين» وزوجته «كارلا»، وتعلمين أن كوهين يدَّخر مالاً كثيرًا، وليس له غير راؤول، يعني كل شيء سيكون لسارة.

- سارة صغيرة، هكذا يقول أبوها، ثم إنه لا يريد أن يزوِّجَها في الحارة، يريد أن تخرجَ إلى عالم أفضل.

- عالم أفضل؟ تبطَرون النِّعمةَ يا راشيل؟ فيم يطمعُ يعقوب؟ يزوِّجها بأبناء «قطاوي» أم من أبناء «موصيري»؟!

انطلقت ضحكةٌ من السيِّدة... ضحكتها تتناسب وزينةَ وجهها، وجسمَها الطَّويل، وعينيها الواسعتَين، الآن أذكرُها بكلٍّ تفاصيلها، ولو أنها أمامي الآنَ لكان لي معها شأنٌ آخر، لا بدَّ أنني كنت سأقضي معها ليلةً لا مثيل لها.

لا أعرف فيما همسَتْ لأمي، فتغيَّر لونُ وجه أمي، لكنَّني سمعتُها تقول لها:

- حرام عليك يا راشيل، الشَّقاء سيأكلك والفقر.

- الربُّ كتب علينا كلَّ شيء.

- الربُّ قال أن نستمتعَ بحياتنا.

- لا، الربُّ قال أن نعيشَ له وحدَه؛ كي يرضى عنَّا.

- سمعتِ بالوطن الجديد؟

- تقصدين وطننا الأصليَّ، وأرضنا التي وهبها لنا الرب؟

- مؤكَّد أن الأغنياء سبقوا وسنذهب لخدمتهم، فكِّري يا راشيل... فكِّري.

- فيم؟

- في أيِّ الأمرَين أحببت.

وابتسمت غامزةً بعينها لأمي، وانصرفت.

أخذتني أمي من يدي دون كلام، وانعطفنا داخلَيْن حارةَ

اليهود، وبينما نحن في الطريق شَهِقَت أمي واستدارت بنا في منعطف حيثُ دُكَّان «شاؤول».

حين دخلنا الدُّكَّان بادرَنا بالتحيَّة، سأل أمي عن أحوالها وأحوالنا جميعًا، وسألها عمَّا تريد، فأخرجت من الكيس الذي في صدرها كلَّ ما فيه من حلوى وقدَّمتها له.

- من عند المسلمين؟

- نعم.

أخذها ووضعها في صندوق كبير فيه أصنافٌ من الحلوى قائلاً: سأباركها ببركة الربِّ وأُطهِّرها... من أين هذه يا راشيل؟

كانت أمي سابحةً في أفكارها، وربما لم تسمعه وهو يقول: أكيد هذه من بيت تاجر.

قلت له: نعم، نظرُ شاؤول... كان ضعيفًا، فقال مبتسمًا:

- أنت إيزاك، صح؟

- نعم.

- هل كنتَ مع أمك؟

- نعم.

- لا أراك كثيرًا في المعبد يا إيزاك، لا بدَّ أن تذهبَ يا بني؛

كي يحميَكَ الرب، أنتم الأملُ والحلم، وكلُّ ما نفعل لأجلكم يا حبيبي. وكيف حالُ سارة؟ مؤكد صارت عروسًا، لا أراها كثيرًا.

- هي دائمًا في البيت.

- هات يا شاؤول.

نطقت بها أمي بعد أن أفاقت من شُرودها، لكنَّ لون وجهها ما زال يحمل علامات التفكير والدَّهشة، مدَّ شاؤول يده في صندوق آخرَ مُخرجًا منه بعضَ الحلوى الرَّخيصة بمقدار أقل من الذي أعطته أمي، وقال: هذه مباركةٌ يا راشيل، أطعميها أبناءك وأنت مطمئنَّة.

- هل تصلِّين يا راشيل؟

- نصلِّي يا شاؤول، ونبارك.

- علِّموا العيال يا راشيل، علِّموهم.

- مع السلامة يا شاؤول.

كلام شاؤول خرج من فمه ليستقرَّ في عقلي، «نتعلَّم»؟ لماذا يصرُّ شاؤول أن نتعلَّم؟ لا بدَّ أن هذا يرتبط بالوطن الجديد. عماد يتعلَّم، وهذا واضحٌ في طريقته بالكلام، و(مدام) ماكلين متعلِّمة، وهذا واضحٌ في كلِّ حياتها. هل يجب أن أحملَ الأقمشةَ أدور بها على البيوت مثلَ أمي؟ غدًا تفعل سارة نفسَ

الشيء؟ هذا لا يمكن، وإلا أخذتها أمي معها إلى البيوت لتعلِّمَها، أمي ترفض أن يتزوَّجَها «راؤول» السَّاعاتي وتحلم لها بزوج أفضل، سارة تغنِّي أمام المرآة طويلاً، سارة تحبُّ جسمها، وتحبُّ وجهها.

كانت سارة بالنسبة لي الملَكَ الجميل؛ ببياض وجهها، وشعرها الطَّويل، وقدِّها الممشوق.

كان إصراري على أن أتعلَّمَ يعادل إصراري على أن أعيش، كنت بعد أن سمعتُ ما قاله شاؤول أعيش حالةً من الغُموض بيني وبين نفسي، وأنا أتأمَّل ما يجري من حولي، وما أسمع، وما أرى من تجمُّعات تجري في الحارة.

(٢)

لم يكن «مقهى مزراحي» وحده الذي ألاحظ أنه بدأ يكتظُّ بالروَّاد، وبدأت وجوهٌ غريبة تُقبل عليه، بل إن رجالاً تبدو عليهم الأناقةُ صاروا يرتادونه ليلاً.

في ليلة من ليالي (ديسمبر) الباردة تسلَّلتُ إلى الشَّارع من بيتنا، وتخلَّلتُ شوارع الحارة الضيِّقة التي كوَّنَ فيها الماء والتُّراب والقاذورات حالةً من الفوضى تخوض فيها الأقدام، وتمثِّل ما يُشبه الفخَّ للغريب عن حارتنا ومن لا يعرف (المدقات) التي يمشي عليها؛ كي لا يطوله إلا القَدْر اليسير من الأوساخ التي تصلُ إلى ما فوق القدم بعشرة سنتيمترات، والحاذقُ من يتجنَّب هذا ليعودَ وحذاؤه يحمل طبقةً طينية لزجة، لا بدَّ من استعمال خشبة أو قطعة معدنيَّة لإزالتها.

وصلتُ إلى المقهى، وبالطَّبع لا أستطيع الدُّخول؛ لأن سنِّي لا تؤهِّلني من وجهة، ومن وجهة أخرى لأن مظهري لن يوحيَ

إلى من فيها إلا أني متسوِّل، كنت قد رفعت بنطالي إلى ما تحت ركبتيَّ مستعينًا بـ (الأستك) الذي تستعمله أمي لتحزمَ جوربها فوق ركبتها، وتوسَّخت ساقاي بالطِّين، لكنَّ هذا لم يمنعني من أن أقتربَ من «مزراحي» لأرى وأستمع، وكان كوهين وابنه راؤول يجلسان على طاولة قريبة من الباب مع «سوسو»، و«سوليمون» الصائغ.

في هذه الليلة عرفتُ راؤول وأباه اللذَين ذكرتهما السيِّدة التي قابلت أمي، استطعتُ الربط بين ما سمعتُ منها وبين ما سمعت من حديث سوسو، كان يمزَحُ مع كوهين بتشبيهه بـ(بندول) الساعة الذي لا يتوقَّف، وكوهين يميلُ بضحكة بانَ لي أنها ذكيَّة لئيمة، لكن مع الحديث اكتشفتُ أنها لم تكن مزحة، بل إنه يُثني عليه وعلى كلِّ ما يفعل هو وابنه راؤول الذي كان على اتصال بأعضاء (المنظَّمة اليهودية)، وعَلِقَ برأسي اسم «ليون كاسترو»، عَلِقَ في ذهني وذاكرتي؛ لأن الأستاذة ماكلين علَّمتني إياه في دروسها للغة الإنكليزية، فتخيَّلت هذا الرجلَ الذي يحكون عنه أسدًا بالفعل؛ فهو برأسي - كما قالوا - «سفينة الخلاص».

هل سيأخذنا معه إلى عالم جديد؟ أم أن طوفانًا سيحلُّ بالأرض فينتقي أفاضلنا كما انتقى نوحٌ مَن ركبوا معه السفينة؟

أيُّ سفينة؟ نوح لم يأخذ معه إلا أبناءه الثلاثة وزوجاتهم، وامرأته، لكنَّ الناس كلَّهم في عصره قد أزعجوا الربَّ فغضب

عليهم، ثم ندم أنه خلقهم في هذه الأرض وحزن جدًّا، ومع أن نوحًا توسَّل إليه فقد أصرَّ أن يُهلكَ العالم بالماء ويغرقَ كلَّ حيٍّ ودابَّة على الأرض، إلا ما أخذ نوحٌ معه على السَّفينة، لا يمكن أن تكونَ الأرض كلُّها غرقت.

كانت الأفكار والمعلومات التي أتلقَّاها في هذه الأيام تتداخلُ وتتزاحم في رأسي، لماذا لم أفهم حينها أن العالم به أساطيلُ الآن، ولن يكونَ «ليون» نوحًا جديدًا، وأن الربَّ الذي أحبَّنا لن يُغرقَنا، وإنما هو سيجمعُنا كما فهمت، ووهبَ لنا أرضًا وحبًّا ومغفرةً مهما نرتكب من آثام؟

البرد يتسلَّل إلى عظامي، لكنَّني لم أشعُر به، فقد حملتني الخواطرُ مع «ليون» من خلال ما سمعت وعلق اسمُه بذهني.

دخلت المقهى فتاةٌ جميلة، شعرها سبقها حين أطلَّت من عربة (الحنطور) تعيِّن موضعًا لقدميها قبل أن تنزل، كانت تضع على كتفَيها معطفًا أسود، وآثارُ البرد الشديد لا تبدو عليها، وقام سوسو وكوهين وراؤول وسوليمون، والوحيد الذي انحنى لتقبيل يدها كان سوليمون الصائغ، فنادته متكلِّمةً بالفرنسية، لم أفهم شيئًا بعد ذلك؛ فالكلام تحوَّل إلى الفرنسية حين أتت، لكنَّني لم أبرَح مكاني؛ فقد كانت جميلةً للحدِّ الذي استوقفني أتأمَّل تفاصيلها منذ وضعت عنها المعطف، ونفضت شعرَها إلى الهواء تنبِّهه إلى دفء المكان، ومالت جدًّا على سوسو تهمس

في أذنه بكلام كان من الواضح أن الأربعة الآخرين يسمعونه بإمعان شديد.

لكن لماذا كانوا يتكلَّمون العربية، وحين أتت الفتاة تكلَّموا الفرنسية؟ لا بد أن أتعلَّمَ الفرنسية، أنا أسمع سارة تتكلَّمها مع الأستاذة ماكلين من حين إلى حين، فلماذا لا أتعلَّمها؟ هل هي لغة الأسرار؟ هؤلاء سكتوا عن العربية، وتكلَّموا الفرنسية، وسارة والأستاذة ماكلين تتكلَّمان الفرنسية أحيانًا، هل حين تتكلَّمان بها تخفيان عنِّي الأسرار؟ لست مغفَّلاً، لا بدَّ أن أعرفَ كلَّ شيء، أعرف ما يقوله هؤلاء، وأعرف الأسرارَ التي بين سارة والأستاذة ماكلين.

كم أنا غبي! لماذا لم أنتبه أن سارة وديفيد ابن الأستاذة ماكلين لا يتكلَّمان إلا بالفرنسية؟

لا أعرف كيف عدتُّ إلى بيتنا في تلك الليلة المظلمة الباردة؟ كانت كلُّ الأفكار تتزاحم في رأسي، وموضوع كلام سارة وديفيد أخذ معظمَ مساحة تفكيري وخيالي، بل الذي رسخَ لديَّ أن الفرنسية هي لغة الأسرار، ولا بدَّ أن هناك ما تقوله سارة ويقوله ديفيد ممَّا لا يُريدان أن أفهمَه.

تسلَّلتُ داخلاً البيت في هدوء مثلما خرجت منه، ولم أنسَ أن أركنَ إلى رُكن تحت السُّلَّم أزيل عن حذائي ما أستطيع من طين، وتركتُه عند الباب خارج الشقَّة؛ كي لا يُفضَحَ أمري،

لكنّي حين دخلت، وجدتُ أبي جالسًا في ضوء خافت ينظُر في الباب، لقد دخلتُ في نظره هو ولم أدخل الشقَّة.

تسمَّرت واقفًا إلى أن قال:

- ادخُل اغسل رجليك.

لم أنطِق بكلمة واحدة، ولا أعرف كيف دخلت، ولا كيف عدت، يبدو أنه سكران، صوتُه يشي بهذا، لكنَّه ليس من المعتاد أن يسكرَ إلا ليلة السبت، ماذا أقول له؟ وعمَّ سيسألني؟ هذه أول مرَّة أتسلَّل دون علم أحد، أمي وإخوتي نائمون، كلُّنا ننام الساعةَ التاسعة؛ لنستيقظَ قبل طلوع النَّهار.

كيف لم أنتبه أن أبي لم يرجع الليلةَ في موعده؟ لقد خرجتُ معتقدًا أنه نائم، لا بدَّ أن مصيبةً ستحلُّ بي الليلة، هذا أمرٌ لا ريبَ فيه، السُّكْر، وطريقتُه في الكلام يشيان بذلك.

وقفت أمامه دون أن أنطِق، كنت أحسُّ بالأرض تهتزُّ من تحت قدمي، بل شعرت أنني فقدتُ كلَّ وزني وصرتُ كريشة عُصفور صغير تتطاير كلَّما نفخنا، مستجيبةً لأنفاسنا.

انهمر المطر بشدَّة، وضوء البرق يخترق ثقوبَ النافذة، والرعد يهزُّ القاهرة كلَّها، وأبي يعبث برُقعَة كبيرة في الثوب الذي ينامَ فيه، ويُخرج دخانَ (سيجارته) من أنفه وفمه، مشكِّلاً موجات بيني وبينه، إنه ينفثُه في وجهي، وكلَّما رفع يمناه بارمًا بها شاربه قذفتني خيالاتي في أَتُون فزعٍ ورعب.

- أين كنتَ؟

- أنا؟

كنت ألبَسُ شعورًا ذا لونين: لون الصَّلابة الذي يقيم ساقيَّ، ولون الاضطراب الذي أحاول منعَهُ عن وجهي، هل يسألني وهو عارف؟ أم يسألني ليعرف؟ ليس من عادته أن يمرَّ بـ«مزراحي»، سأخبرُه أنني كنت في أيِّ مكان، وما المكانُ الذي سيسمح أن أكونَ فيه؟

تداعت الخواطرُ في رأسي:

- لا تكذب، لا تخدع أباك وكن بارًّا به، وإلا وقعت عليك اللعنة كما وقعت على حامٍ وذرِّيته، وهي باقيةٌ فيهم إلى الأبد.

- «يعقوب» خدع أباه «إسحاق»، وسرقَ البركة، وحرمَ منها أخاه «عيسو»، ولم يستطع «إسحاق» ردَّ ما أعطاه، ونحن من «يعقوب».

- كان رافضًا، وأمُّه أصرَّت وحرَّضته على ما فعل.

- بمَ أهتدي من كلام الحاخام، وممَّا أسمع من التَّوراة التي يقرؤونها علينا؟

قام أبي واقفًا، وجذبني من مكاني ومن أفكاري، كمَن جذب حديدةً من جمر ينفخ فيه كِيرًا ليُلقيَني في جحيم أنفاسه الفائحة بروائحَ كريهة، ولا يفصل وجْهَه عن وجهي غيرُ بوصات،

وبهدوء شديد وصوت يُقارب الهمس المحموم:

- لماذا كنت عند مزراحي؟

ضغط على مِعصَمي بشدَّة.

- لا أعرف.

- هل تمشي وأنت نائم؟

- مَن قال لك هذا؟ ثم كيف عرفتَ أنني كنت عند مزراحي؟

إنني أستجمع كلَّ قُوايَ كقطٍّ في مواجهة أسد.

- أنت كنت هناك، أنا رأيتُك، كنتُ مارًّا من هناك عائدًا من خمَّارة موسى ورأيتك واقفًا، لكنَّني اعتقدتُ أن الخمر لعبت برأسي، وهُيِّئ لي شكلك، ولمَّا لم أجدك في فراشك عرفتُ أنني لم أسكَر.

كان يتكلَّم ورأسُه يتمايل من فعل الخمر، إنه بالفعل سكران، وبينما هو يتكلَّم كنت أسأل نفسي:

- كيف لم أرَهُ؟

- وكيف تراه في عَتَمَة الليل؟

- فكيف لم أشعُر بوقع أقدامه؟

- كثيرون مرُّوا في الشَّارع داخلين وخارجين من الحارات والأزقَّة.

- هل مرَّ أُناسٌ كثير؟

- كثيرون مرُّوا وأنت غارقٌ في أفكارك وخيالاتك.

- بل هي الحقائق والرَّغَبات.

جذبني إليه من مجمع عُنقي حتى أحسستُ أنه يقتلعني من أرض الخلق الأول:

- لماذا لا تجيب؟

- أخذني الفضولُ إلى هناك حين رأيت وجوهًا غريبةً تدخل الحارة، وإقبالاً على مزراحي.

- وهل الإقبال فقط على مزراحي؟ الحارة يدخلها كثيرون هذه الأيام، فقط خمَّارة موسى لا يدخلها غيرنا.

- ماذا تقصد بغيرنا؟

سألتُه وقد بدأت نفسي تطمئنُّ أن المصيبة لن تقع، أو ربما ستقع، لكنَّ بعض المكاسب أفضلُ من الخسارة الكاملة.

- نحن يا إيزاك، الفقراءَ الكادحين الذين لا يرانا أحد، نحن حطبُ النَّار الذين يُلقى بنا فيها لينضِجَ خبزُ الأثرياء وأصحاب المقامات الرفيعة، نحن سكَّان الحارة الذين كُتب علينا (الجيتو)، القتل واجبٌ ما دام الربُّ يريد هذا، الغدر ليس من طباعي، هم القوَّة الآتية، هناك الجديد، هناك امرأة، لا تسمَع لها، لا تتزوَّج إلا إذا آمنت بالرب، النساء والدُّنيا يا إيزاك، الربُّ في المعبد.

يبدو أن الخمر تعمل عملها، أبي يتكلَّم بلغة خليطة بين العربية والعبرية، كلامُه خليط من التصاريح وآيات ووصايا التَّوراة، التفت إليَّ وكان قد غرق في عرَق غزير يتصبَّب من كلِّ خليَّة من خلاياه، ونظر في وجهي نظرةً عميقة، وفي غَمْضَة عين سقطت يدُه على وجهي بلطمة لم أذُقْ قبلها ولا بعدها، لطمة أعمَتْني عن كلِّ شيء، وأصمَّتني عن كلِّ شيء، وأذهلتني حتى عن نفسي، فلم أسمع غيرَ قوله: لا يمكن أن نبقى في هذه الحال إلى الأبد، الربُّ لن يرضى.

سقطت يدُ أبي مع صرختي وسقوطي على الأرض، وانتهاء كلماته، لكنَّ الذي لم يكن انتهى هو تدفُّق بولي مغرِقًا مقعدتي حتى قدميَّ، ومحدثًا بِركةً في مكان جلوسي، وكالبرق قمتُ إلى الحمَّام، خلعتُ عنِّي ثيابي وألقيتُها، وجَريًا دخلت الغرفةَ عاريًا، والبكاء يتفجَّر، انتفضت سارة صارخة: ما هذا؟

لفَّتني باللِّحاف، وأخرجت من الصُّندوق ثيابًا لي.

- هل أنت صغير لتفعلَ هذا؟

لهجتها الناهرة لم تكن شيئًا في صوت بكائي وانتفاضي.

- لا تبْكِ، خلاص - ومدَّت الألف طويلاً - هيَّا اذهب واغتسل من هذه الرَّائحة يا عفِن.

- سيضربني.

- من الذي سيضربُك؟ هل أنت صاحٍ؟

- أبوك سيضربني مرّة أخرى.

- أبي؟ وأين أبي؟

- يجلس في (الصالة)، وقد ضربني.

- هيَّا إلى الحمَّام وسأرى.

أدخلتني الحمَّام، وأغلقت عليَّ الباب، كان الماء باردًا جدًّا، اعتدتُّ أن تسخِّنَ لي أمي الماء، كيف أستحمُّ بماء مَثلوج؟ لن أستطيع، غسلتُ نصفيَ الأسفل وأنا أرتجف مسرعًا؛ كي أخرجَ من هذا العذاب.

صرخت سارة صرخةً انتفضتُ لها، لا بدَّ أنه ضربها، صراخُها يعلو ويعلو، ماذا فعلت الخمرُ بأبي الليلة؟ ليس هذا طبعَه، ضربني لأنني خرجتُ بغير إذن، فلماذا يضرب سارة؟ صرخاتُ سارة أخرجتني لابسًا البنطالَ فقط، وقد نسيتُ البرد؛ فأنا لا أُطيق أن يهينَ أيُّ إنسان أختي سارة، حتى لو كان أبي، لا بدَّ أن أحولَ بينه وبينها، بينما أقفز خارجًا، انتبهت أن أمي تصرُخ أيضًا، وقفتُ بلا حَراك، أبي ثابتٌ في مكانه، وأمي مُنكفئة عليه، وسارة على الأرض تمزِّق شعرَها، وعزرا ذاهلٌ عند باب الغرفة.

أبي مات.

(٣)

ضجَّت الحارة بنا وبالأصوات المنبعثة كالرُّعود من نوافذنا وباب شقَّتنا الذي فُتح على مِصراعَيه، وحدي لم أكن أبكي، وحدي كنت أتأمَّل عالمَين أو ثلاثة أو عشرة، لا أعرف في كم عالَمٍ ذهبتُ، لكن ما أعرفُه أنني كنت في مأزِق شديد؛ فهذا أبي قد مات، وهؤلاء أهلي في كَرْب، حين ينتهي سأُصلَب على أسئلتهم، لكن لا يهمُّني.

نعم، لا يهمُّني كلُّ هذا، فها هو قد مات بعد أن صفعَني، بل بعد أن حطَّم كلَّ شيء يتصل بمزاعمه أنني امتدادُ عائلته! أيُّ عائلة تلك التي لا أعرف منها غيرَ بضعةِ نفَر، وفقيرٌ هو جدُّنا الذي ورثنا عنه أجيالاً من المعاناة تتوالد وتتكاثر في أركان هذا الجُحْر الذي لا يعرف إلا بعضَ الترتيبات للسُّبوت؟

هلكت كلُّ علامات النَّضارة في وجه أمي، نُحتَت فيه ملامحُ جديدة تُطلُّ من شعر يصل من رأسها إلى الأرض التي تفترشُها،

تكنس ترابَها براحتَيها، وتلطِمُ به خدَّيها، أين هذا القمرُ الذي كانت تمدحه النِّساء؟ وأين عيونُ المها؟ وأين الفمُ الذي كان يسكبُ كؤوسَ الخمر كما كان يقول أبي؟

الموت ملأ المكان، والأنفاسُ تراوحت فيها روائحُ النَّوم التي أتت من كلِّ مكان لتجتمعَ في جُحْرنا، وكلُّ الأصوات ما هي إلا أصواتٌ لا أكاد أفهَمُ ما تعني، جارتان دخلتا غرفةَ أمي تنظِّفانها، وترتِّبان سريرَها، ورجالٌ يحملون أبي إلى السَّرير، وآخرون يقرؤون، وغيرهم يدعون، ونساء لا أرى في وجوههنَّ علامات حُزن، برغم الصِّياح يؤازِرْنَ به أمي، وتتناقل الأيدي والصُّدور سارةَ التي تحوَّلت إلى ما يُشبه وسادةَ محموم غرقت في عرقه ولُعابه، فلا يطيقُها هو نفسه كلَّما أفاق، وعزرا بين كلِّ هذا مستسلم لرجع البُكاء في صدره يختنق بالدَّمع، فحينًا بين الأرجُل، وحينًا في حِجْر أمي.

لم ننَم الليل كلَّه، بقينا حول أبي نؤانسُه كما طلب الكاهن منَّا، ومع الصَّباح جاء منهم من كان حاضرًا ليلةَ البارحة، ومنهم من لم أرَهُ من قبل.

نظر الحاخام في وجوه الحاضرين، وقال كلامًا كلُّه عن الموت، وأن الجميع سيموت إلى أن يأتيَ الزَّمن الذي يقتل فيه الربُّ الموتَ ويبقى الخلود، ثم طلب الماء، وظلَّ يردِّد ومَن حوله: (باروخ ديان هاإميت).

ماء ساخن، ماء بارد، أُدخلت أريكةٌ إلى غرفة أبي، أخذ الحاخام بيدي إلى الغرفة، ودخل معنا موسى صاحب الخمَّارة، و«ميخائيل» بائع الأقمشة، و«مصطفى عبد الواحد»، وأربعةٌ آخرون من بينهم شابٌ أنيق جدًّا لا أعرفه، لكنَّني فيما بعد التقطتُ أنه صحفي، والذي دهشتُ له تلك الابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على وجه الحاخام لمصطفى عبد الواحد هازًّا رأسه للأمام، فردَّ عليه مصطفى بمثلها، وخرج من الغرفة.

مصطفى كان المسلمَ الوحيد الذي دخل، لا يمكن أن يكونَ في غرفة الغسل غيرُ يهودي، ولا بدَّ أن يكونوا مقرَّبين؛ بل أقرب المقرَّبين من الميت، هل موسى صاحبُ الخمَّارة من أقرب المقرَّبين من أبي؟ حياة عجيبة وغريبة هذه التي نعيشها.

الحاخام ينادي طالبًا قُماشَ الكفَن، فتحنا أكياسَ أبي بحثًا عن قُماش أبيض يصلح للكفَن فلم نجد فيه ما يصلُح، وفتحنا أكياسَ أمي فلم نجد، حالةٌ من الذُّهول والهَرْج تعمُّ أركان جُحْرنا الضيِّق.

- إيزاك.

كان هذا صوتُ أمي الصَّارخ المنادي:

- اذهب إلى دُكَّان «محمد محمود».

- أين؟

- في «الغورية».

- كيف؟

- هل أنت صغير يا ابن الـ. . .

- لماذا تصرُخين بي هكذا؟ لست صغيرًا، كيف أترُك الأغرابَ وحدهم مع أبي؟

- اذهب حالاً إلى هناك، مكتوب عليه «محمد محمود للميني فاتورة»، سَلْ عنه من تجد في الدُّكَّان.

لم أكن أرغبُ في ترك أبي بين الأغراب، كنت أريد أن أتفحَّصَ كلَّ قطعة فيه قبل أن يغادر، بالتأكيد لن يغادرَ دون الكفَن. . «دُكَّان محمد محمود في شارع الغورية».

كان المطر في ليلة البارحة قد أحدثَ حوادثه، والشَّوارع تضِجُّ بالناس الذين يحاولون جاهدين تنظيفها، سلكتُ طريقي غيرَ آبهٍ بشيء إلا الوصول إلى الدُّكَّان.

- أريد الحاجَّ محمد محمود.

- ماذا تريد حضرتك؟

- أبي مات.

- من أبوك؟

- يعقوب القمَّاش.

- إنا لله وإنا إليه راجعون.

أخذني الرجل إلى داخل الدُّكَّان، وقدَّمني إلى آخرَ تكسوه علاماتُ الهيبة والوَقار، يجلس وراء مكتب خشبي، مرتديًا (قُفطانًا) أنيقًا و(طربوشًا)، وأمامه فِنجان قهوة تنبعث منه روائحُ زكية، قال له الرجل الذي أدخلني:

- البقيَّة في حياتك يا حاج.

- في مَن؟

وبدت على وجهه علاماتُ الدَّهشة.

- يا فتَّاح يا عليم، يا رزَّاق يا كريم.

- يعقوب القمَّاش، وهذا ابنه.

قام الحاجُّ من مكانه، واحتضنني بحميميَّة، لم أعرف كيف أشعرتني أنني لم أخسر أبي؟ ثم أجلسني وطلب لي كوبَ زنجبيل يُدفئني.

- الله يرحم أباك يا إيزاك يا ولدي.

- ليس في بيتنا قُماش للكفَن.

- قُماش؟!

قالها مُنتفضًا واقفًا، وجال في أنحاء الدُّكَّان مناديًا عمَّاله: «قُماش كفَن فاخر يا ولد»، ويبدو أن أمتار الكفَن ممدودة

ومعروفة لديهم، فالعامل أتى بلفَّة من بين لفائفَ كثيرة تُماثلها، فردَّه الحاجُّ طالبًا أربعة أمتار زيادة، ليس هذا فقط، وإنما طلب من عامل آخرَ أن يأتيَ بعربة (حنطور)، وأخذني فيها إلى جواره، وإلى جانب (العربجي) جلس العاملُ حاملاً القُماشَ بيديه:

أبوك كان رجلاً طيِّبًا يا إيزاك، لولا الخمرُ الذي كان بسببه يذهب إلى خمَّارة موسى المُرابي، وطالما نصحتُه ألا يذهبَ إلى هناك، لكن مع كلٍّ شيء كان طيِّبًا، يحبُّ الناس...

قطعت بنا العربةُ شارعَ الغورية، مرورًا بـ«الأزهر» و«الموسكي»، مخترقةً حارتنا، حتى وصلنا إلى البيت، وصَعِدَ معي الحاجُّ ومن ورائنا العامل، دخلنا إلى البيت، ولا أعرف كيف تركتُه داخلاً إلى غرفة أمي لتبدأ أعمال الطَّهارة والتكفين.

في طريقنا من «راب سمحام» على رأس عطفة القرائين إلى البساتين، كانت الدُّنيا تمرُّ أمامي أضيقَ كلَّما شعرت أنني صرتُ بغير أب، وأنه الآن ذاهبٌ إلى حيثُ لن يعود، كلُّ ما تلاه الحاخام والحاضرون من التَّوراة والأدعية وتكرارها لم يقف منه في عيني غيرُ أننا سنموت، وأننا نعيش في الدُّنيا؛ لنذهبَ إلى التُّراب.

أبي في التابوت على عربة يجرُّها حصان، وكلُّنا إلى يوم سنُحمَل فيه إلى حيثُ نعتقد أننا نعرف، لم يعلِّمني أحدٌ أفكار الموت ومعطياته.

وصلنا إلى المقابر، وكلُّ مَن تحت هذه الأرض من اليهود عاشوا ليموتوا؛ هنا مقابرُ متمايزة، منها ما عليه شواهدُ فخمة، ومنها ما عليه قطعةٌ من الحجَر، كنَّا نعرفهم في الدُّنيا، والآن فقط نعرف أماكنهم، هل التمايزُ بين الناس في الآخرة كما في الدُّنيا؟! يقولون: «هذه مقبرة موصيري الفخيمة»، سمعتُ بهذا الاسم، إنهم الأسياد الأغنياء، الدُّنيا هي التي تجعل مَن فيها غنيًّا أو تجعله فقيرًا، سمعتهم ينادونني: «تعال لتنثرَ التُّرابَ على أبيك»، أبي في حُفرة في بطن الأرض: «باروخ ديان هاإمت»، تبارك القاضي الحقيقي.

- هيَّا يا إيزاك، أكرم والدَك.

نظرتُ في وجوههم دهشًا، أيكون الإكرامُ بأن أهيلَ عليه التُّراب؟

- كلُّنا لها.

هذه ليست أقوالنا، أو منها، أنا لا أعرف... لكنَّ صوت الحاجِّ محمد محمود وإلى جواره مصطفى عبد الواحد يتنهَّد، لم أنتبه إلا الآن أن «عيسى دانيال» و«إبراهيم باسيلي»، و«حنَّا مرقص إسكندر» يقفون والحزنُ مرتسمٌ على وجوههم.

حثَوتُ قبَضات من التُّراب على أبي، ومن بعدي أقاربُنا الذين لا أعرف منهم أحدًا، ثم بدأ الكلُّ يهيلون التُّراب إكرامًا للميت.

اصطفَّ الناس وتقدَّم الحاخام وأنا من ورائه، ثم من بعدي موسى صاحب الخمَّارة، إنني لا أعرف غيرَ أن اسمه موسى، فلماذا يتلقَّى العزاء معي؟ الحاضرون يردِّدون: «الله يواسيكم»، مع الذين يندبون صِهْيَون والقدس، وآخرون يقولون: «البركة فيك يا ابني».

الحاجُّ محمد محمود ابتسم في وجهي وضمَّني.

ثم سرنا في موكب خارجين من المقبرة.

في منزل «ميخائيل سمعان»، كان بيت «شفعاه» للرِّجال، أما النساء فكنَّ في البيت الذي نعيش فيه، في أيام «الشفعاه» تُضاء شمعةٌ على شرف الميت، وتُغطَّى كلُّ المرايا في البيت، بيتُنا لم يكن فيه غيرُ قطعة صغيرة، وضعت أمي عليها منديلاً، فواراها في أحشائه السَّوداء، في هذه الأيام تتوقَّف الحياة كلُّها بالنسبة للنادبين، فلا عملَ ولا حتى قراءة التَّوراة، فقط كنت أنا وسارة من وقت إلى آخر نقرأ نصوصًا من التأسُّف والحزن.

قضيت الأيامَ السَّبعة بين بيت «صمويل» وبيتنا، يدخل الرجالُ في هدوء مواسين ويخرجون، وشعرت أن أبي كان معروفًا

جدًّا، هذا إذا حسبته بعدد الذين لم ينقطعوا لمدَّة ستَّة أيام، وفي بيتنا كان يأتينا الطَّعام من البيوت المحيطة بنا، ومن بيوت معارفنا، وقد سمعتُ الكثير عن أبي من كلٍّ من كانوا يعرفونه ومن أمي، هذه عاداتُنا أن يتكلَّمَ النادبون عن ميتهم، ربما هي وسيلةٌ للإلهاء عن الحزن باجترار الذِّكريات أو الأفعال الطيِّبة، والوحيد الذي لم أسمع منه أيَّ شيء عن أبي هو موسى صاحب الخمَّارة، هذا الرجل يحيِّرني أمره.

سمعت مرَّة أن الحزن إذا استبدَّ بالإنسان يأخذ بيده إلى منطقة التطهُّر من كلِّ غرور، ومن كلِّ الشُّرور، وأن الموت هو أوسعُ باب للحُزن، لكنَّ الذي عشته خلال تلك الأيام كان أكبرَ من الحزن، بل كان أوسعَ الأبواب لأن أبدأَ في تعرُّف نفسي؛ فأنا الآن رجلٌ كما أسمع من كلٍّ من يعرف أنني إيزاك بن إبراهيم القمَّاش، يقول: «شُدَّ حيلك، أنت رجلٌ وعلى قَدْر المسؤولية»، هل حقًّا سأتحمَّل مسؤوليةً كان يتحمَّلها أبي؟

سأتحمَّل تبعات الفقر الذي تركنا فيه أبي؟

سأتحمَّل مسؤوليةَ سارة؟

سارة أحبُّ الناس إلى قلبي، هي أقربُ لي من أمي، حزنُ أمي على أبي لا يعادل حزنَ سارة؛ لقد قطَّعت شعرَها، ومزَّقت وجهَها، خلال تلك الأيام ذبُلَت ورودُها، وما عدتُّ أسمع لها صوتًا ولا أشمُّ لها عطرًا، إنها تقترب من الموت، نظراتُها إليَّ

كلما رأتني غريبة جدًّا، لماذا تنظر لي بهذه القسوة ولا تتكلَّم معي في أيِّ شيء؟

لماذا لم تعُد تسألني إن كنت أريدُ أن آكل؟

أكلُّ هذا ناتجٌ عن حزنها على أبي؟

في «السيناجوج» يقولون: الموت أمرٌ مقضيٌّ، صحيح أننا نحزن، وأننا ننذُب ميتنا، لكن هل من هذه الطقوس أن تُعاديَ الأخت أخاها؟

سواد شديد يلفُّني، يحملني إلى أعماق سحيقة، جُحْرٌ كان فيه أبٌ وعائلته ترزَحُ في فقر لا تختلف ملامحُه عن طين الشَّوارع، ولا تختلف طرقُه عن أزقَّة حارتنا، ولا تختلف نتائجُه عن نتائج ميلاد صبيٍّ جديد في نفس الأسرة، هذا نصفُ دخل البيت قد حُرمناه، هاربًا إلى جُحْر في عُمق الأرض، ترك أبي جُحرًا فوق الأرض إلى جُحرٍ في بطنها، ولم يستفد من خمر هذا الخنزير الذي يأتي كلَّ يوم منفوخًا غيرَ أن الأرض ستشربها من جسده.

(٤)

عام مرَّ ونحن نندُب أبي، إنها طقوسُ اليهود الشَّائعة، نندُب الميت عامًا كاملاً، أمي لم تتزيَّن، ولم تمشِّط شعرها ولا سارة مدَّة عام كامل، وأكلُنا كَفاف، ومعيشتنا أحزان، لكنَّني كنت قد قطعت شوطًا كبيرًا في تعلُّم الفرنسية والعبرية، الأستاذة ماكلين نبَّهتني إلى طريقة ممتازة لأتعلَّم بها الفرنسية، كنت حين أدقُّ بابها أقاطع كلَّ ما أعرف أن أنطِقَ به إلا الفرنسية؛ لهذا كانت في تلك المدَّة لا تتكلَّم معنا أنا وسارة إلا بالفرنسية، فكنت أقضي أوقاتًا طويلة أستمع لها، وأتتبَّع إشارات أيديهما إلى أن بدأت أفهمُ وأتعامل بالفرنسية، وفي نفس الوقت، وافقت أن أكملَ دراستي في مدارسَ مصرية، فحتى المعونات التي وافقت أمي تحت ضغط شديد على قبولها لم تكن تكفي معيشتنا.

في المدرسة تعلَّمت كما يتعلَّم المصريون، وما أفتخر به أنني أتقنتُ اللغة العربية وأدبها، ولم تكن عيني تقع على شيء

يخصُّها إلا قرأته وفهمته وتدبَّرته، فقرأت أشعارَ القدماء، وقرأت شعر امرئ القيس والبارودي، لقد أحببت الشعر.

موت أبي أطلق عِقالَ المحبوس بداخلي، وحُزن أمي فتح أمامي بابَ الحرِّية، فقد تحرَّرتُ كثيرًا عن ذي قبل، أتت دلَّالة من معارف أمي، وكانت سيِّدةً سمينة سمراء، في وجهها علامات الطِّيبة، وأخبرتها أن الحاجَّ محمد محمود يستأذنها في أن تصطحبَني إلى دُكَّانه، فسألتها أمي مستفسرةً عن السبب، فلم تخبرها السيِّدة بأكثرَ مما أخبرتها، لكنَّها أردفت قائلة: «يقول: يريدك وإيزاك في أمر مهمٍّ جدًّا، لا يحتمل التأخير»، فوعدَتها أمي أن تذهبَ إليه في أقرب فرصة.

لاحقًا أخذتني أمي ذات ظهيرة مشمسة، وتوجَّهنا إلى دُكَّان الحاجِّ محمد محمود، وكنت لم أرَه منذ ما يُقارب العام، بل إنني انشغلت عن التفكير في هذا الرجل الذي احتضنني بكلِّ حنان، وفي طريقنا إليه تداعت ذكرياتُ اليوم الذي ذهبت إليه فيه لأحضرَ كفَن أبي، وسألتُ أمي:

- هل دفعتِ له ثمن الكفَن؟

- لقد أرسل بأنه لا يريد الثمن.

- ولماذا لم تلحِّي في الدَّفع؟

- وهل ترانا نملك ما نأكل به؟

- فماذا لو أنه يريدنا الآن ليُطالبَنا؟

التفتت لي وعلاماتُ الدَّهشة قد هجمت على وجهها تفترسه:

- مسلم ويعملها.

- ضمَّني بحنان يوم كنَّا في المقبرة، وقبلها قال لي: إن أبي كان رجلاً طيِّبًا.

- كان عبيطًا.

كانت نظرتي البلهاء تُفصح عن عدم فهمي لأيِّ شيء، ونظرتها المتوجِّسة، وعلامات الحَنَق، وإبطاؤها في السَّير فضح أفكارها.

- الأولاد في المدرسة والأساتذة لا يميِّزون بين أدياننا.

- أنت يهوديٌّ ابن يهودية.

- أعرف، لكنَّني مصري.

- هي بلدنا.

- هل تعرفين شيئًا عن التاريخ يا أمي؟

- مالي والتاريخ؟ طردونا منها أيام النبيِّ موسى.

- وهل نحن ممَّن خرجوا أم ممَّن أتَوا من دول أخرى؟

- نحن من زرع الأرض، وطين الشَّوارع.

- ماذا تقصدين؟

- «سفارديم».

- أعرف.

كنَّا قد وصلنا الدُّكَّان، وكان مزدحمًا بالزُّبُن، منهم كثيرون تعرفهم أمي ويعرفونها، نظرت في وجهي امرأة متأمِّلة بعد أن صافحت أمي مسلِّمةً عليها: أنت إيزاك؟ والله شاربُك خطَّ يا إيزاك.

ابتسمت لها أمي قائلة: طويل كأبيه.

- وجميل مثلك يا راشيل.

- الجمال للبنات يا حسنية.

- زليخة افتُتنت بيوسف.

- لا يحلُّ لابنتك يا حسنية.

كنت أسمع هذا الكلامَ وعيناي تخترقان الزِّحام بحثًا عن الحاجِّ...

لوَّح لنا، فدخلنا مخترقين الزِّحام ووصلنا إلى حيثُ يجلس، فقام مستقبلاً، وسلَّم عليَّ بشوق، وسألني عن أحوالي ملاطفًا، لكنَّ أمي لم تُلقِ أيَّ ابتسامة، ولم تنطِق بغير عبارة: مساء الخير يا حاج، طلب لنا الحاجُّ كوبَي زنجبيل، منذ عام طلب لي نفسَ الكوب، ولم أشربه، ربما أشرب منه الآن.

- وكيف أحوالكم يا ست راشيل؟

- بخير يا حاج، الدُّنيا كلَّ يوم على حال.

- يعقوب كان رجلاً طيِّبًا.

- من ذوقك يا حاج، من ذوقك.

سادت لحظةٌ من الصَّمت، كان أثناءها الحاجُّ يراجع فاتورة مبيعات، ويعتمد التسعيرَ فيها وقد دخل القهوجي يحمل كوبَين فيهما مشروبُ الزَّنجبيل الذي تملأ رائحتُه الطيِّبة المكان، مختلطةً برائحة القهوة التي في الفِنجان المذهَّب على صينيَّة لامعة، وضع الرجل المشروبات أمامنا.

- يا ست أم إيزاك.

- نعم يا حاج.

- انتبه معايا يا إيزاك.

- نعم!

في الحقيقة كما قلت: يعقوب كان رجلاً طيِّبًا، وقد...

قاطعت أمي:

- تقصد يا حاج ثمن القُماش؟

قال الحاجُّ بدهشة شديدة:

- أيُّ قُماش يا أم إيزاك؟ لا أحدَ يأخذ من الدُّنيا غير القُماش والقطن، أنا رفضتُ ثمنه من قبل، ومن العيب أن آخذَ

ثمن كفَن يعقوب.

غرقت أمي في الحياء، واحمرَّ وجهها، وتلعثمت، وانحدرت دموعٌ من عينيها، وهي تلتفت بوجهها إلى الحاجِّ.

- صدِّقني يا حاج أنا يأكلني الإحراج مرَّتين، وشهامتك معروفة، وأنت ابن بلد معروف، وأفضالك على الكل.

- يا ست راشيل كلُّنا أهل، ولا يدوم إلا المعروف، وفي الحقيقة لديَّ موضوع مهم، ووصيَّة حملتها منذ زمن، وأتى موعدها.

- خير يا حاج؟

- وصيَّة يعقوب.

بدأ الفضول يتملَّكني: أيُّ وصيَّة يتركها أبي؟ سمعت أن الأغنياء فقط يتركون الوصايا، ثم عند من يترك أبي الوصيَّة؟ عند الحاجِّ محمد أم عند الحاخام؟

ابتسمت أمي ابتسامةً ساخرة: يعقوب يترك وصيَّة؟

مدَّ يده إلى دُرج مكتبه وأخرج كيسًا وفتحه، تناول منه أوراقَ نقد، وعدَّها قائلاً:

- مئة وسبعة وتسعون جنيهًا.

غرقنا في الدَّهشة، وفغَرَت أمي فاها، وقد رأيت العالم كلَّه ينقلب على أهدابها، وفي عينيها بريقٌ لم أعرفه من قبل، بل إني

رأيت أمي تُغادر عمرَها لتعودَ صبيَّة صغيرة تودُّ أن تختطفَ الفُلوس من يد الحاج وتركض بها إلى بائع الحلوى، وربما ستشتري دُميةً كالتي رأيتها عند أخت عماد!

- ما هذا يا حاج؟ صوتها مرتعش، وأنفاسها تتلاحق.

هذه وصيَّة يعقوب وما ترك، كان يعقوب يُتاجر معي، يأخذ أقمشةً يبيع ويربح، ويوم ربح ويوم خسارة، وكلَّ يوم يأتيني بعد رحلته يفرغ ما باع به في حِجْره في هذا المكان، وأشار إلى الأرض في ركن متوارٍ خلف المكتب؛ يعُدُّ ويحسُب ويحاسبني، فيعطيني ثمنَ البضاعة، ويقسم حصَّته ونصيبه، يأخذ بعضًا، والباقي يستودعُه عندي ليوم يأخذه، ولكنَّه أوصاني إذا مات قبل أن يتمَّ إيزاك الثامنة عشرة أن أحتفظَ بأمانته إلى أن يتمَّها، ولعلَّ المال يعجِّل بزواج سارة.

- كبِرَت يا حاج ومَن في سنِّها لديها أولاد.

كانت علاماتُ الأسى تبدو على وجهها، لا أحدَ غيري يعي العلاقةَ التي تربو بين سارة وديفيد ابن الأستاذة ماكلين، والحبَّ الذي يكتمانه، أنا أدركت هذا من نظرات عيونهما، ومن الصَّمت الذي صار يطول منذ بدأتُ أفهم الفرنسية.

- كلُّ شيء بأوان يا ست أم إيزاك.

لم يكد الحاجُّ محمد يُنهي كلامه حتى دخل علينا عماد،

بمجرَّد أن رآني تهلَّل وأقبل عليَّ مصافحًا، لقد دخل الدُّكَّان يلقي التحايا على العمَّال كأنه يقيم معهم، ويقضي كلَّ وقته في معيَّتهم، وبعد أن صافحَني رحَّب بي، ثم تركني إلى الحاجِّ محمد وسلَّم عليه منحنيًا يقبِّل يده.

عينا أمي تعلَّقَتا به وابتسامتها أيضًا، وحين التفت إليها قال: البقيَّة في حياتك يا خالة، فردَّت عليه، وأنا دهش جدًّا؛ إن عماد هو ابن الحاجِّ محمد محمود؟!

- أعرِّفك بابني عماد.

- منذ متى لم نلتقِ يا عماد؟

- منذ علَّمتك الشِّطرَنج .

حين نطق بالشِّطرَنج تذكَّرت كيف كان يعلِّمني وكيف كنت أُخفِق، ليس هذا ما أعني، أعني أنني أخفقتُ في معرفة نقلات القِطَع كما يبدو، وأنني سأخفِق في معرفة نقلات القِطَع الحقيقية في الدُّنيا، لا فيل يهاجم، ولا حصان، ولا حتى يتحرَّك الوزير من موضعه، فقط الملِك يتحكَّم في كلِّ القِطَع، ويُلقي بها إلى كيس كبير عتيق لا يعيد من يسقط به، حتى إن حاولت أن تفتِّشَ عمَّا سقط بداخله فلن تجدَه.

مرَّت سنوات.

- هل تعرف ابني؟

- حكاية لا بدَّ أن أحكيَها لك.

قاطعتني أمي مفسِّرةً الموقف للحاج: منذ سنوات ذهب معي إيزاك إلى بيتكم.

- كنت صغيرًا يا عمِّي.

ضحك الرجل مبتهجًا:

- بيتك يا إيزاك، بيتك يا بني.

أكمل الحاجُّ حديثه مع أمي عمَّا ترك أبي، كانت الدَّهشةُ قد فارقتها، واستعادت ملكاتها وأفكارها، بل بدأت تفكِّر مع الحاجِّ محمد محمود، مستشيرةً إياه عمَّا يمكن أن تفعلَ بهذا المبلغ؛ لأنها لا تستطيع أن تأخذَه كلَّه إلى البيت، سألها الحاج:

- كيف ستقسمينه يا ست راشيل؟

وضعت أمي يدَها على رأسها، وكأنها تذكَّرت شيئًا خطيرًا هزَّ كلَّ ما فيها.

- صغار يا حاج، الأولاد صغار، لديَّ حلٌّ يا حاج، وأرجو ألا يُضايقَك، أو نثقلَ به عليك.

- تفضَّلي.

- أنت غنيٌّ عن التعريف، ومشهود لك، والهانم ستُّ الستَّات، وأنتم بيت كرم، وما عندكم يزيد لا ينقص، ولم

أتصوَّر أن نرثَ هذا المال، وأن تردَّه لنا بعد سنة كاملة.

- ماذا تقصدين؟

- أقصد أننا سنكون ممنونين لك إذا أدرتَ لنا هذا المبلغَ اليسير بالنسبة لك، الثروة بالنسبة لنا، وأن تقبلَنا من رعاياك.

احمرَّ وجه الحاج، وانحشرت في حلقه الكلمات، وهو يستغفر الله؛ فالنَّاس سواسية أمام الله.

تذكَّرتُ حينها ما كانت تقوله زوجتُه حين رأتني أول مرَّة: «كلنا أولاد تسعة»، لكنَّني لا أُنكر أنني لم أمتعض إلا حين قالت: من رعاياك، فمِن رعايا مَن نحن بالتحديد؟ هل مفروضٌ علينا الوصاية في كلِّ مكان نحُلُّ به؟

الابتسامة أشرقت من جديد في وجه أمي المتورِّد، ونظراتُها صارت حالمة مطمئنَّة، تشرب الزَّنجبيل بثقة، بل يبدو أنها تفكِّرُ في الغد وما بعد الغد أيضًا، إنها تنظر لي والذَّكاء يتفجَّر من عينيها، وكأنها لابن إقطاعيٍّ أو أحد الأثرياء، أمي كسرت الناموس وشربت الزَّنجبيل في دُكَّان مسلم!

قرَّرنا أنا وعماد أن نخرجَ في نزهة إذا وافقت أمي، ووافق أبوه، إنه يقضي بعضَ الوقت معه في الدُّكَّان يساعده، وكانت أمي قد واعدت الحاجَّ أن تزورَه في الدُّكَّان في وقت لاحق؛ لترتِّبَ معه ما يمكن فعله بالمبلغ بعد أن أخذت منه أربعةَ

جنيهات فقط لتسدِّدَ منها بعض الدُّيون، سألتُها إن كانت تريد أن أرافقَها إلى أيِّ مكان بعد أن أوصلَها إلى البيت، فقالت بابتسامة لم أعهدها من قبلُ على وجه أمي الكادحة:

- هل لديك شيء؟

- لا، أبدًا، فقط اتفقتُ مع عماد أن نخرجَ في نزهة.

- لا بأس، اذهب معه.

- أصطحبُكِ أولاً ثم أعود.

بضحكة رائقة جميلة:

- الشَّارع يحفظ وقع أقدامي يا إيزاك، أقضي فيه مثلما أقضي في بيتنا، ومع من فيه أكثر مما معكم، اذهب واستمتع بوقتك، وأنا سأذهب.

كان عماد قد أشار لي أن أستأذنَ والده، سارت الأمور على خير ما يرام.

(٥)

الغورية لم تلفت انتباهي إلا الآن بمبانيها الإسلاميَّة الجميلة، ومشربيَّاتها التي تمكِّن مَن وراءها أن يراكَ دون أن تشعرَ بأحد ينظر منها، بل إنك لا تستطيع أن ترفعَ رأسك لتنظر، فمن العيب أن تنظرَ إلى فوق؛ كي لا تجرحَ حُرمةَ البيوت، إن من ينظر إلى فوق في هذه الشَّوارع يُعاقَب بطرق عدَّة، من أهمِّها نظرة الاستهجان، بل نظرة الاحتقار من كلِّ مَن في الشَّارع.

كلُّ شيء هنا وَفقَ الأصول والأعراف والتقاليد الصَّارمة؛ ترى نساءً في الشارع يسِرنَ معك جنبًا إلى جنب، ويمرُرنَ بك أو تقابلهنَّ آتيات، وربما تمرُّ بك أختُك أو إحدى قريباتك، فتعرفك هي دون أن تعرفَها أنت؛ لارتدائها (البيشة)، و(اليشمك)، و(الملاية اللف) من اللباس. ويمكنك أن تعرفَ فقط من يقولون عنها: «مش محترمة»، أما الباقيات المحترمات فهنَّ كل الكل، ومن تشذُّ عن القاعدة لا تُحسَب فيهن، بل

يحتقرها النساء والرِّجال، هي بضاعةٌ رخيصة، ومنهنَّ من تكون لقمةً سائغة، لقمة تُداس ليلاً بكلِّ شكل، وتُذاب في كلِّ كأس، ومزبلةَ فضلات رجال لديهم أسبابهم التي لا تُقنع العقلاء، ولا حتى غير العقلاء.

سِرنا أنا وعماد دقائقَ لا نتكلَّم، كنت أتأمَّل بعضَ تفاصيل الغورية، حين وجدني مهتمًّا بهذا الأمر أشار عليَّ بأن نتجوَّلَ في بعض شوارعها وأزقَّتها التي تميِّزها طبائع خاصَّة. كأنني غريب عن البلد، دخلنا سوقَ القُماش، أسطورة من الأصناف والألوان والدَّكاكين والأصوات، لفتت انتباهي (ورش) الطَّرابيش، وتوقَّفنا أمام دُكَّان الملكي للطَّربوش الفاخر.. درجات مختلفة من ألوان الطَّرابيش وطُرُزها ومقاساتها، وصاحب الدُّكَّان يعرف عمادًا، وقد تصافحنا، وبقيت أنا غارقًا في تأمُّلاتي، في حين يسأله الرجل - الذي لم أعرف اسمه - عن والده وأحواله، تأمَّلتُ المكبس والمنفاخ والعمَّالَ الذين يصنعون الطَّربوش، وعاملاً في نشوة ينسِّق الخيوط ويحزمها في حُزَم وعُقَد، وكأنه يصوغ مشغولةً من معدن نفيس، أنا متيقِّن أنه لا يرى في الدُّنيا أفضلَ منه؛ لأنه يجيد صنعته.

تركني عماد في تأمُّلاتي دقائق، ثم استأنفنا المسير؛ ليستوقفَنا رجلٌ نحت الزمنُ ملامحه، شاربه كثٌّ، و(قُفطانه) الحريريُّ رُكِّب بإحكام على جسد قاومت بنيته معاركَ الزمن، محتفظًا

بهيبة عالية، أقبلنا عليه جالسًا، انحنى عماد مقبِّلاً يده، العم «عبد الموجود» خيَّاط العباءة الأشهر في مصر كلِّها، يأتيه عِليَةُ القوم ليَخيطَ لهم العباءة، إنه مشغولٌ طَوالَ الوقت، وله في دُكَّانه عمال حرفيُّون يتقنون ما يؤمرون، كنت أرى العباءات، فلا أعرف أن لصناعتها هذه الحرفيَّة، وأن فيها فنونًا.

عرفت أن الخيط الذي تُخاط به العباءة ينسل من نفس القُماش، ولا يدخلها خيط غريب، وأن للقفطان أنواعًا عدَّة، ويُشَكُّ بإبر مختلفة، كلُّ مساحة في العباءة لها طريقتها الخاصَّة في التعامل، إنها عمل فنِّي لا يمكن أن يُنجزَ بريشة واحدة، بل لكلِّ خطٍّ ريشة، ولكلِّ لون تركيب، غرقت في أفكاري..

- أراك تدقِّق في التفاصيل يا إيزاك.

- حتى حين أمشي في الشارع أعُدُّ الأبنية والأبواب والنوافذ، أعُدُّ الخطوات، وأحتفظ في رأسي بكلِّ الدقائق، وحين أكون وحدي أسردُ لنفسي التفصيلات، وأُعيد تركيبَ ملامح الوجوه التي تمرُّ بي، وأعيد تشكيلَ ألوانها وملابسها، فالعالم كلُّه قابل للفكِّ والتركيب.

حين قلت هذه العبارة تخلَّى عماد عن هدوئه، وانطلقت منه ضحكة معبِّرة:

- يبدو أنك مهتمٌّ بالصِّياغة، أو أن ما رأيت يسيطر على تعبيراتك.

وبتقطيع عَروضي نطقها.

- . . . .

- ليست موزونة.

ضحك عمادٌ ضحكةً جعلتني أدرك أن الفكرة التي وراء العبارة راقت له، حتى أنا لم أدرك ما حمله من معانٍ ودلالات إلا حين نطق بها، أحيانًا يكون معك الشيء، ولا يظهر لك قيمته إلا حين ينتقلُ إلى غيرك، فتراه معه أو يردُّه إليك.

- العالم منظومةٌ من الجغرافيا والتاريخ، والفكر يعيد تشكيلَ الجغرافيا فيُعاد تشكيل التاريخ، ويُعاد تشكيل التاريخ فيُعاد تشكيل الحدود والمساحات، ويُعاد تشكيل الحدود والمساحات فيُعاد تشكيل تراكيب السكَّان.

- يبدو أنني أُصادق فيلسوفًا.

- لا تبالغ يا عماد، أين أنا منك؟!

أطربتني كلمة فيلسوف، عماد يسعى إلى مصادقتي وهو ابنُ الأكابر، وأنا. . . لماذا تُلحُّ عليَّ تلك الفكرة؟ إنها الحقيقة.

- تغالط نفسك؟

- ترك لي أبي ثروة.

- تبقى ابن الدلَّالة. . .

- هذا مسجد السلطان الغوري.

انتشلني عماد بعبارته، فرددتُّ عليه:

- كان يحبُّ مصر، وحاول أن يذودَ عنها مع أنه مملوك.

- الملك لله.

- الله جعل الناس خدمًا وسادة.

- بلال كان خادمًا ولا ننطِق اسمه إلا مسبوقًا بـ «سيِّدنا».

- فلم تستعبدونَ الناس؟

نطقتُ بهذا السؤال متوقِّفًا عن المسير مستديرًا، وجهي يقابل وجه عماد، أنا أطولُ منه بقليل، عيناي تحاولان النَّفاذ داخل عقله، إلى أبعد نقطة في تفكيره.. إلى بؤرة تصنيع الرُّدود، هي بُرْهَة كانت زمنًا طويلاً، عيناه تلتهمانني في دهشة، وابتسامته لم تفارق وجهه، وعيناه ذكيَّتان؛ الأغنياء ليسوا أذكى من الفقراء، فهم يستطيعون تحليلَ المعطَيات؛ ليستخلصوا منها نتائجَ ترضيهم ولو إلى حين، يستطيعون تحويلَ الجوع إلى مادَّة مشبعة تملأ بطونهم، والفقراء يفلسفون البردَ ليتوافق مع عُريهم.

- لم نستعبد أحدًا، حتى المماليكُ الذين تسمِّيهم خدمًا حكمونا، أنت تقرُّ أن «قنصوه الغوري» أحبَّ مصر.

- صنعوا منها وطنًا، وكانوا خدمًا في قصورها.

- استعبد بعضهم بعضًا، وتركوا الشَّعبَ يتابع مغامراتهم متفرِّجًا حتى ضاعت ملامحه.

- مليككم الفرعون قتل بني إسرائيل.

- أرسل الله نبيَّه موسى - عليه الصَّلاة والسَّلام - ليخلِّصَهم.

- تقصد لينفِّذَ مشروعَ الهرَب من الدِّيار، كنَّا خدمًا.

- كنتم؟!

- تقصد لم نزل؟

- هل أنت مؤمن؟

هل ألجمَني عماد بهذا السؤال؟ أينصب لي فخًّا؟ كنت أحاصره بالأسئلة؛ لأعرفَ شخصيَّته وتفكيره، لأول مرَّة أجرِّب أن أعيدَ صياغة أفكار إنسان، علَّمنا الكاهن أن نجتهدَ لنغيِّرَ أفكار الناس، وإن لم نستطع نفتح في عقولهم ثُغرات ينفُذون هم من خلالها لتفكيرهم؛ ليُعيدوا البحث في صحَّة معتقداتهم.

- أنبياء بني إسرائيل اجتهدوا طويلاً ليُعيدوا صياغةَ أفكار شعب إسرائيل الذين اعتمدوا على عهود الربِّ الذي واعد موسى، وأعطاه الألواح؛ ليبقَوا شعبه المختار، ومن بعد موسى جاء النبيُّون، وحملتم على الأرض مع «يوشع بن نون» تقاتلون.

- من أين عرفتَ هذا؟ ألستَ مسلمًا؟

- بلى، وهل قلت لك شيئًا غريبًا يناقض إسلامي؟

- أنت تقرأ التَّوراة؟

- والإنجيل.

- لماذا؟

- لأنني مسلم، ولأنني مصري.

- لمن تقرأ من الأدباء؟

كنت أريد صرفه عن الموضوع الذي فتحه، والذي سيجرُّنا إلى نقاش طويل، لم أكن أدرك أنني سأناقش مصريًا في هذه الأمور، هذا كتابنا، وليس كلُّ يهودي يقرأ التَّوراة، الأكثرون منهم يكتفون بما يقول ويشرح الحاخامون والكهَنة والأساتذة.

- ألا ترى أنك تُغفل الكثير؟ أليس «يوسف أصلان قطاوي» عضوًا في الجمعيَّة التشريعية؟ ألم يكن «يعقوب قطاوي» الصرَّافَ العامَّ لمحمد علي باشا؟ يا إيزاك، نحن إخوةٌ وشعب واحد، مصيرُنا واحد يا إيزاك، همُّنا واحد، وقضيَّتنا واحدة تحت هذا الاحتلال البغيض، ألا ترى أن الإنكليز يقهروننا جميعًا، ويغتصبون خيرات هذا الوطن الذي جمعنا دون تفريق؟ عند أبي في دُكَّانه اثنان من اليهود، لا أذكر مرَّة واحدة أن أبي فرَّق في المعاملة بينهم وبين غيرهم من المسلمين، بل ومن المسيحيين من يتعاملون معه أيضًا، أتعلم؟ في رمضان لا بدَّ أن يُفطروا جميعًا في بيتنا، يلتفُّون حول أبي وأنا بينهم.

- واليهوديان؟

بُهت عماد حين وجَّهت له السؤال، ووضع يده في جيب معطفه، وخلَّل شعره بأصابع يده الأخرى.

- أنت طيِّب يا إيزاك، ملامحُك مصرية، أنت خفيف الظلِّ يا صاحبي، مع أنك يوم أتيتَ إلى بيتنا دسَستَ الحلوى في جيبك ولم تأكل منها.

- أتذكر؟

اكتشفت أنه سريعُ البديهة يفطَنُ إلى الأمور، كنَّا صغارًا، وأنا أنفِّذ تعليمات أبي، وما يُملى عليَّ في المعبد.

- بأيِّ لغة تفكر يا إيزاك؟

باغتني سؤاله، أعدتُّ السؤالَ على نفسي: بأيِّ لغة أفكِّر؟ تنبَّهت إلى أنه ينتظر أن أجيبَه بأنني أفكِّر بالعربية.

- بالعبرية.

- فلتعلِّمني العبرية.

صادني عماد من حيثُ لا أدري...

- هل سنقضي وقتنا أمام مسجد السُّلطان؟

- كما تحب، هل نستأنف المسير؟

- لنرجع.

- لا بأس، كما تحب.

(٦)

كانت أمي لم تزل غارقةً في نشوتها بما آلَ إلينا مما ترك أبي، استقبلتني متهلِّلة أنيقة، يكاد نور وجهها يملأ الحارة، أو يمتدُّ إلى كلِّ الأحياء حولنا.

- استمتعتَ بالخروج مع عماد؟

ابتسمت لها، أو ابتسمت من الزَّمن الذي يبدِّل أحوال الناس، أو يتبدَّل بهم! فأمي الآن في زمن جديد، هل الفكر هو ما يغيِّر العالم أم الجنيهات؟

يبدو أن الجنيهات غيَّرت أكثر من عالم في بيتنا، فسارة تخرج من غرفتها مبتسمة، واحتضنتني بشدَّة، أمي قالت: «ادخل كُل»، ابتسمتُ في نفسي، أمي تتكلَّم بلهجة جديدة لم أعتدها، ربما هذا تصوُّرها عن حياة (الذوات)، هُرعت سارة إلى المطبخ، وأحضرت لي قطعًا من اللحم، والأرزِّ المسلوق، وخَضْراوات مطبوخة، وضعت لي صينيَّة الطعام على الأرض،

على الخِرقة التي أكل منها الزمنُ بعد أن لم يبقَ له ما يأكله أو يشربه... جلست لآكل.

حين دخلت أولُ لقمة إلى جوفي شعرت أنني كنت جائعًا منذ زمن طويل، يبدو أن الحديث مع أُناسٍ بعينهم يُنسيك الجوع، أهو الحديث أم التفكير؟!

آكل وأنا أفكِّر في مصير أبي الذي ترك لنا ما حرَمَنا منه، تُرى لماذا حرمنا؟ بالتأكيد حرمنا؛ لأنه يحبُّنا، هذه طريقة الآباء.

«لن نبقى هكذا».

هذه آخر عبارة نطق بها أبي لي، تركت الملعقة، ووضعت خدِّي الأيسر في راحة يدي، نعم وضعت الخدَّ في الراحة، ولم أضعها عليه، أريد أن يبوحَ لي بما قالته له يدُ أبي حين هوَت عليه ناطقًا بتلك العبارة، هل كان يقصد أن يسترجعَ المال؛ كي لا نبقى في فقرنا، وأن نتخلَّصَ من عالم الفقر والعَوَز والذُّل؟

يقولون: إنني ذكيٌّ نابه، فكيف لم أفهم؟ ولماذا لم أفكِّر طيلة عام؟ التعليم؟ التعليم يفتح المدارك؟ التعليم منه حشوٌ ولغَط، ومنه أبواب ونوافذ وطرق إلى مجهولات، لا تُدرَك إلا به.

انتبهت سارة إلى شرودي، فسألتني:

- ألم يُعجبك الطعام؟

- وهل لي رأيٌ فيما تطبخين؟

أحبُّ كلَّ شيء من سارة، ولا أنكر أنَّ ما تطهوه شهيٌّ حتى لو كان بماء البحر.

- فلماذا لا تأكل؟

- أبي.

ارتسمت علامةُ الدَّهشة على الوجوه، أنا أيضًا دَهِش لما قلت، اضطجعت أمي على الأريكة: أكمل طعامك؛ لنتكلَّم.

- في التَّرِكَة؟

- في السَّتر يا بني، السَّتر.

أنهيت طعامي مسرعًا لأعرف، وعماد لم يفارقني، ما زال معي، وقفتُ عند باب الحمَّام، كيف يفكِّر عماد؟ كيف كان يفكِّر أبي؟ هل يختلف الحاجُّ محمد محمود عن أبي؟ لا أريد أن يدخلَ عماد معي إلى الحمَّام.

دلفت إلى الحمَّام الضيِّق تاركًا أبي وعمادًا عند الباب، الماء بارد، في تلك الليلة أيضًا كان الماء باردًا، هل هو بارد أم أن دفئًا يسري في أوصالي؟

- دفء سببه كلامك مع عماد؟

- عماد استطاع أن يصيدَ أفكاري.

- هل لمخلوق أن يصيدَ يهوديًّا؟

- لماذا تُلحُّ عليَّ أفكار عُدوانية؟

- البحث عن الحقِّ ليس عُدوانًا.

- الربَّانيُّون يملكون العالم.

- القراؤون أشدُّ صلةً بالربِّ.

- الماء ساخن!

- ليس الماء.

- هل اقترب الطُّوفان؟

- ألم تفنِّد هذه الفكرة من قبل؟

- إيزاك.

إنه صوت أمي يستحثُّني.

- ترى ماذا لديكم الليلة؟ أين عزرا؟

- نام.

الصَّوتان في عبارة واحدة، تفحَّصتني أمي، نظراتها جديدة، وسارة عليها أماراتُ السَّعادة.

- خاطب؟

- إيزاك، حبيبي، كان أبوك يحبُّنا، وادَّخر لنا مالاً.

- مئة وسبعة وتسعون جنيهًا يا أمي!

- لمثلنا بذرة ثروة.

سارة تهزُّ رأسها بإيجاب بشفتين منفرجتين.

- وما الموضوع؟

- سارة.

نظرت في عينيَّ مبتسمة، ربما لتُبعدَ عنِّي أيَّ خوف عليها؛ فهي تعرف أني دائمًا قلقٌ بشأنها.

- هيَّا أمي قولي، دعكِ من الألغاز؟

- الآن صارت ألغازي لا تسلِّيك يا (وسخ).

ضحكنا جميعًا واقتربتُ منها واضعًا يدي على ظهرها مربِّتًا.

- اشتقت لألغازك، وكلامك الجميل، ونوادرك وحكاياتك، ما رأيك أن تحكي لنا (حدوتة)؟

وافقتني سارة في الرأي، وتهلَّلت أمي، ومازحةً قالت: احترم طولك.

أمي قديرةٌ في نسج (الحواديت)، وبارعةٌ في صياغة آيات التَّوراة وقصصه.

- نعود للمهمِّ، اسمعاني.

انتبهنا لها، وقد اعتدلت في جلستها.

- وضَّح لي الحاجُّ محمد محمود سبب ادِّخار أبيكما للمال

معه، ومعه حقٌّ في كلِّ ما قال، فسارة لا بدَّ أن تتزوَّج.

- هل جاء خاطب؟

مبتسمًا كنت أتكلَّم.

- طلبتها (مدام) ماكلين أكثر من مرَّة، وكنت أسوِّف؛ لما تعرفُ من الفقر وما نحن فيه.

بمجرَّد أن سمعتُ ما قالت قفزت محتضنًا سارة، وبالفرنسية قلت لها:

- لم أكن غبيًّا، كنت ألحظ كلَّ شيء، وكنت أدعو لكِ، وفي نفس الوقت كنت أريد أن (أقطم) رقبتك.

اجتمعت كلُّ دماء «سارة» عاقدةً حفلاً صاخبًا في وجهها، وتلعثمت بالكلمات لكنَّها بدت سعيدةً جدًّا.

- والآن ستوافقين؟

- اسمع، أنت تعرف أن ما يترك الأبُ يكون لابنه الأكبر ضعفُ ما للأصغر؛ بشرط أن ينفقَ على البنات حتى الزَّواج، فلا ميراثَ لهنَّ.

- كلُّ هذا لا يعنيني، ما يعنيني سعادتك وسعادة سارة وعزرا.

- دعنا في أمر سارة؛ فعزرا لم يزل صغيرًا، ولا بدَّ أن يتمَّ تعليمَه.

- أنا موافق على كلٍّ ما ترَين.

كنت فرحًا بأن خاطبًا طلب سارة، خصوصًا أن الخاطب هو ديفيد ابن الأستاذة ماكلين، لكن تبادر إلى ذهني سؤال:

- أمي، ألم ترفُضي من قبل تزويجَ سارة؛ لأن أبي لم يكن يريد لها أن تعيشَ في الحارة؟

كان سؤالي لأمي كأنه حرَّك فيها ما ردمت عليه، فاستغرقت لبُرهَة في التفكير والدَّهشة.

باغتُّها:

- فيمَ الشُّرود؟ في أمر سارة، أم ماذا؟

تذكَّرت الآن قولَ المرأة التي قابلتنا، لكنَّني قلت لنفسي: ربما قصدَت الاختيار بين خاطبين.

- (مدام) ماكلين محترمة وتحبُّنا، وتعطف عليكم.

- مع ما نحن فيه من أحلام، تتكلَّمين عن عطف الآخرين علينا يا أمي؟

هل هناك مسوِّغ لثورتي هذه؟ لماذا أنا ثائرٌ هذه الثورة؟!

الصُّحف تتحدَّث عن الوطن أرض الميعاد، كلُّنا يهود في أرض اليهود، لن يكونَ هناك أيُّ عطف، هل أثَّر فيك لقاؤك بعماد؟! بل أثَّر فيَّ ما سمعت عن «ليون كاسترو» الآتي يحمل الأحلام.

- هل تعتقد أنه يحملها لكلِّ اليهود؟ أم للربَّانيِّين فقط؟

- لكلِّ اليهود.

- الأشكيناز والسفارد؟

...

- يا بنيَّ ابقَ معنا، ولا تغب في أفكارك.

- ربما يحبُّ يا أمي.

- يحب؟

مستنكرةً أمي طرحت السؤال، ومحملقةً في وجهي.

- وهل هذا وقت حب؟ أمامه وقتٌ طويل بعد، المهمُّ الآن ماذا أقول لمدام ماكلين؟

- أنتِ أعلم بالصالح.

قلت العبارة بطريقة المصريين؟ أم أنني أردتُّ أن أخرجَ من موقف لا يحتاج إلى رأيي؟ رأيي كان مرتبطًا بالفُلوس وليس بالزَّواج نفسه، فسارةُ تريد ديفيد، وأمي تريد أن تركبَ سارة آخر عربات القطار؛ كي لا تلبَسَ ثوب العانس بين قريناتها، واختيار ديفيد يقضي على كلِّ تساؤلات تأخُّر زواجها.

ديفيد شابٌّ أنيق ووسيم، لكنَّني لم أكن أجلس معه طويلاً، لم أكن أشعر بالحميميَّة نحوه، ربما لأنه لم يكن يوليني نفسَ

الاهتمام الذي يوليه لسارة؛ فسارة كانت تناقشه في أمور كثيرة، يطول فيها الحديث برغم الوقت القصير الذي كنَّا نراه فيه، فهو دائمًا مشغول، لكنَّني أعتقد أن أكثر شيء مشترك بينهما هو طولُ فترات الصَّمت والتفكير.

هو أول من كلَّمني على الوطن الحلم في فلسطين، صوَّرها لي على أنها الجنَّة التي تنتظرنا، ربما كان يراني صغيرًا في بادئ الأمر، لكنَّه أبدى سعادةً حين لاحظ أنني سريعُ البديهة، لا أقف عند العلل القريبة، وأذكر أنه قال لسارة: عقله يسبق سنَّه.

كان كلَّما رآني ينصحني أن أداومَ على الذَّهاب إلى (الكنيس)، وفي وقت من أوقات انشغال سارة مع (مدام) ماكلين قال لي: «السيناجوج» ليس للعبادة فقط، وليس لتلاوة التَّوراة فقط، فالإنسان ليس بمبادئ دينه، إنما الإنسان بما يوظِّف دينه ليحقِّقَ سعادته، ربما حين يخطُب سارة أقترب منه أكثر، بل هذا ما يجب ما دام يرى أن الدِّين يُستغلُّ للسعادة، فلا بدَّ أيضًا للعلاقات أن تُستغلَّ في تحقيق السعادة، والحبُّ أصل السعادة وهو الرِّباط الذي ربط بين سارة وديفيد زمنًا طويلاً.

ما زلت أصرُّ أن السعادة درجات، فأنا أسعد جدًّا كلما رأيت «رحيل»، أترقَّب الوقت لتُطلَّ من النافذة، ترسل عينيها في طول شارعنا الذي لا يكاد يكون له عرض ولا استقامة، فترفع عينيها

للسَّماء.

«رحيل» منذ مدَّة صارت تحتلُّ أحلامي وتفكيري؛ بقَدِّها الممشوق المرسوم كأدقِّ ما يكون تفصيل المفاتن التي ترسل الدِّفء من بعيد ليحتويَك، يناديك بكلِّ جوع. تأتيني في أحلامي عابرةً نافذة شقَّتهم بجناحين من أوراق الشجَر والأزهار؛ لتحطَّ في فراشي الضيِّق البالي، فيتبدَّل سريرًا من ذهب وفضَّة، في الأحلام معها عرفتُ ما يُقال عن ريش النَّعام الذي لم أرَه، فقط سمعت عنه في (حواديت) أمي، وأحلام سارة التي ترويها لي، تُرى هل تذهب سارة إلى ديفيد في الأحلام؛ لذلك عرفت ريشَ النَّعام؟!

بعد موت أبي أكثرت من التردُّد على بيتنا؛ مواسيةً سارة، صرت أنتظر هذه الأوقات التي تمتزج مع الأحلام ومراقبتي للشُّرفة، وصارت تبادلني الكلام، وتسأل عن أحوالي ودراستي، أطيل الحديثَ بيننا، فأسألها أنا أيضًا عن دراستها، وكثيرًا ما أشعر بالفرق بيننا؛ فهي في (الفيرير) وأنا في مدارس المصريين.

وذات لقاء استجمعتُ قوَّتي، وسألتها عن سبب تسميتها بـ«رحيل»، لم تتردَّد في الإجابة قائلةً: سألت أمي ذات مرَّة نفس السؤال، فأجابتني بأن أبي مؤمنٌ بأن موعد الرحيل اقترب، تُرى هل يقصد أبوها الرحيلَ إلى أرض الميعاد؟ فلماذا لم يذهب إلى هناك، والطريق مفتوحة، وفي فلسطين أعدادٌ كبيرة من اليهود؟

كلَّما تذكَّرت إجابتها يخفقُ قلبي بالخوف، ثم لماذا ترتفع النداءات بالوطن، والوطن مفتوح؟

السُّلطة؟ الحكم؟ الملك؟

- منذ متى واليهود يحبُّون أن يحكمَهم الملوك؟!

- ألم أقل: إن السعادة صنوفٌ ودرجات؟

كنت سعيدًا حين تذكَّرت «رحيل»، ولست سعيدًا الآن؛ لأنني لم أُحط فهمًا بفكرة الوطن، والملك الحاكم، وأرض الميعاد، بل حزينٌ لأنني عاملت عمادًا بقسوة وهو يعرض عليَّ صداقته، وعاملني بلطف، اكتفى بأن يردَّ عليَّ من نفس كلامي، ولم يُقحمني فيما يُقحمني فيه بعض المدَّعين في المدرسة.

قرَّرت أن أخرجَ من أفكاري، وأن أُسرجَ المصباح وأتلو، في التَّوراة مفاتيح كثيرة، لا بدَّ أن أجدَها.

(٧)

ديفيد تزوَّج سارة، وانتقلا إلى شقَّة في «العبَّاسية»؛ ليعيشا هناك حسب الاتفاق الذي تمَّ بين أمي و(مدام) ماكلين، فضلاً عن أن ديفيد حصل على وظيفة في مكتب «إبراهام طنطاوي» المحامي، وهو واحدٌ من أكبر مكاتب المحامين في القاهرة، وكان لا بدَّ من مكان يليق به، فتحقَّقَت رغبة أبي في ألا تعيشَ سارة في الحارة، وأن تتزوَّجَ شابًّا طموحًا.

منذ خروج سارة من البيت بدأت حياتي تتبدَّل؛ فأمي قد اتفقت بالفعل مع الحاجِّ محمد محمود أن يديرَ لنا المال الذي تركته عنده، على أن يُعطيَنا راتبًا شهريًّا قدره ثلاثة جنيهات؛ أي: إننا سنبقى في عيشة لا تتجاوز الفقر، فأمي كانت تريد أن توفِّرَ لنا جميعًا ما يصلح في المستقبل.

قرَّرتُ أن ألتقيَ بعماد، وكنت أريد أن أفرغَ رأسي من الأفكار التي بدأت تلتهمُني، خصوصًا أن الكتب التي تركها لي

ديفيد قد فعلت في محيطات فكري أفعالاً لم أكن أتوقَّع أن تحدُث، وتلك الأعداد من الصُّحف القديمة:

«التهذيب» تصدرُ مخاطبةً اليهود، مهتمَّةً بمشاكلهم في العالم كلِّه، وفي مصرَ خصوصًا، وما لفت انتباهي أن الذي يُصدرها قرائي هو «مراد فرج ليشع».

أما الأعداد من «جريدة مصر» فقرأتُ فيها مقالات تردُّ على الأعداء الذين لا يفهمون الهدف الصِّهْيَوني على حق، «إسحاق كارمونا» رئيس تحريرها يدعو إلى الالتفاف حول أهداف الجمعيَّة الصِّهيَونية.

مقالات أخرى تدعو إلى تعريف المصريين بالأهداف الصِّهيَونية، الصِّحافة في مصر كلُّها تتعامل مع القرَّاء على أنهم نسيجٌ واحد في مجتمع واحد، والعديد من الصُّحف تدعو إلى التعلُّم من تجارِب الغرب؛ الدِّين والدَّولة، والدَّولة والدِّين، وكلُّنا لمصر، ومصرُ لنا جميعًا...

أفكار «سعد زغلول»، «الأمَّة»، «الخلافة العثمانية» والدول العربية، الاحتلال الإنكليزي ومصر، «الوطن القومي في فلسطين ويهود العالم».

لماذا فعل ديفيد بي هذا؟ كنت مكتفيًا بأن أفكِّرَ في كلِّ ما يُقال عن بني إسرائيل، وأحاول أن أفهمَ التاريخ، بأيِّ عين كنت أريد؟ بعين المصريِّ أم بعين اليهودي؟

في نقاشي مع عماد اتهمتُه بأنهم يستعبدون الناس؛ أمي جاريةٌ في بيوتهم؛ لأجل لقمة العيش، وأبي عاش يتسوَّل أبوابهم بالأقمشة.

- هي التي وفَّرَ لكم منها ما تزوَّجت به أختك.

- لكنَّها لم تزل عند مسلم.

- وربما كانت ستكون عند نصراني، لا فرق.

قرَّرت أن أذهبَ في الغد إلى بيت سارة؛ فقد اشتقتُ إليها، ولا بدَّ أن أتكلَّمَ كثيرًا مع ديفيد الذي قلب كلَّ موازيني، لكنَّه لن يرجعَ إلا مساءً، سألتقي بعماد، أذهب إلى دُكَّان أبيه؛ ربما أجده هناك.

أيقظتني أمي صباحًا، مزيحةً عنِّي كمًّا من الأوراق التي قضيتُ معها الليل.

- أين التَّوراة يا إيزاك؟

- هناك.

- كنت معتادةً أن أجدَها إلى جوارك كلَّ صباح.

- لا بأس، هناك ما أقرأ فيه هذه الأيام.

- سأخرج لعملي.

- ألا تكفِّين عن هذا العمل؟

- فيه الكثير من الفوائد؛ ألتقي بالنَّاس، وأعرف ما في البيوت، وأقابل من لا يدخُلنَ بيتنا من نساء اليهود.

- كما تريدين، لكن لا بدَّ للحال أن تتغيَّر؛ فابنتكِ زوجةٌ لرجل في منصب مرموق الآن.

- تتنكَّرون لي؟!

كلُّ علامات البؤس والغيظ ارتسمت على وجهها، وغصَّت بالكلمات: أنت جاحد.

قمت من فراشي أحتضنُها لعلَّها تهدأ، لكنَّها دفعتني عنها بكلِّ قوة.

- أنت لا تعرف شيئًا؛ لأنك في عالم غير العالم، كسول، تنام وتستيقظ بلا فائدة، الذين في سنِّك يفتحون بيوتًا.

بضحكة عالية عدتُ لأضمَّها:

- الآن تعترفين أن أمثالي يفتحون بيوتًا؟ ها زوِّجيني إذن.

التفتت عنِّي.

- أزوِّجك وأنفق عليك؟ انظُر لزوج أختك، بقي صامتًا دهرًا حتى استعدَّ لأن يكونَ جديرًا بأجمل جميلات الحارة، بل أجمل جميلات اليهود في بَرِّ مصر.

- سأذهب لزيارتها اليوم في المساء.

- افعل ما تريد، لا فائدةَ منك بعد أن تركت التَّوراة ورحتَ لهذه الأوراق.

- أعطانيها زوج ابنتك الذي تفخرين به.

- لأنها لا مكان لها في بيتهم الجديد، أعطاك قُمامةً لا فائدة منها.

دهشتُ لما تقول؛ ما هذا التناقض في تفكير أمي؟ ويحي! إنها تتكلَّم كما يتكلَّم الأساتذة في المعبد، لديهم دائمًا مقدِّمات يصلون بها للنتائج التي يريدون، ويقلبون الطاولةَ عليك متى يريدون! هل هذا ما تعلَّموه من الفلسفة، بل ما تعلَّموه من التَّوراة؟

قمت أكتب في دفتري الخاصّ قبل أن يحينَ موعد المدرسة: إننا نعيش زمنَ المتناقضات، وعدم اتحاد الرُّؤية في بلد لا يعرف أيَّ مركب يستقلُّ ليرسوَ به على شاطئ الأمان؛ فكلُّ شيء في تناقض لا يكاد يذهب بك في طريق تقتنع أنه طريقُ الخلاص حتى يُقنعَك أنك لم تسلك الصِّراطَ المستقيم، فاليوم مختلفٌ تمامًا عن الأمس، وسيختلف عنهما الغد، فبمجرَّد أن تنويَ النوم تجد العالم قد تغيَّر حين تستيقظ.

دخلت عليَّ أمي قبل أن تخرجَ مبتسمةً، ويحها كانت ستبكي قبل قليل:

- قم لتتمشَّى معي في الشارع قبل أن تذهبَ إلى مدرستك، أنا ذاهبةٌ لبيت الحاجِّ محمد محمود.

واتتني الفرصة، لن أجهدَ نفسي، سأتمشَّى معها وربما أجد عمادًا، سِرنا مخترقَين الأزقَّة؛ لندخلَ بيت القاضي، وفي شوارعه الجميلة، وصوت العصافير يشرحُ النفس، وصلنا إلى الميدان، وهناك توقَّفنا لتدخلَ أمي البيت رقم (١٠)، لم آتِ إلى هنا منذ كنت في التاسعة من عمري، بدأ الزِّحام يظهر في الشارع والميدان عن ذي قبل.

- أمي، هل أطلب منك طلبًا؟

- ماذا تريد؟ لا تقل: أريد فلوسًا.

- لا، لست في حاجة إليها، فقط أوصيكِ أن تطلبي من أم عماد أن تخبرَه أنني سأذهب لدُكَّان والده الساعة الثانية، فليته يكون هناك؛ لأنني أريده.

- أحسنت يا إيزاك، تقرَّب إليهم؛ إنهم أناسٌ طيِّبون، والاستفادة منهم أكثرُ من الاستفادة من اليهود.

طرأت في رأسي فكرةٌ مجنونة:

- أمي، ما العلاقةُ التي كانت تربط أبي بموسى صاحب الخمَّارة؟

تلعثمت أمي:

- هل هذا وقته؟ حين نكون في البيت أخبرك؛ فالموضوع شرحُه يطول.

الساعة الثانية كنت أمام دُكَّان الحاجِّ محمد محمود، ناداني الحاجُّ مرحِّبًا بي، وبمزاح لطيف منه:

- أهلاً بشريكي العزيز، لماذا لا نراك لتعرفَ كيف تسير تجارتك؟

- يا عمِّي، هذه أمورٌ لا أتقنها، والدَّار أمان، وما عندك يزيد.

ضحك ضحكةً رائقة:

- يهودي لا يعرف في التِّجارة؟

أخذتني العبارة إلى تساؤلات لا أعتقد أن المقام صالحٌ لعرضها، لكنَّني بسرعة تجوَّلت في الحارة، فلم أجد فيها إلا القلَّة الذين لا يتاجرون، حقًّا إنهم يتاجرون في أيِّ شيء وفي كلِّ شيء، كأنهم خُلقوا ليعملوا في التِّجارة، فأين ما تقوله التَّوراة من أنهم قوم زراعة ورعي؟

دخل عماد؛ لينتشلَني كعادته من أفكاري، وليُسقطَني في أفكار أخرى، بمجرَّد أن دخل قمت عن مكاني مستقبلاً إياه ومحتضنًا، وكان هو الآخر محتفيًا بي:

- ألا أراك إلا بعد مرور سنة أيها الجاحد؟

- اعذِرني يا عماد؛ فالمدرسة وشؤون البيت وزواج سارة - كما تعلم - استهلك أوقاتنا.

- ما رأيك أن تأتيَ للعمل معنا في الوكالة؟

كنت لم أنتبه أن الدُّكَّان اتسعت مساحته؛ فقد توسَّع في الدُّكَّان الذي عن يمينه، والدُّكَّان الذي عن شماله، كما لم أنتبه للافتة الكبيرة المكتوب عليها: وكالة الحاجِّ محمد محمود وشركاه للأقمشة (جملة وقطاعي)، لكنَّني لم أدقِّق في هذه الفكرة، وإنما فكرة أخرى طرأت في رأسي، لماذا لا أعمل معهم متنازلاً عن تلك الفكرة التي كانت مثارَ جدال بيني وبين عماد من أنهم يستعبدوننا؟ لكن، لا، لن أعملَ قمَّاشًا أبدًا، لا بدَّ أن أكونَ في مكان ومكانة أرفع من هذا.

- لا أعتقد أنني أصلح يا عماد، للتوِّ كان الحاجُّ يكلِّمُني عن التجارة.

نادانا الحاجُّ إليه وطلب من عماد أن يُحضرَ دفتر ورثة المرحوم «يعقوب القمَّاش».

دفتر ورثة المرحوم «يعقوب القمَّاش»؟! هل لنا دفتر عنده؟! فأيَّ وطن غير هذا يريدون لنا؟!

أحضر عماد الدفتر، وفتحاه أمامي، لم أفهم شيئًا، لكنَّ الحاجَّ أوضح لي أن حصيلة المبلغ قد زاد زيادةً كبيرة خلال

العام الفائت، فرصيدُنا عنده الآن أربع مئة وتسعون جنيهًا.

لا أنكر أنني دهشت أننا نملك هذا المبلغ، وأمي تعمل في الدِّلالة، فلماذا لا تريد أن تتركَ هذا العمل؟ لا بدَّ أن أثنيَها عنه، وأن نعيشَ عيشةً كريمة.

شكرت الحاجَّ؛ لحرصه علينا، واستأذنتُه أن يسمحَ لعماد بالخروج معي في نـزهة قصيرة، وافق الحاجُّ دون تردُّد، ونادى عمادًا، ودسَّ في يده شيئًا أيقنت أنه يعطيه مصروفًا، ابتسم له عماد ومال مقبِّلاً يده، ثم لحق بي، وخرجنا.

- هل تريد التنزُّه في الأزهر؟

- لا، دعنا نخرج إلى النيل.

- كما تحب.

انتحينا ناحيةً على النيل عند (كوبري) قصر النيل، المشهد هناك يوحي لك أن مصر كلَّها أتت إلى هذا المكان؛ فمن كلِّ الفئات ترى أناسًا، وسلكنا (الكورنيش) حيثُ الأشجار والأزهار والنهر المتدفِّق، هنا كان تاريخُ أسلافي من بني إسرائيل، هذا النهر يحمل قصَّة يوسف في مصر مع الفِرعَون وأعوام الرَّخاء، ويحمل قصَّة موسى وخروج بني إسرائيل من مصرَ إلى الصَّحراء، تذكَّرت وأنا أنظر في النهر ما يقوله قرآنُ المسلمين عن التابوت الذي كان فيه موسى وأختُه التي كانت

ترقبه حتى وصل للفرعون، وتذكَّرت ما حدث في صحراء سيناء، واعتراضَ اليهود الذين اتهموا موسى أنه أخرجَهُم من العزِّ إلى الشَّظَف والفقر في الصَّحراء.

عماد أيضًا ينظر في النهر، فيمَ يفكِّر يا تُرى؟ لا بدَّ أن النهر يعني له الكثيرَ هو الآخر:

- أتعلم يا إيزاك؟ مصرُ بلد استطاع عبر العصور أن يستوعبَ كلَّ شيء، لكنَّه في النهاية يبقى على حاله، مجتمع شمولي، به كلُّ الأديان، وكلُّ الفلسفات، وكلُّ الطبقات، ولا يجب أن ننكرَ أنها تعاني، ولا أتوقَّع أن تزولَ عنها المعاناة برغم كلِّ المحاولات التي تُبذَل، فالمصالح تدخَّلت في كلِّ شيء، فمرَّة نجد الإسلاميين وثورةً إسلاميَّة يعتنق الناس مبادئها، وينادون السُّلطانَ العثمانيَّ بأمير المؤمنين، ونجد قومًا آخرين يدعون لرابطة تجمع دولَ البحر المتوسِّط، والعرب يثورون؛ فأين دورُهم في الحضارة حين فقط يُنادون بإسلاميَّة الأمَّة، أنا أكبرُ منك في السنِّ، صحيح؟

أعتقد أن تجرِبَتي أكبر من تجربتك.

- أنا عشتُ حياةً صعبة، ولم أكن أريد أن أخوضَ في أيِّ شيء؛ مكتفيًا بأنني كائنٌ حي.

- كائنٌ حي؟ وَسْطَ هذه الاضطرابات التي تمرُّ بها البلاد؟

- كنت من بعيد أرقب، حتى إنني ليلةَ مات أبي تعجَّبت لما يحدُث في الحارة من دخول غرباء إليها ليلاً، يجتمعون فيها، من حينئذٍ أردتُ أن أعرف، وبدأت أهتم، حتى إنني إلى الآن أريدُ أن أعرفَ مغزى تلك العبارة التي قالها أبي قبل أن يموت.

- ماذا قال؟

تردَّدتُّ في إخباره، لكنَّني قلت: لا مانعَ من أن أقول:

- قال: يجب ألا نبقى هكذا.

دقَّق عماد في عينيَّ بُرهَة، كنت فيها قد عُدتُّ إلى الوراء في تلك الليلة بكلِّ تفاصيلها، وفي نفس الوقت أسأل نفسي: فيمَ يفكِّر عماد؟

- قالها أبوك منذ عامين، تُرى يا إيزاك ماذا كان يقصد بها؟ هل كان يقصد حالَ أسرتكم؟

- هذا ما يحيِّرني، أيُّ شيء كان يعنيه بالضَّبط؟ وما علاقة كوننا أسرةً بما حدث منِّي، وما أعدتُّه عليه من أنني انتبهتُ للغرباء في الحارة، واجتماعهم في المقهى ليلاً؟

صمت عماد كأنه يسلك دروبًا بعيدة، حينها شعرت أنني تلميذٌ صغير أمام أستاذ نابِهٍ، لكنَّه لا يعرف أبي ولا يعرف الحارة؛ ليُدركَ مرادَه:

- لعلَّه كان يعني ما يُشاع عن وضع اليهود، وعن الوطن

القوميِّ والشَّتات.

لم أكن أتوقَّع أن يخرجَ الكلام من عماد بهذا اليُسر، إنه يعرف ما يدورُ حوله وما يدور في البلد.

- وكيف عرفتَ بهذا؟

- في جلستنا المسائيَّة نتحاور أنا وأبي فيما يجري حين نلعب الشِّطرَنج، وكثيرًا ما تكلَّمنا على شَتات اليهود، وسعيهم عبر التاريخ، وما آل إليه أمرُهم، أتريد أن نتكلَّمَ بصراحة؟

- نعم، ما المانع؟ نحن أصدقاء.

لم يكن ما قلتُه هو الحقيقةَ الكاملة، لكنَّني أردتُ أن أعرفَ ما سيقول عنَّا.

- اليهود عبر التاريخ لم يُريحوا أنفسهم، ولم يُريحوا العالم؛ فمنذ السَّبْي - بل من قبله - وهم لا يضعون لهم أهدافًا ثابتة، ولا يتخذون أرضًا يعيشون فيها، بل هم دائمًا على خلاف مع البشَر، وما فعله «نبوخذ نصر» بهم لم يكن إلا لأنهم يُثيرون البلابلَ والفتن، فسباهم في «بابل»، لقد كوَّنوا عالمهم هناك، وكتبوا التَّوراة أول مرَّة في السَّبي.

لم أتحمَّل ما يقوله عماد، كأنه يتهم كتابنا المقدَّس، وربما لمحَ امتقاعَ وجهي، لكنَّه لم يقطع حديثه، واستمرَّ يكمل:

وحين أعادهم الملك «كوش» إلى أرض فلسطينَ لم يكفُّوا

عن النِّزاع فيما بينهم، وبدأت تتفرَّق كلمتهم، وجعلوا من فلسطينَ محورًا للنِّزاعات، وتشبَّثوا بموضوع الهيكل؛ لتكونَ الأرض لهم، ناسين أنهم لم ينشؤوا فيها وَفقَ ما يُثبته التاريخ، وإنما وَفقَ ما تذكرُه التَّوراة.

- هل أنت مقتنعٌ أن التَّوراة كلَّها من عند الله يا إيزاك؟

باغتَني بالسُّؤال، لم أعرف ماذا أقول، أنا بيني وبين نفسي أجد التَّوراةَ روايةً محكمة البناء، فيها الأساطير، وفيها الحكايات، وفيها تاريخٌ مرسوم، لكن في نفس الوقت فيها آياتُ الرب، كيف أُجيب؟

- لن أتطرَّقَ معك إلى «التلمود».

- لا، لا شأن لي به، أنا قرائي، هذا التلمود لا صلةَ له بالتَّوراة، ما هو إلا ما نُسب إلى النبيِّ موسى، وأن الربَّ أعطاه كتابين أحدُهما «المقرا»، والآخر «المشنا».

- نعم، أعلم، وإن كان اطِّلاعي ليس واسعًا، لكنَّني سأتوسَّع في القراءة، ليس فقط لأنني أقرأ في الدِّين، وإنما لأنني أريد أن أعرفَ كيف ائتلفت الأديان الثلاثة بمصرَ في هذا النسيج الرائع الذي لا يفرِّق بين مسلم وذمِّي.

- دعنا من هذا يا عماد، يكفي أننا مصريان نعيش في وطننا، ويجب أن نهتمَّ بما يعاني، أنا بدأت أفهم أن مصرَ للمصريين،

وهذا يعني أنها لكلٍّ من يعيشون فيها دون تفريق.

- نعم، هذه دعوةٌ اجتمع عليها الكثيرون، لكن أتعتقد أنها ستُفلح؟

- ولِمَ لا؟ في ظلِّ هذه الاضطرابات التي عمَّت العالم لا بدَّ أن يفكِّرَ كلُّ واحد في بلده.

- عليك أن تقرأَ أكثر، وتعرفَ أكثر يا إيزاك، وعليك أن تحلِّلَ كلَّ ما تقرأ، وألا تقتنعَ بكلِّ ما تسمع، ولا كلِّ ما تقرأ، دون أن تجدَ له الأسانيد والمسوِّغات.

(٨)

مساءً ذهبت إلى سارة في شقَّتها الجديدة، استقبلتني بشوق عارم كأنها لم ترَني منذ عام كامل، أما شوقي لها فكان كشوق الأرض للماء في سنوات جَدْب، كان ديفيد يقف خلفها حين فتحت ليَ الباب، كان متهلِّلاً، تفوح منهما عطورٌ صاخبة.

- كيف حال (العرسان)؟

رد ديفيد بالفرنسية:

- تمام، ونشتاق إليكم.

دخلنا إلى (الصالون) الواسع الجميل في شقَّتهما، تزيِّن حائطه المقابلَ للباب نجمةُ داود ذهبيةٌ على خلفية سوداء أنيقة، لا أعرف ما الذي ساقني لأجلسَ تحتها، لكنَّني جلست، وتحوَّل الكلام إلى الفرنسية بيننا جميعًا.

في الصباح تكلَّمت مع عماد بالعربية، وكنت معنيًّا في كلامي معه أن تكونَ اللغة عربيةً في مستوًى رفيع، والآن أتكلَّم الفرنسية

التي صرتُ أشعر أنني أتقنها مثل سارة وديفيد.

عامان من الجِدّ والاهتمام غيَّرا حالي بصورة لم أتوقَّعها، قبل عامين كنت إذا جلستُ مع أحد أقلُّ ما يقوله عنِّي: هذا جاهل، والآن أنا ملمٌّ بالكثير الكثير، ومحيطٌ بما لا يحيط به شابٌّ في سنِّي.

دارت بيننا أحاديثُ منوَّعة، وأسئلة عمَّا سأفعل في المستقبل، لكنَّني لم أزل مشوَّشًا، وأشعر أنني أحتاج إلى الكثير، وأن التعليم في المدرسة سيستهلك زمنًا طويلاً، وهذا سيجعلني أقضي عمري تلميذًا في الوقت الذي تقول فيه أمي: إن من هم في عمري يفتحون بيوتًا، لكنَّني حوَّلت مجريات الحديث إلى أحوال ديفيد وعمله في المحاماة، فرأيته يتكلَّم بفخر واعتزاز وأنه أثبت تفوُّقًا في عمله في زمن قصير، وصار صاحبُ المكتب يعتمد عليه في كثير من القضايا التجارية، معلِّقًا: القضايا التجارية هي الأهمُّ في مصر، هي أهمُّ من قضايا القتل والسَّرقة، والمكتب لا يقبل بالقضايا الصغيرة، وصاحب المكتب له علاقاتٌ واسعة ومعارفه من النُّخبة...

كانت سارة تنظر إليه وهو يتكلَّم كأنها تريد أن تلتهمَ كلَّ تفاصيله بعينيها، حالةُ عشق له حتى وهو يحكي عن العمل، ربما هي حالةُ فخر أنها مرتبطةٌ برجل يحقِّق ذاته، ولا يقتنع بالأمور الصغيرة، قامت سارة لتُحضرَ لنا مشروبًا، قاطعةً تدفُّقَ

سيل ديفيد في الحكايات.

- هل قرأتَ ما أعطيتك يا إيزاك؟

- كلّه تقريبًا.

- وماذا فهمت منه؟

- لا شيء... وكلَّ شيء.

بدت علامات الدَّهشة على وجه ديفيد من ردِّي، لكنَّه عقَّب:

- هذا هو إيزاك الذي أتوقَّعه، لا يترك شيئًا دون تفكير وفلسفة.

- ما الذي ينبغي أن يكونَ عليه اليهود في مصر؟

- ينبغي لهم أن يكونوا كلَّ شيء، ليس في مصر، وإنما في العالم كلِّه.

- والوطن القومي، والصِّهْيَونية؟

- جبل صِهْيَون في فلسطينَ ينادي كلَّ اليهود الآن، يا إيزاك.

- كلَّ اليهود؟

- كلَّ اليهود.

- والمِلَل؟

- هذه مسألة يجب أن ننساها ونبتعدَ عن نقاشها في المراحل القادمة.

- مراحل؟

- نعم مراحل، نحن نُدرك أننا سنمرُّ بمراحل ازدهار، ومراحل اختلاف في الرأي، فليس من السَّهل أن تغيِّرَ فكر أمَّة استقرَّت على وضع بعينه، والجهل سيُعيق توجُّهات المستنيرين.

- نعم، الجهل غولٌ يأكل بلا رحمة، ويتجشَّأ في وجوه العلماء فيفرِّقهم.

- أحسنت يا إيزاك، فرنسيَّتك تطوَّرت، وصرتَ تستخدم خيالها.

- والعربية أيضًا.

- العربية؟ أحسنت، أعتقد أنك ستكون من المقدَّمين.

دخلت علينا سارة متحدِّثةً بالعبرية، فضحكنا جميعًا ضحكةً أعتقد أن خلفيَّتها كانت واحدة، غرقت لبُرْهَة في بؤرة تفكيري: ماذا يحدث لنا؟ وعمَّ نبحث بما نفعل عربية وفرنسية وعبرية، وتوراة، ووطن، ماذا سيحدُث غدًا؟!

- اشرب يا إيزاك، ولا تفكِّر كثيرًا.

- لماذا لم نتعلَّم منذ الصِّغَر يا سارة؟

- أنا تعلَّمت، والفضل يرجع لمدام ماكلين وديفيد.

- فلماذا لم أتعلَّم أنا؟

- أنت أيضًا تعلَّمت، لكن بطريقة لم تكن سليمة، كنت أقرأ عليك الصُّحف، وآخذك إلى مدام ماكلين، ولا تنكر أنك التقطتَ الكثير مما كنَّا نتكلَّم فيه، لكنَّك كنت تُشعرنا أنك لا تريد إلا أن تعيشَ في الحارة، يوم مات أبونا اسودَّت الدُّنيا في وجهي، وكنت أنظر إليك وكلِّي حسرة، فأخي كان من المفترض أن يحملَ عنَّا، لكنَّني وجدتُّك بلا شيء، لا تعليم، ولا تجارة، ولا حِرفَة، أنت غير اليهود يا إيزاك، اليهوديُّ منذ صغره يبحث له عن مكان يكون له وحدَه، يُنشئ عالمه المثالي، ولا يلتفت خلفه إلا إلى تاريخه، وحقَّه أن يكونَ من سادات العالم.

ديفيد ينظر إليها بنفس العينين اللتين كانت تنظرُ بهما في وجهه وهو يتكلَّم، إنها صنيعتُه وطفلته التي ربَّاها، وها هي ذي تشرِّفه بما تتكلَّمه لي، أما أنا فلم أزل في شبكة العنكبوت التي أوقعتُ نفسي فيها، ففي الصَّباح مصر بكلِّ ما فيها تغريني، والآن أنا منفصلٌ عن العالم؛ لأنشئَ عالمًا جديدًا، وأمي تعيِّرني بصَمتي وعزلتي، ويحها تلك العُزلة التي فرضتُها على نفسي! لكن ماذا كنت أفعل ولا شيء بيدي إلا الفقر، سارة أختي، ولم يهدَّها الفقر كما هدَّني.

- أتعلم يا إيزاك أن ديفيد التقى بالسيِّد ليون كاسترو اليوم؟

كدتُّ أقفز عن مقعدي حين سمعتُ الاسم:

- ليون كاسترو؟!

عيناي تفضحان الدَّهشة.

- نعم.

ووضع ساقًا على ساق، وركن ظهره إلى الوراء، نافثًا دخان (سيجارته) في سقف الغرفة.

- أتعلم من كان معه؟

- من؟

كنت لم أزل فاغرًا فمي من الدَّهشة.

- كان معه «صامويل إسرائيل» الصَّحفي.

- ومن هذا أيضًا؟

- أتذكر الشابَّ الذي استوقفتني سائلاً عنه يوم كنَّا في البساتين؟

- نعم أذكره، كان أنيقًا وسيمًا استوقفني حيثُ لم أتوقَّع أن يشيِّعَ أبي غيرُ أهل الحارة.

- هذا هو الشابُّ، وقد سألته حين رأيته، فأخبرني أنه كان يحبُّ أباك ويعطيه الجرائد؛ لأن أباك كان يلقاه في خمَّارة موسى.

سقطت عليَّ العبارة كالماء المثلوج، فلم أعرف أين أنا، ولم أعرف ماذا أقول!

- خمَّارة موسى؟ هذا الشابُّ يذهب إلى خمَّارة موسى؟! أبي لم يقل كلمةً حلوةً في حقِّ خمَّارة موسى!

- حقًّا هي خمَّارة للدُّونيين والمتسكِّعين، وأنت تعلم أن هؤلاء لديهم كلُّ أخبار الحارة والأحياء، بل والبلاد والأقاليم التي يذهبون إليها، وصامويل كان يذهب إلى هناك ليتقصَّى أخبارَ اليهود بهدوء من خلال ما يسمع وما يرى.

- ولماذا كلُّ هذا؟

- اسمع يا إيزاك.

- نعم.

- تعلم أن السعيَ لإنشاء وطن قوميٍّ لليهود لم يفتُر أبدًا، ولا نقول: هنا في مصر، وإنما في أوربا والعالم كلِّه، ومما لا بدَّ أن تعيَه جيِّدًا أن العقل اليهوديَّ قادر دائمًا على تحويل المعطيات جميعًا لصالحه كلَّما واتته الفرصة، بل هو قادرٌ على تحويل ما هو ضدُّه إلى أن يكونَ في صالحه، ويكفي أن تعرفَ أن السَّعي في روسيا لم يكفَّ من خلال جمعيَّات أحبَّاء صِهْيَون، والنِّداءات الدينية التي تنادي بعودة اليهود إلى هيكلهم وأرض الميعاد في فلسطين، وسعي السيِّد «هيرتزل» وحلمه لم يفتُرا أبدًا، وانتقلا إلى الدعاة والهداة وتوافق معهما سعيُ المليونيرات، هل تسمع بـ«دي روتشيلد»، و«دي هيرش»؟

- لا.

- لا بدَّ أن تعرفَ عنهم الكثير، وتعرفَ الكثيرَ عن موجات نزوح اليهود من أوربا وروسيا إلى البلاد المحيطة بفلسطين، وإلى فلسطينَ نفسها.

بينما أنا في محيط الاستماع والأفكار، تدخَّلت سارة مبتسمةً:

- يا إيزاك يا حبيبي، اليهود في فلسطينَ كثيرون جدًّا، ولهم محالُّهم وتجارتهم الواسعة، ونشاطهم الواسع، ومصرُ كما تعلم منشغلةٌ بقضاياها التي لن تنتهيَ أبدًا، والتشعُّبات الفكرية والعقائدية التي أوجدها العرب لأنفسهم؛ سعيًا إلى التخلُّص من الحكم العثمانيِّ الذي تسبَّب في تخلُّفها وتخلُّف كلِّ الدول التي تقع تحته، ولم ينتبهوا إلى أن أوربا تتقدَّم بسرعة غير عادية، وأن هذه البلدان ملكٌ لها، وستبقى تحت الاستعمار، بل هي مزارعُ ومصادر للموادِّ الخام لأوربا، فهل يضيِّع اليهود آخرَ فرصهم لأن يكونَ لهم وطن؟

- المصالح تعنين؟

- هذا زمن مَن لا يعرف مصلحتَهُ فيه تدوسُه الأقدام، فلماذا تدوسنا الأقدام، ونحن منذ خلقَنا الربُّ شعبه المختار الذي وحَّدنا بأرض تفيض لبنًا وعسلاً؟

- فلماذا لم نهاجر لنبنيَ فلسطينَ الوطن؟

ارتسمت علاماتُ الدَّهشة على وجه ديفيد وعلى وجه سارة.

- الآن يا إيزاك؟

- ولِمَ لا؟

- يا حبيبي، السَّعيُ لا بدَّ أن يكون مخطَّطًا له، وجهلك بهذه الأمور ناتجٌ عن أنك لا تذهب إلى «السيناجوج»، وتحضُر ما يدور هناك من دروس عن اليهودية.

- سأحضر وأعرف، مع أن كلَّ الدُّروس التي تُلقى هناك عقيمة فارغة، لكنَّني سأذهب، لا أريد أن أموتَ جاهلاً.

- بل يجب ألا نموتَ بلا قضية، لا ندَّعي أن مصر حرمتنا من شيء، لكنَّنا شعبٌ مختار مهما تعاقبت علينا السِّنون، استبشر خيرًا، فالدَّعوة التي تعمُّ العالم الآن ترفع شعار «الأشكيناز»، البحث عن وطن لهم يجتمعون فيه، بدلاً من شَتاتهم في أوربا؛ فقد تكاثروا هناك، وسأكون صريحًا معك، فأيُّ متتبِّع وفاهم لا بدَّ أن يُدركَ أن أصحاب الاقتصاد لهم فكرُهم، فـ«روتشيلد» يساعد في حمَلات ترحيل اليهود من أوربا إلى فلسطين؛ لغرضين:

الأول اقتصادي بحت: فمن ناحية سيُقيم مشروعاته، ومن ناحية يخفِّف ضغط اليهود والبَطالة في أوربا. والآخر: دعم الشِّعار الدِّيني لعودة اليهود إلى بلادهم الأصلية، وغيره كثيرون

يا صديقي، ويجب ألا نضيعَ فرصتنا في هذا التاريخ الذي سيُكتَب من جديد، ولكن برويّة اليهوديّ صاحب النفَس الطويل، لا بدَّ أن تتعلَّمَ هذا، والمنظَّمة التي أسَّسها السيِّد «كاسترو» هنا في مصر تحمل أهدافًا كثيرةً، ولا تنسَ أن مصر هي بوَّابتنا إلى أورشليم.

في طريقي إلى بيتنا كانت كلُّ الأفكار قد أشهرت سيوفها تتعاركُ في رأسي، كنت أبحث لي عن طريق، لا .. بل أبحث لي عن مكان، التَّوراة تريد لنا وطنًا، وهيرتزيل يريد وطنًا، وكاسترو يريد وطنًا، وديفيد وسارة يريدان وطنًا، حتى مدام ماكلين - مع أنها لن ترحل - تريد وطنًا!

تُرى لو أن ديفيد تكلَّم مع ألف يهوديٍّ كما تكلَّم معي الليلة كيف سيخرجون من عنده؟ وأيَّ أفكار سيعتنقون؟ من المؤكَّد أنهم سيبحثون لهم عن مكان في المنظومة الجديدة لليهود، الفقراء سيخرُجون من فقرهم، والأغنياء سيزدادون غنًى، وسنمتلك أرضًا أوسع، وتكون لنا كلمة، هنا أيضًا لنا كلمة، بل شركاتُ اليهود تملأ مصر، وكثيرٌ منهم يُديرون شركات المصريين وملاهيهم.

- وهل هذا يكفي؟

- فما الذي يكفي؟

- أن نكونَ في كلِّ مكان.

- نحن في كلٍّ مكان.

- أن يكونَ لنا مركزٌ نُدار منه.

- غفلة الشُّعوب؟

- الشُّعوب ليست غافلةً، وإنما إدارة الشُّعوب هي التي يمكن أن تُفيقَ ويمكن أن تغفل.

- ماذا تقصد؟

- أقصد أنك لا تريد أن تفهمَ أنك في بادئ الأمر وآخره يهودي، ويكفيك أن الحاجَّ محمد سخر منك لأنك لا تفهم في التجارة.

- لم يسخر منِّي.

- بل سخر، ولا تنسَ أنك ابنُ الدلَّالة الذي حكم عليه الواقع أن يكونَ هكذا في الوقت الذي لا سبيلَ لك أن تكون كالمصريين، أو كأغنياء اليهود.

- بل لا بدَّ أن أكون.

- تكون ماذا؟

- أكون... سأعرف.

كانت أمي تنتظرُني في البيت:

- ليلتك سعيدة.

- ليلتك أسعد.

- أين عزرا؟

- عند مدام ماكلين؟

- لماذا؟

- سيُقيم عندها؟

- ماذا تقصدين؟

- هي الآنَ وحيدة، وتريد أن يسلِّيَها عزرا.

- هي التي طلبت؟

- أنا عرضت عليها؛ فمن ناحية تعلِّمه، ومن ناحية أخرى يكون له مكانٌ في بيتها.

- مكان في بيتها؟

- لماذا دهشت؟ ألا ترى أنها ستهتمُّ به وترعاه وتنفق عليه في مقابل أنها تجد من تتكلَّم معه ويقضي لها حوائجَها بعد ترك ديفيد للبيت؟ أخوك الآن بلغ عشرَ سنوات، وتعلَّم القراءة والكتابة، ولا أريد له أن يتوهَ في الصَّمت والشَّتات.

- تقصدينني؟

- أنت البِكْر والحبيب يا إيزاك، لكن يجب أن نُديرَ حياتنا

بما ينفع يا بني.

- كنت عند الحاجِّ محمد، وأخبرني أن المبلغ زاد في تجارته.

- وأنا أفكِّر فيما هو أفضل.

- ماذا؟

- أن يلتحقَ أخوك بـ(ورشة) صاغة.

- صاغة؟ فكرة مَن هذه؟

- في زيارتي لمدام ماكلين قابلت عندها زوجة «سميح المصري»، صاحب محالِّ الصَّاغة، وكنَّا نتكلَّم على التعليم والتجارة وما تدرُّه الصَّاغة، وأنت تعلم أنها حِرفةُ القرائين أساسًا، فعرضت عليَّ أن يتعلَّمَ في (ورشتهم) التي هنا في الحارة، وسنُّه ما تزال صغيرة، وسيكون له مستقبلٌ ممتاز في هذا العمل.

حتى أمي وصلها فكرُ الصِّهيَونية؟ أنا فقط المتخلِّف؟

- موافق، فكرةٌ ممتازة ستكون بابًا لكثير من الخير.

يبدو أنني بدأت أفهم.

- كنتِ تريدين إخباري بموضوع موسى صاحب الخمَّارة، فهل الوقت يناسبكِ الآن؟

- موسى يا إيزاك، واحدٌ من الذين كانوا يريدون الزَّواج منِّي، وطالما طاردني وطارد أهلي، وكان حينها صاحبَ مال وتجارة، واشتُهر عنه أنه يحبُّ الفتيات الصغيرات ويتاجر بهنَّ، بمعنى أنه يتزوَّج الواحدةَ ويتاجر بها لدى من يدفعُ أكثر، لكنَّ أهلي كانوا يرَون أنه مناسب؛ فهو غنيٌّ، وسيرحمني من حياة الفقر، وكنت أحبُّ أباك، وكثيرًا ما ساعدَني، وكنَّا على وفاق واتفاق، وأقسمت بالتَّوراة أنني لن أتزوَّجَ أبدًا.

وتدخَّل ناسٌ كثيرون؛ ليحلُّوا المشكلةَ بيني وبين أهلي، ومنهم الحاجُّ محمد محمود الذي أقنع أبي مقابل أن يدفعَ له عشرين جنيهًا، طبعًا كانت ثروةً في ذلك الوقت، وبعد زواجي من أبيك لم يكفَّ موسى عن مطاردتي، فأنت تعرف عقل اليهوديِّ، إذا أصرَّ على شيء اتَّبَع له كلَّ السُّبُل، لكنَّنا لم نُعِره أيَّ اهتمام، وكان أبوك يثق فيَّ ثقةً عمياء، فأنا تحمَّلت لأجله ومعه الكثير، وذات مساء وأبوك عائدٌ من جولته لمحَ موسى يمرُّ من أمام بيتنا، فكانت أسودَ ليالي العمر، وفيها مات الحبُّ الذي كان، فقد وجد في البيت زجاجةَ نبيذ من نوع فاخر كنت قد ادَّخرتُ ثمنها من العرَق والشَّقاء؛ لنقضيَ بها ليلة سبت وافق الأسبوعَ الذي تزوَّجت فيه أباك، فأصرَّ أن الذي أحضرها هو موسى، فمن أين لنا بمثل هذه؟! والذي أجَّج النيران أكثر أن موسى سأل أباكَ بعدها عن النبيذ وما فعل به، وهل استمتع به؟

فما كان من أبيك إلا أن انقلبت حياتُه وحياتنا إلى الهمِّ والنكد، وبقينا في البيت نحفظ فقط احترامنا؛ كي لا يشمتَ بنا أحد، وتحوَّل أبوك إلى سكِّير يقضي الوقتَ عند موسى، ولا يرجع إلا حين يطمئنُّ أنه أغلق الخمَّارة وذهب إلى بيته، واستمرَّت العُقدَة مع أبيك حتى مات.

كانت أمي تقصُّ القصَّة والأسى يقطُر من عينيها، وأنا مشدوهٌ لما تحكيه، وأتعجَّب كيف لهذا النَّذل أن يحضرَ جنازة أبي، ويقضي كلَّ هذه الأوقات؟! من المؤكَّد أنه كان يشمت، ويتشفَّى، أو لعلَّه يجدِّد الآمال.

على أية حال ها قد عرفت، وبهذا أكون قد أزحت فكرةً كانت تطاردني من جدول اهتماماتي الذي لا بدَّ أن أرتِّبَه من الآن فصاعدًا.

فاجأتني أمي بأن أخرجت لفافةً من صندوقها، وقالت لي: افتح هذه.

فتحتها، وإذا بها مَنامَة (بيجامة) من الحرير، زرقتها من زرقة السَّماء، وقبَّلتني قُبلتين قائلةً: هذه هدية، ألم تكن تحلم أن يكونَ لديك ملابسُ زاهية اللون؟

احتضنتُ أمي، وسقطت الدُّموع من عيني، وتداخلت المشاعر، فلا أعرف في أيِّ شعور أنا؟ فرحت بالمَنامَة فرحةَ الأطفال، ولم تكتف بهذا، ولكن أخرجت لفافةً أخرى فيها

بنطال وقميصان، قائلةً: أنت الآن تُصاحب (الأفندية)، وتزور أختك وزوجها، ولا بدَّ أن تكونَ أنيقًا.

حملتني النشوة على جناحيها الفضِّيَّين، ولا أعرف لماذا حين حلَّقت رأيت «رحيل» تحلِّق معي، ترتدي ثوبًا ورديًا، تأخذني من يدي إلى سحابة بيضاء.. من فوقها أبصرتُ العالم كلَّه.. ما هذا؟ إنها نجمة داود ترتسمُ على الأرض كلِّها! لماذا حدث هذا؟ نظرت «رحيل» في عينيَّ قائلةً: هو عالمنا الحقيقيُّ يا إيزاك، الأرضُ لليهود منذ خلقهم الربُّ وعاهدهم، إسرائيل تأتي يا حبيبي.

لا بدَّ أن كلَّ الخيوط تتجمَّع في يدي، أنا كلِّي أتبدَّل، ألن تتحقَّقَ الأحلام إلا بتحقق إسرائيل؟

(٩)

استيقظت قبل طلوع النهار كالعادة، وتناولتُ فطوري مع أمي، لكنَّني كنت أفتقد عزرا كما أفتقد سارة، وبعد وقت خرجت أمي، وذهبتُ لأقرأ قبل أن أخرجَ إلى المدرسة التي كرهتها حقًّا، كانت المفاجأة حين سمعتُ ثورة صياح في الشَّارع سببها باعةُ الصُّحف ينادون: «اقرأ فرض الحماية»، «اقرأ الجديد».. حماية؟

أسرعت ونقدت البائع، وتناولت منه «الأهرام» التي كتبت عن فرض بريطانيا الحمايةَ على مصر بعد أن دخلت الدَّولة العثمانية طرفًا في الحرب العُظمى... ما هذا الذي يحدث؟ هل ستتغيَّر خريطة العالم؟ مصر ولاية عثمانية، فكيف لبريطانيا أن تفرضَ عليها الحماية؟ وبأيٍّ منطق تدخلُ الدَّولة العثمانية الحربَ ضدَّ دولة هي في الأساس تحتلُّ ولاياتها؟

لم أذهب إلى المدرسة، وإنما توجَّهت إلى مكتب ديفيد الذي

استقبلني بحفاوة قائلاً: حظُّك جيِّد أنني لم أغادر المكتبَ اليوم، لكن ما هذه الزِّيارة المفاجئة؟

ودون مقدِّمات سألته:

- قرأتَ جرائد اليوم؟

- كلَّها.

- ما رأيك؟

- أمر طبيعيٌّ، لكنَّه لم يكن متوقَّعًا، إن الدَّولة العثمانية دائمًا على خلاف مع روسيا، وليس أمامنا إلا أن نراقب.

- نراقب ماذا؟

- نراقب الأيامَ الآتية، فربما ما سيحدُث فيها يغيِّر الكثير مما نراه قائمًا.

بينما نحن نتحادث دخل علينا رجلٌ مَهيب الطلعة، يرتدي حُلَّة أنيقة، ويحمل في يده عصا منحوتة لها رأسٌ على شكل رأس أفعى ملكيَّة، طربوشه بديع، وشاربه منمَّق جدًّا... حين رآه ديفيد هبَّ واقفًا، مغلقًا أزرارَ حُلَّته، وتبعًا له وقفت أنا أيضًا؛ فمَهابة الرجل آسرة.

سلَّم علينا بتحيَّة فرنسية رددناها عليه، وسأل ديفيد عنِّي، فعرَّفه بي، وعرَّفني به، إنه السيِّد إبراهام طنطاوي، سألني عن حالي بالفرنسية، فأجبتُه ناظرًا في عينيه، سألني عن دراستي،

فأخبرته أنني أدرس الابتدائيَّة، قال: فرنسيَّتك جيِّدة.

لا بدَّ أنها الفرصة ستأتي يا إيزاك، اغتنم الفرصةَ يا ولد.

- أشكرك، هذا من لطفك.

- ديفيد إنسانٌ نشيط، هل أنت مثله؟

قاطعني ديفيد:

- بل هو سابقٌ لسنِّه، معلوماته غزيرة، وقراءاته متنوِّعة.

- ممتاز ممتاز.

ناظرًا في عينيَّ سألني:

- ما رأيك فيما ورد في الصُّحف اليوم؟

حاولت أن أقرأ أفكارَه من خلال وجهه وعينيه، لو أنه متضايقٌ لما رحَّب بي، ولا وقف يتجاذب أطرافَ الحديث، بل ربما نهرَ ديفيد.

- من وجهة نظري، بريطانيا في كلِّ الأحوال هي التي تُدير مصر، والقوميُّون يسعَون بكلِّ الوسائل للتخلُّص من الحكم العثماني.

- هل تعرف شيئًا عن أول كلمة في سطور الحرب العُظمى؟

- اغتيال.

تأمَّلني الرجل، وحدَّق في تعبيراتي الثابتة:

- هل إجاباتك دائمًا مختصرة.

- حين يستلزم الموقف، فلا أعتقد إلا أن جنابكم تعرفون التفصيلات أكثر منّي.

- وماذا تتوقّع؟

- حكومة جديدة.

الدَّهشة أغرقت كلّاً من طنطاوي وديفيد، أما أنا فلا أعرفُ كيف نطقت بهذه العبارة؟ وكيف يكون تأثيرها؟ ثم من أين أتتني هذه العبارة؟

- ولماذا حكومةٌ جديدة؟

- في البلد تيَّارات مُتباينة، وربما تحدُث اضطراباتٌ تُقلق بريطانيا التي ينبغي أن تحافظَ على عدم ظهور جبهة صراع جديدة.

- ومن المنتصر؟

- الذي نقف معه.

- ومصر؟

- مصر كالعجينة الغنية بكلِّ المواد، يمكنها أن تتشكَّلَ لأيٍّ صنف من المأكولات.

- ويحك من صبي! من أين تأتي بهذه التعبيرات؟

تحرَّك الطنطاوي، وتقدَّمَه ديفيد يفتح له بابَ غرفته الخاصَّة، فتقدَّمَنا داخلاً، وأشار إلينا لندخل، رفع طربوشه ووضعه على المِشجَب، ثم جلس خلف مكتبه الفخم، مُخرجًا (سيجارًا)، وأشعله بقدَّاحة ذهبية بهرتني النقوشُ التي فيها، فلمَّا لاحظ تدقيقي النظرَ فيها قال: مثلك سيحمل مثلها في وقت قصير.

تردَّدت عينا ديفيد بيني وبين أستاذه، ولا أعرف إن كان دهشًا أم سعيدًا، أم يريد أن ينتحيَ بي جانبًا ليسألَني عن مصدر ما أقول، لكنَّني في الوقت نفسه لا أعرفُ ماذا سأقول له؟ وبمَ أردُّ لو سألني؟ فكلُّ ما هنالك أنني أطلقتُ لخيالي العِنانَ أتصوَّر الغد، فأقول ما يردُ في خاطري، ففي نهاية الأمر سأخرج من هذا المكتب بلا رجعة، ولن يحاسبَني أحدٌ على كلامي.

- هل تسمع بالسيِّد ثيودور هرتزل؟

- مؤلِّف كتاب: «دولة اليهود»، ومؤسِّس الحركة الصِّهيَونية والمنظَّمة الصِّهيَونية.

- فقط؟

- يكفي أن أعرفَ أن مثقَّفًا يهوديًّا واحدًا حشد العالم حول حلمه، وأعلن المنظَّمة الصِّهيَونية في المؤتمر الأول في مدينة «بازل» سنة ١٨٩٧.

بدهشة شديدة قام الرجل من مكانه مستديرًا حول مكتبه؛

ليقتربَ منّي جدًّا، وضمَّني ضمَّةً كلُّها ثقة، ذكَّرتني بتلك الضمَّة التي ضمَّنيها الحاجُّ محمد محمود بعد دفن أبي، وبعد أن تراجعَ عنّي خطوةً سألني: كم عمرُك يا إيزاك؟

- دقائق.

ابتسم الرجل ابتسامةً كلُّها ثقة وذكاء ودهاء، ووجَّه كلامه لديفيد قائلاً: يهوديٌّ يهوديٌّ يا ديفيد، هل زوجتُك مثله؟

فرك ديفيد كفَّيه مع ابتسامة لطيفة، وهو يقول: العائلة كلُّها، لكن ماذا نحن أمام عبقريَّتكم الفذَّة؟!

ابتسمت في نفسي قائلاً: بل أنت يا ديفيد صِهيَونيٌّ صِهيَونيّ.

- أنت مكسبٌ للمكتب يا ديفيد، وإكرامًا لإيزاك لك مكافأة خمسة جنيهات.

الدَّهشة أغرقتني كما أغرقت ديفيد، خمسة جنيهات مكافأةٌ إكرامًا لي؟ فكم يتقاضى ديفيد إذا كانت المكافأة خمسة جنيهات، ولماذا هي لديفيد وليست لي؟! هل ديفيد هو الذي كان يُجيب عن الأسئلة؟

صرفَنا الطنطاوي بلطف من حُجرته، مذكِّرًا ديفيد ببعض الأعمال، وموصيًا إياه أن يضيِّفَني على فِنجان قهوة من قهوته الخاصَّة.

خرجنا من الحُجرة، فضمَّني ديفيد ضمَّةً قوية وقبَّلني قُبلتَين،

وشكرني بعبارات بليغة، وقال: سارة ستفرح جدًّا يا ديفيد، كما أنني أطير من السَّعادة.

- بالتأكيد تطير، خمسة جنيهات يا سيِّدي.

- لا، ليست الخمسة جنيهات، بل أنا سعيدٌ بك أنت؛ أنت شرَّفتني ورفعت رأسي.

- ربما لو لم يُعجِب كلامي أستاذَك لقلت لي: أنت فضحتَني وقصَّرت رقبتي.

ابتسم ديفيد بخُبث، وقال لي:

- ما أنت يا رجل؟ وأين كنت تدَّخر كلَّ هذا؟

- أنت أستاذي يا ديفيد.

- لا، أنت ماكرٌ يا إيزاك، إن الذي يراك لا يظنُّ فيك إلا أنك إنسانٌ مهمِل، بائع للدُّنيا، بل ربما يعتقد أنك محمدي.

قال ديفيد هذه العبارةَ وانفجر في الضَّحك، ويحه! هل نسي أن المسلمين تركونا نعيش في هذا البلد، ونمارس فيه العبادة، وكلَّ نشاط يحلو لنا؟ وهم أيضًا الذين تصدَّوا للحمَلات الصَّليبية على فلسطين، ولولاهم لما سمع أحدٌ بنا، ولا ظهرت الأحلام بوطن في فلسطين؟

- إيزاك، هل لي أن أسألك؟

- تفضَّل.

وأنا أرتشف رشفةً من فِنجان قهوة طعمُه ليس كأيِّ قهوة أبدًا.

- من أين لك هذه المعلومات؟

- الأمر هيِّن يا ديفيد، هناك أناسٌ يقرؤون ويقرؤون، والمحصِّلة بعض ما قرؤوا، وأناسٌ يقرؤون ويستثمرون كلَّ ما وقعت عليه أعينُهم.

- أنت أصغر من أن أتوقَّعَ منك هذا الرَّد.

- الخيال يا صديقي، والمداومة على التَّوراة.

- التَّوراة؟

- وهل هناك كتابٌ يُثري الخيال أكثر من التَّوراة بما فيها من روايات وحكايات؟

- خفِّض من صوتك.

كاد ديفيد ليضعَ يده على فمي؛ فلا يسمع أحدٌ عبارتي، لكنَّني ابتسمت له قائلاً: أنت وسارة وعماد السببُ يا ديفيد.

- ومَن عماد؟

- ابن الحاجِّ محمد محمود صاحب وكالة القُماش.

- نعم عرفته، سارة حدَّثتني عنه.

- هو شابٌّ أكبر منِّي بعامين تقريبًا، مسلم، أقصد محمدي لكنَّه مصري، لا يفرِّق بين أصحاب الأديان، مثاليٌّ، تحمَّلني

حتى حين هاجمته.

- لا تهاجم المحمديين يا إيزاك، ليس هذا في صالحنا أبدًا.

- فهمت، فقد غيَّرت طريقتي حين وجدتُه قارئًا للتاريخ، ويعرف عن تاريخنا كما نعرف، بل يعرف أكثر منِّي.

- تاريخنا القديم صار في الكتب يا حبيبي، الآن لا بدَّ أن نكتبَ تاريخًا جديدًا حسب العصر الذي نعيشه.

- أنا أقول هذا أيضًا؛ لذلك كلُّ ما تقع عليه عيني صار يلتصق بذهني، بل إني جائع جدًّا.

- ألم تُفطر إيزاك؟

- لا يا أخي ليس للطعام، بل لأن أقرأ وأعرف.

- أنت الليلة مدعوٌّ إلى العَشاء عندنا، أحضر والدتك وتفضَّلا، سنحتفل بالمكافأة معًا.

- أنا وأمي فقط؟

- لا، عزرا سيأتي مع أمي.

- وكم ستُعطيني من المكافأة؟

- كم تريد؟

- أنت الذي سيدفع، وليس أنا.

- اطلب.

- لا، ربما ما ستُعطيني أكثر مما سأطلب.

- صدق الأستاذ طنطاوي؛ يهودي.

ضحكنا معًا في نفس الوقت، وعقَّبت: بل تلميذُك يا صِهيَوني.

مساءً كان اجتماعنا في بيت سارة، استقبلنا ديفيد وسارة استقبالاً كلُّه حفاوة، وأعدَّت لنا عَشاء طيِّبًا، بل كانت احتفاليَّة جميلة، وبعد العَشاء تجاذبنا أطرافَ الحديث، وكان ديفيد هو الراوي، وأنا بطل الحكاية.

كانت أمي في دهشة من كلِّ ما يجري ويحدُث، ونقلت لنا أخبارَ البيوت وردودَ الأفعال بشأن القرار، وقد استقبله الناسُ بدهشة، وانقسمت الآراء بين مؤيِّد ورافض، ومنهم من يدعون على الإنكليز الذين لا يريدون أن يحلُّوا عن سمائنا، أحاديث كثيرةٌ كان أهمُّها ما دار في مكتب الأستاذ الطنطاوي، الذي أثنى عليَّ حتى بعد مغادرتي، وأبدى إعجابه بذكائي، ومما أضيف إلى الأحاديث أناقتي التي أثنت عليها مدام ماكلين، حتى إنها ذكَّرتني بذلك اليوم الذي ضبطتني فيه وأنا أحشُر رأسي في بوق (الفونوغراف)، وسألتني: أما زلتَ تريد أن تغنِّيَ يا إيزاك؟

- لا يا أستاذة، الآن أريد أشياءَ كثيرةً تحتاج أن أصنِّفَها.

- تتكلَّم كالكبار يا إيزاك.

- أحاول يا أستاذة.

أمي تنظر بدهشة، أعلم أنها تخاف أن أضيعَ بسبب أفكاري؛ فالذين يملكون المال وحدَهم لا يضيعون، طبعًا لم نتأخَّر عند سارة وديفيد، وخرجنا جميعًا إلى الحارة؛ فالأحكام العُرفيَّة ستكون أقوى هذه الليلة بالتأكيد، فالبلاد في حالة من التأزُّم بسبب ما يجري.

(١٠)

- لن أذهب إلى المدرسة اليوم.

كان هذا ردِّي على أمي حين أرادت أن توقظَني.

- سأبقى في البيت.

- مع الكتب يا إيزاك؟

- لا بدَّ أن أنهيَها لأعيدَها لديفيد.

كان عليَّ أن أنهيَ كتاب ثيودور هرتزل، وكتبًا أخرى، وجرائد أعطانيها ديفيد، من هنا سأبدأ رحلةَ تعليمي الحقيقيَّة، ولا أريد حتى أن ألتحقَ بـ«الفيرير»، وبالطبع «الإليانس»؛ فهذه ليست لنا، ربما أبنائي يلتحقون بها في المستقبل.

عدتُّ للنوم غارقًا في تصوُّرات وأحلام، لكنَّني أشعر أنني صرت فظًّا، وهجرني هدوئي الذي عرفني به الجميع، لم أنم طويلاً؛ ففكرةٌ طرأت على رأسي أفاقتني لأفتحَ النافذة المطلَّة

على «رحيل».

بالفعل كانت تخرجُ من باب البيت، وكأننا كنّا على موعد! همستُ لها فانتبهت، لوَّحت لي ولوَّحت لها خُلسةً، فأرسلت لي ابتسامةً كانت كالوَقود الذي يدفعني، «رحيل» صارت أحدَ أحلامي المستقبليَّة.

عدتُّ إلى غرفتي، ومع نور الصَّباح والهواء البارد فتحت كتابَ السيِّد هرتزل، وبدأت أعيش الحلم الصِّهيَوني كأنه حقيقةٌ واقعة، ولـمَ لا؟ مؤتمراتٌ عدَّة عُقدَت؛ لتأصيل فكرة الوطن القوميِّ لليهود، بالتأكيد الأحلام تحتاج إلى زمن لتتحقَّق، فما المانعُ أن أشاركَ في بناء الحلم والحقيقة؟ ومَن يشارك سيكونُ له مكانه ومكانته...

بينما أنا سابحٌ في تلك الأفكار سمعت باب شقَّتنا يُقرَع قرعًا متتابعًا، قمت لأرى من الطَّارق على غير العادة؟ فالسَّاعة التاسعة صباحًا، أمي لديها مفتاحٌ للباب، هل هي سارة؟ ولماذا تأتي الآن؟

- نهارك سعيد.

- نهارك سعيد.

- حضرتك السيِّد إيزاك يعقوب؟

- نعم، من أنت؟

- أنا السَّاعي بمكتب الأستاذ إبراهام الطنطاوي.

- أهلاً بك.

- ذهبتُ إلى المدرسة فلم أجدك، والأستاذ يطلبُك في مكتبه الآن.

ماذا يحدث؟ الرجل يناديني بالسيِّد، والطنطاوي يطلبُني إلى مكتبه، تُرى ماذا هناك؟ بدأ الاضطراب يدبُّ فيَّ دبيبًا...

طلبت إلى الرجل أن أبدِّلَ ملابسي، فقال: إنه سينتظرُني قرب البيت.

غسلت وجهي وبدَّلتُ ملابسي، ونزلتُ على عَجَل، فوجدتُّ عربة (حنطور) تنتظرني، وبها السَّاعي الذي لم يركب إلى جواري، وإنما ركب إلى جوار الحوذيِّ. ما به يعاملني معاملةَ النُّبَلاء؟ هل صار إيزاك من عِليَة القوم؟!

- لا تشكَّ في قدراتك.

- ربما مصيبة.

- لو أنها المصيبة لما عاملك هذه المعاملة.

- ماذا يمكن أن يحدث؟

- دقائق وستعرف.

في المكتب كان ديفيد يترقَّبُ الباب، وحين دخلت هبَّ من

مكانه لي واقفًا، وقفز إليَّ جاذبًا يدي:

- الأستاذ ينتظرك على أحرَّ من الجمر.

- ماذا يحدث؟

كنت أدَّعي الثقة، فاردًا طولي الذي يقارب طول ديفيد.

- ألا تعرف ماذا يحدث؟ البلد كلُّها تعرف، وأنت الذي لا تعرف؟ أنت أول من عرف، لا تُكثر؛ فلا يحسنُ أن نتكلَّم وهناك من ينتظر.

- هل غير الأستاذ؟

- ستعرف، رتِّب ملابسك.

أخرج ديفيد زجاجةَ عطر من دُرج مكتبه، ورشَّني بها رشَّات خفيفة، وقال: استعدَّ يا بطل، وتقدَّمَني طارقًا طرقةً خفيفةً على الباب، وفتحه فإذا بوجه الأستاذ إبراهام عليه علاماتُ الفرح، قام واقفًا وهو يقول:

- ادخل يا ولد، اقترب هنا.

دهشت لقوله: «يا ولد»، ربما لأنني لم أتوقَّع أن يقولها؛ فليست العلاقة بيننا حميمةً لهذه الدرجة، كان مادًّا لي يديه وهو يناديني، حتى أنني دخلت ولم أنتبه أن غيره في الغرفة، صافحني وقال:

- اسمحوا لي أن أقدِّمَ لكم الفذَّ إيزاك يعقوب، أعرِّفك يا

إيزاك؛ السيِّد: ليون كاسترو.

وقف الرجلُ يصافحني بحفاوة شديدة، بينما أنا في بحر لُجِّيٍّ من الدَّهشة والاضطراب، هل أصافح ليون كاسترو؟

السيِّد «ألبرت موصيري»، ما مقدار الدَّهشة الذي يمكن أن أقعَ فيه الآن! وأيُّ أرض تلك التي أقف عليها ولمَّا أتجاوز الثامنة عشرة من عمري، وأصافح كاسترو وموصيري؟!

السيِّد: صامويل إسرائيل، مددتُّ له يدي مصافحًا، وكان حفيًّا حين قال: أعرف إيزاك من قبل، وقد التقينا.

- أذكر يا أستاذ، وارتسمت على وجهي ابتسامةُ حفاوة به.

ابتسم السيِّد إبراهام وهو يقول:

- تفضَّلوا بالجلوس جميعًا.

نادى طالبًا القهوة، وعمَّ الصَّمت المكان، كلُّ العيون تتَّجه إليَّ، وابتسامة ترتسم على وجوههم تفضح ما في أذهانهم من دهشة وأسئلة، بل أنا الغارقُ في الدَّهشة والأسئلة: لماذا هذا الحشد؟ هل هي المصادفة؟ لكنَّه طلبني، وأرسل إليَّ، ويعرِّفني بالفذِّ! ماذا فعلت لهذا؟ أين ديفيد؟ لماذا يتركني وحدي هنا؟ الأول والثالث سمعتُ بهما، لكن من ألبرت موصيري هذا؟

- ويحك! يكفي أنه من آل موصيري.

- هم طلبوني.

- فانتظر لتعرف، ولا تتسرَّع، وكن رابطَ الجأش.

- أريد أن أسعُل.

- ابتلع سُعالك؛ فأنت في حضرة الكبار.

- أريد أن أحكَّ رأسي، أشعر أن قملَ الدُّنيا يخُزُّني في كلِّ خليَّة!

- إنها أفكارك، لا تحكَّ رأسك.

أخرجَنا من صمتنا دخول ديفيد ومن ورائه السَّاعي يحمل القهوة، فشعرتُ ببعض الرَّاحة، وشرع ديفيد يقدِّم القهوة بادئًا بالسيِّد كاسترو، فالسيِّد موصيري، فالسيِّد إسرائيل، وحين همَّ أن يقدِّمَ للسيِّد الطنطاوي أشار بلطف ناحيتي، فاقترب ديفيد بابتسامته، وكدتُّ أقف احترامًا له، لكنَّه هزَّ رأسه مانعًا إياي، فرفضت أن آخذَ قهوتي قبل السيِّد الطنطاوي، فهزَّ الرجل لي رأسه، وكذلك فعل الحاضرون مُبدين إعجابهم بخلُقي.

طلب الأستاذ الطنطاوي من ديفيد أن يجلسَ معنا، ففعل، وكان جلوسُه إلى جواري، تمنَّيت أن تفتحَ طاقة بين ذهنينا.

- طبعًا تعرفون ديفيد، تلميذي النَّجيب، وأنشط المحامين بالمكتب، زوجتُه أخت هذا المجرم الصغير.

قال الطنطاوي هذه العبارة مشيرًا نحوي، وانتزعتني كلمة «المجرم» من كلِّي، تُرى فيم أجرَمت؟ تلهَّيت في ارتشاف

القهوة؛ كي لا أنظرَ في أيِّ ناحية، لكن طبل قلبي يُسمع الراقدين في البساتين.

- بالأمس فقط لقيتُ هذا الشابَّ الذي تكهَّن بما حدث اليوم، وتعرفونه طبعًا.

دون أن أشعر، وضعت القهوةَ على الطاولة.

- هل حدث؟ الحكومة؟

- بل الخديو؟

- بلغني ومجموعةً من كبار البلد أن بريطانيا قرَّرت عزلَ الخديو «عبَّاس حلمي الثاني» وتوليةَ الأمير «حسين كامل» مقاليدَ الحكم، ليس هذا فحسب، بل ومنحُه لقب سلطان، وسيجلس اليوم على العرش.

- سلطان؟! هذا يعني أنهم يمنحونه نفسَ لقب حاكم الدَّولة العثمانية؛ أي: إنهم يعزلون مصر عن الحكم العثماني!

أنزلَ من كان يضع ساقًا على ساق رجلَه في دهشة مما أقول، وكأنني أقول ألغازًا، أليست هذه بديهيَّة يفهمها الجاهل؟ ما بهم اليهود دائمًا يبحثون عمَّن يلتفُّون حوله؟ وإذا بحثوا ألا يجدون غير فتًى مثلي؟

- ولمَ الغرابة؟ أليسوا دائمًا في انتظار الأنبياء؟

- لا نبي غير راشد.

- دعهم فيما يريدون ما دمتَ المستفيد.

- وماذا أستفيد؟ هل أكون رئيسَ الوطن القومي؟

- لا تطمع، ورتِّب خطواتك، هم الآن يريدون معرفةَ عقل الصبيِّ الذي سمعوا عنه.

- وها أنا ذا فاجأتهم.

ابتسمتُ رغمًا عنِّي، وقد اعتقدوا أنني أبتسم لهم، إنهم لا يعرفون ما يدور بداخلي.

- هيا إيزاك أخبرنا بما تتوقَّع.

قالها السيِّد كاسترو كأنه جالسٌ أمام عرَّافة غجَرية.

- أنا لست عرَّافًا يا سيِّدي، كلُّ ما هنالك أنني أقيسُ الأمور على الشَّواهد.

- إذًا قس الأمور حبيبي.

- لمَّا كان الإنكليز قد اختاروا الأميرَ «حسين كامل» فهذا يعني أنهم يعرفون أنه سيكون ذراعهم، ولمَّا كان قد قبل فهو مُقرٌّ بهذا، وتلقيبه بالسُّلطان يعني أنه موافقٌ على الانفصال - ولو اسمًا - عن الخلافة العثمانية.

- لكن ألا يتسبَّب هذا في ثورة إسلاميَّة؟

بهذا السؤال علَّق السيِّد موصيري. . .

- الصُّحف أعادت تشكيلي وصنعتني، لن أقول: إنني تعلَّمت في مدارس كذا أو كذا، ولن أقول: أنا أعرف وأعرف، فقط أقول: إن القلم يمكنه أن يخلقَ عالمًا جديدًا، وكما فهمت من كتاب السيِّد هرتزل: من أصرَّ على تحقيق حلمه حقَّقه، ومن أراد أن يبنيَ دولةً بناها، لكنَّ عليه أن يجيدَ استعمالَ الأدوات.

لم أتمَّ عامي الثالث في القراءة، لكنَّني أقرأ وأشاهد، وأسمع جيِّدًا، منذ مات أبي بدأت أقرأ، وبعد موته بعام توفَّر لي ثمنُ الجريدة، فصرت أشتريها، ووفَّر لي زوج أختي الأستاذ ديفيد كتبًا ومجلات كانت قديمةً عنده، أنتم لا تهتمُّون بحارة اليهود؛ لأنهم كما قال أبي قبل أن يموت بلحظات: «حطب النَّار التي تُنضِجون عليها طعامكم».

أعرف أن سبعين يمكن أن تقوم بهم دولةٌ كبرى، وأعلم أن التضحيات ستكون كبيرة، ولكنَّ المكاسب ستكون أكبر، وربما حين أكبَرُ تتسع مداركي أكثر، وأعي أكثر وأكثر؛ فما زلتُ أكوِّن رؤيتي للعالم، وأبني أحلامي التي لن أصرِّحَ بها، لكنَّني قاربت الإيمان بأن دين اليهود وحدَه لا يمكن أن يقيمَ لهم كِيانًا.

هبَّ ليون كاسترو قافزًا إليَّ حتى إنني خِلتُه أسدًا سيفترسني، لكنَّه حملني من مكاني مقبِّلاً رأسي، قائلاً: لو أنَّ لي ابنًا مثلك لسرتُ وراءه، حتى أكونَ شريكه في المجد.

طأطأتُ رأسي؛ لأنني تذكَّرت حادثة البول الذي تدفَّق منِّي

حين لطمَني أبي اللطمة التي قلبت كلَّ موازيني، وها هو ذا كاسترو يُدخلني مرحلةَ بول جديدة بما أفزعني، وبالمكانة التي وضعني فيها.

بثقة زائدة وشُموخ تنحنح الأستاذ الطنطاوي ثم قال:

- ألم أُخبركم أن الحارة بها الكنوز التي يجب أن ننقِّبَ عنها؟ لا تطمع يا سيد كاسترو، إنه لي أنا، إيزاك مكانُه هنا في هذا المكتب.

سأل السيِّد موصيري: أين تدرُس يا إيزاك؟

- قرَّرت أن أتركَ الدِّراسة في المدارس.

- يمكننا أن نُلحقَك بأيِّ مدرسة تريد.

- أُجيد الفرنسية والعبرية، وأجيد العربية، وأقرأ في كلِّ فنونها، ولكلِّ الأدباء العرب، ولا أُخفيكم سرًّا، بدأت أقرأ القرآنَ أيضًا.

موجة من الدَّهشة غمرَت وجوه لحاضرين، وهمهماتٌ في فم كلِّ واحد منهم، وتراجع كلٌّ إلى مكان جلوسه.. صمتٌ عمَّ المكان، ورأسي يكاد يتحطَّم من تزاحم الأفكار... «رحيل» تقف بيني وبينهم، وتطبع على جبيني قُبلةً دافئة، فأتحسَّسها برفق. عماد يقف إلى جوار «رحيل» مشدوهًا مما يحدُث ومما أقول، والنَّدم يسَّاقط من عينيه. لم أحوِّل عيني عن عينيه، بيدَ

أنني جذبت «رحيل» من جواره، واحتضنتُها بعنف، ثم أوقفتها إلى جواري؛ لتعلقَ ذراعها في ذراعي، هذا الذي لقَّنني أهمَّ درس، عماد محمد محمود سيتفوَّق في دراسة الحقوق، يقرأ التَّوراة والتاريخ، يعرف الكثيرَ عنَّا وعن ديننا، ولو أن جيلاً سيخرج مثله لواجهنا أعتى السُّدود التي لا يمكننا تجاوزها؛ لذلك قرَّرتُ أن أقرأ قرآن المسلمين.

بهمس محموم نطق موصيري:

- أنت لست إنسانًا، أنت شيطان يا إيزاك.

- الشَّيطان لا يعرف اليهود، الشَّيطان مزروعٌ في المسلمين.

ما هذا الذي أقول ومن أين آتي به؟

- من الحقيقة يا سابق سنِّك.

- أي حقيقة؟

- الشَّيطان يمكن أن يكونَ مادَّةً تخوِّف بها من تريد، وتستميل من تريد.

- وهؤلاء القوم؟

- سيحتاجون إليك، وسيبذلون كلَّ ما يستطيعون لأجلك.

- أنا لم أزل يافعًا.

- هم يعلمون، ويعرفون كيف يستغلُّون هذه المرحلةَ من

حياتك.

- يستغلُّونها؟

- هيَّا يا بطلَ اليهود، ويا حلمَ هرتزل القادم.

- مآذن القاهرة وأبراج الكنائس، والأحياء والناس الذين صانوا حقوقنا؟

- من قال إنك ستُسيء لمصر؟

- فماذا يمكن أن يحدث؟

- نستغلُّها فقط لنحقِّقَ الحلم، في بادئ الأمر وآخره نحن طائفةٌ قليلة العدد إذا قيست بهم.

- أشعر برغبة عارمة أن أقضيَ الليلة مع تلك المرأة التي كانت تعرض زواجَ راؤول بسارة.

- احلم بالأميرات، بين يديك أميرات، فلا ترضَ بمن تترك فراشًا لفراشٍ آخر.

- بل أحلم بـ«رحيل».

- «رحيل» جزءٌ من الحلم النقيِّ.

- هل تسمحون لي بفِنجان قهوة؟

أشار الطنطاوي إلى ديفيد الذي قام ليطلبَ القهوة للجميع، فهدأت نفسي قليلاً، وزاد تأمُّل الحاضرين في تفاصيل وجهي،

أُدرك أنهم يتعجَّبون من طفل يفتح لهم أبوابًا كانت مغلقةً عليهم، بل ربما لم يعرفوا طريقها، هم لا يعلمون أن كلَّ كلمة كانت تقرؤها لنا سارة في الصُّحف كانت تستقرُّ في رأسي، حينها لم أكن أعلم أنا أيضًا أن السبب الحقيقيَّ في تفجير كوامني هو من قام ليطلبَ لي القهوة، والذي أهدى إليَّ الشِّطْرَنج، لم أُخبره أنني كنت أقضي وقتًا طويلاً مع قطعه أحرِّكها وتحرِّكني، وأكلِّمها وتكلِّمني، وفي كلِّ حركة يُخرج لي شاه من الشاهين لسانه، قائلاً: يا ابن الدلَّالة.

شربنا القهوةَ الثانية في جوٍّ من التأمُّلات، قطعه السيِّد الطنطاوي بأن أعلنَ للجميع أنني معيَّن من الآن (سكرتيرًا) خاصًّا له، وسيتولَّى جميع أمري، وسيوفِّر لي المكتبة وما يلزمني من معلِّمين، ويمدُّني بكلِّ جديد يجري أولاً بأول؛ لأنني ذخيرةُ الغد، وأوصى بألا يعرفَ أحدٌ بأمري إلا عندما يأمر هو بذلك.

أيَّد الحضور رأيه، ووافقوا عليه، وعرض كلٌّ منهم عليَّ خدماته، إلا أنني لم أتفوَّه بكلمة واحدة، بل كالعادة غرقتُ في الصَّمت المتأمِّل.

انفرد بي الأستاذ طنطاوي بعد أن انصرف الجميع مكرِّرًا عليَّ عرضَه، وزاد فيه أنه متكفِّل بالإنفاق عليَّ، وأنه عيَّن لي ثروةً سيُودعها أحدَ المصارف باسمي، وأنه متكفِّل بكُسوتي أيضًا في الحدود التي لا تلفت انتباهَ أهل الحارة، ويكفي أن يعلمَ من

حولي أنني أعملُ في مكتب المحامي إبراهام الطنطاوي الذي توسَّط لي عنده ديفيد.

طلب الطنطاوي أن يدخلَ علينا ديفيد، وأمره أن يصطحبَني إلى أحد المحالِّ؛ ليشتريَ لي ثلاثَ حُلَل أنيقة، وأن ينتبهَ لي جيدًا؛ لأنني من الآن معيَّن في منصب سكرتير خاص، على أن تخصَّصَ لي غرفةٌ ملاصقة لغرفته، وأطلعني على مكتبته قائلاً: من الآن هي لك، آمُل أن تلتهمَ كلَّ ما فيها.

انصرفنا من مكتب السيِّد الطنطاوي أحمل في رأسي آمالاً وأحلامًا لم أكن لأحلمَ بها إلا حين فكَّرت بعقلي الواعي في صمتي الطويل وتأمُّلاتي، ولن أكذبَ على نفسي إذا قلت: إنني سرتُ مع ديفيد لا أعرفُ الشَّوارع التي سلكناها، ولا المحالَّ التي دخلناها، ولا حتى الألوانَ التي اخترتها، كلُّ ما أعيه أنني ذهبت إلى البيت مع ديفيد، وتناولت معهم الغداء وسط ثرثرة سارة التي كادت تُجَنُّ من الفرح لكلِّ ما حدث، وهي الوحيدة التي سردتُّ عليها تفاصيلَ اليوم، ولم أكن أنا من سرد كلَّ شيء، وإنما ديفيد تولَّى السَّرد بطريقته الشائقة، حتى إنني كدتُّ أتصوَّر الحكاية عن شخص آخرَ غيري.

لم أشعر إلا بسارة توقظني مساءً، فقد نمت نومًا عميقًا على أريكة (الصالون)، وتركاني نائمًا... أنبأتني سارة - حين أيقظتني، وقدَّمت لي فِنجانًا من الشَّاي - أنني كنت أهذي في

نومي، وكلَّمت أناسًا كثيرين، ومن خلال ابتسامتها الذكيَّة سألتني عن «رحيل»، إن كنت أراها في الحارة، وبذكائي تبيَّنت أنني ذكرتُ اسمها في نومي بين من ذكرت، وآثرتُ ألا أخفيَ الأمر عن سارة، فبُحت لها بتعلُّقي بها، وبأنني أراها في أحلامي.

- أنت في مرحلة فتوَّة يا إيزاك يا حبيبي، ومن الطبيعيِّ أن تمرَّ بك هذه الخيالات.

- لكنَّني حقًّا أشتاقها، وتأتيني في الأحلام، وآخذُها إلى سحُب بعيدة، حتى إنني رأيت معها نجمةَ داود ترسم على الأرض كلِّها.

- صدِّقني، ربما لأنها أجملُ بنت في الحارة، بعدي طبعًا.

- هل الحبُّ مرتبط بالجمال؟

- في سنِّ الفتوَّة مشاعر كثيرةٌ تتداخل، حتى المتناقضات.

- فلماذا يصرُّ اليهود على تزويج البنات صغيرات؟

- هذا عُرفٌ قديم بدأ يتغيَّر مرحليًّا يا حبيبي، ثم إن البنت الآن لها قيمةٌ عند أهلها.

- «رحيل» فاتنة، وأخبرتني أن أباها سمَّاها «رحيل»؛ لأنه ينتظرُ الرحيل.

- كلُّ إنسان له فلسفته، واليهود يحلمون بالوطن الذي

وعدتهم به التَّوراة.

- أنا صرتُ شريكًا في هذا الحلم يا سارة، بل إنني أشعر أنني في مصافِّ الأنبياء.

- لا تشطَح يا إيزاك، وأكمل الشَّاي.

- بل إنني أحيانًا لا أعرف كيف تخرج منِّي العبارات.

- لأنك اختزنتَ كلَّ ما عرفت في عقلك، والربُّ يسَّر لك أن تنطِقَ بلسانه.

- الربُّ؟!

- نعم، أليس الربُّ يحبُّنا وخلقنا على صورته؟

- بلى.

- فما المانع أن يبلِّغَ رسالةً للنَّاس بلسانك دون قصد منك؟

- نصف نبيٍّ يعني؟

- يافعٌ كامل، وذكيٌّ سابق لسنِّه.

حملت أشيائي بعد أن شربتُ الشَّاي، وانطلقت إلى أمي التي كانت في انتظاري وحيدةً في البيت. . . استقبلتني بصُراخها، فقد أخبرها الجيرانُ أن رجلاً سأل عنِّي وأخذني معه، فضممتُها وقبَّلت رأسها، وبلا كلام فردتُّ لها الأشياء، فذُهلت ممَّا رأت:

- وعطر؟

- وأحذية جديدة.

كنت أضحك لأنني حتى عند سارة لم أنتبه لكلٍّ ما في اللفائف.

- من أين لك هذا؟ هل أخذت الفلوس من الحاجِّ محمد؟

قالتها وصكَّت صدرها.

- لا، لم آخذ شيئًا، اصبري وستعلمين.

- سكتنا، أخبرني.

- حصلتُ على وظيفة.

- من أين يا فالح؟

- من عند البقَّال.

وانفجرتُ ضاحكًا، في الحقيقة أنا محتاج أن أضحكَ وأقهقه، تناولت يدَي أمي، وبدأت الرقص، وهي في ذهول ممَّا يحدث، وهمُّها أن تعرف.

- أنا يا أمي عُيِّنت (سكرتيرًا) في مكتب السيِّد إبراهام الطنطاوي.

- الذي يعمل فيه زوجُ أختك؟ أحرجته يا إيزاك؟

- لا يا أمي.

- كانت الوظيفة شاغرة، فأرسل لي ديفيد؛ لأنه كلَّم أستاذه عنِّي، وخضعت لاختبار ونجحت من بين المتقدِّمين، والأستاذ أُعجب بي، وأمر لي بسُلفة أشتري بها هذه الملابس؛ كي تليقَ بالعمل في مكتبه.

بدأت تقتنع، لكنَّ هناك ما هو أهمُّ.

- وكم سيدفع لك؟

- المصروف في مرحلة الاختبار.

متعجِّبةً كأنها تريد نقضَ فهمها:

- اختبار؟ أيُّ اختبار لسكرتير؟

- تستهينين بسكرتير واحدٍ من كبار الشخصيَّات في البلاد؟

- لا أستهين ولا شيء، أول مرَّة أعرف أن موظَّفًا يعمل بالمصروف، ويا تُرى كم المصروف؟

- مئة وخمسون قرشًا.

- مئة وخمسون قرشًا مصروف؟ فكم سيكون الراتب؟

- تخيَّلي واحلُمي معي، أنا الآن موظَّف كبير سبقتُ من سنُّهم ضعف سنِّي.

- لن أطمئنَّ إلا حين أسأل ديفيد.

- سَليهِ يا أمي، وسيُخبرك بنفس ما قلت لك.

- وأين كنت طَوالَ اليوم؟

- تغذَّيت عند سارة وغَفَوت.

- تريد أن تتعشَّى؟

- أريد الفراش.

تركتها تتفحَّص الثِّياب، وتعلِّقها بعيدًا عن الأتربة... كانت الفرحة باديةً في عينيها، لكنَّها تكتمُها عنِّي حتى تستوثق.

(١١)

في الصَّباح ذهبت إلى المكتب، فوجدتُّ العمَّال رتَّبوا لي حُجرةً خاصَّة، هي صغيرة، لكنَّها ملاصقة لمكتب الأستاذ الطنطاوي وبينهما باب، فيها مكتبٌ أنيق، وكرسيٌّ مريح، ولا شيء غير هذا، تعجَّبت لها فارغةً من أيِّ شيء إضافي، ولا حتى أريكة أو مقاعد للضُّيوف! كنت في المكتب قبل ديفيد وسائر الموظَّفين، فلمَّا حضر ديفيد تعجَّب هو الآخرُ للغرفة وما فيها.

- يعني لا أستطيع أن أشربَ القهوة عندك إلا واقفًا؟

ما إن شرعتُ في الردِّ حتى دخل الأستاذ، فالتفتنا إليه في حالة انتباه، حيَّانا، ومرَّ من حُجرَتي إلى حُجرَته مناديًا إيانا لنتَّبعَه، وقد سمع سؤال ديفيد فأجاب هو: هذه صومعةٌ صباحيَّة يا ديفيد، لن يدخلَ عليه أحدٌ غيرك لتسألَهُ إن كان يريد شيئًا، وعليك أن تخبرَ الجميع هنا أن إيزاك يعمل معي فحسب.

- لكنَّ الغرفة فارغةٌ يا أستاذ.

- لن تكونَ فارغة، سينصبون فيها مكتبةً صغيرة ليضعَ فيها ما يريد من الكتب.

- لا شكَّ هذا أفضل.

- والآن هيَّا إلى عملك.

أجلسَني السيِّد الطنطاوي، وجلس وراء مكتبه، وطلب لنا القهوة، وقال:

- انتبه لي جيدًا.

- أنت لم تزل صغيرَ السنِّ، وفي حاجة إلى الرِّعاية برغم ذكائك وعبقريتك، لكن ينقصُك الكثير، ولا بدَّ أن تحصلَ عليه بكلِّ الطرق.

الإنسان فعل، وفعله محسوبٌ عليه، والتاريخ لا يرحم أحدًا، فعلينا أن نصنعَ التاريخ بما لا نترك علينا فيه أيَّ مأخذ، وقد أعجبتُ بكل ما قلتَ بالأمس، وبرؤيتك حول الأمور جميعًا، ومنها قراءتك لقرآن المسلمين، هذا الأمر الذي لا يلتفتُ إليه كثيرون من عُتاة اليهودية، لكنَّنا الآن لسنا أمام اليهودية فقط، وإنما أمام حلُم إسرائيل.

طرق السَّاعي الباب محضرًا القهوة، تركها في صمت اختلط بصمتنا وخرج، فأكمل الأستاذ وأنا في أشدِّ حالات تركيزي:

- نحن لا نعرف إلى الآن مصيرَ الحرب، وكِفَّة مَن الرابحة؟ لذلك المنظَّمة في أوربا تعمل في كلِّ الاتجاهات، وهنا في مصرَ لا أستطيع أن أجزمَ أن كلَّ اليهود تفهَّموا فكرة الصِّهيَونية، خصوصًا أنهم مستقرُّون، ولهم أعمالهم وعلاقاتهم، وعليه يجب أن يكونَ التفكير ضامنًا الاستفادة من كلِّ الحالات؛ لذلك فكلُّ دعوة تُطلَق في مصر يجب أن تتجنَّبَ إظهارَ الرغبة في الانفصال عن النسيج العام، وألا توحيَ بأننا نريد تركَ مصر أو انتزاعَ الأرض من العرب، وإنما نحن نبحث عن حقٍّ مشروع في أن يكونَ لنا وطنٌ محدَّد نتعايش فيه مع أهله في سلام.

شعرت أن السيِّد طنطاوي يريد الآن بلورةَ أفكاري وتأطيرها، وكأنه يُعدُّني إلى معركة كبرى:

- اسمع يا إيزاك، يجب أن يكونَ ما أقوله لك سرًّا لا يعلم به أحدٌ من أهلك حتى ديفيد.

- حاضر.

كانت عيناه تلمعان كأن السِّحر كلَّه اجتمع فيهما.

- لي بيتٌ في الدَّرب الأحمر، في الخيَّاميَّة تحديدًا، هو منزلٌ جميل أريد أن آخذَك إليه لتعرفَ مكانه، وسأعطيك مفاتيحه، تذهب إلى هناك بعد المكتب، وتقضي وقتك فيه بالقراءة، وسأوفِّر لك من المعلِّمين والمرشدين من يرقَون بمستواك في التاريخ والمعارف، ما رأيك؟

- وهل لي رأيٌ بعد رأيك؟

تهيَّبت الأمر في داخل نفسي، لكنَّ نبرة صوته كانت تحمل الدِّفء مع الحرص والإصرار على تحقيق أمل ما.

- إذن لا تنصرف قبلي، والآن هيَّا إلى غرفتك.

نظرت في المكتبة، ولفت انتباهي كتابٌ مزخرفٌ عنوانه: «قضايا الإنسان الملحَّة»، حملته ودخلت إلى الغرفة، وبدأت أتصفَّح الكتاب، فإذا به يلتهمُني صفحة بعد صفحة؛ ففيه قضيَّة الأمن، والوطن، والسَّعادة، والعدل، و... و... وقضايا يتفرَّع كلٌّ منها إلى قضايا عدَّة، لا أعتقد أن الإنسان يستغني عن نقاشها.

بعد انتهاء العمل في المكتب اصطحبني السيِّد طنطاوي إلى بيته بالخيَّاميَّة، الحيُّ به دكاكينُ لصناعة الخيام من قُماشها المخصوص، كدتُّ أهرب منه لأمارسَ هوايتي في تتبُّع التفاصيل الدقيقة، لكنَّه نبَّهني أننا وصلنا.

البيت مكوَّن من ثلاثة طوابق، له حديقة غنَّاء، عليها باب حديديٌّ، فتح قُفله السيِّد طنطاوي بمفتاح قائلاً: هذا مفتاحي الخاص، أما أنت فبمجرَّد أن تناديَ «اليشع» (الجنايني) سيفتح لك.

سلكنا الحديقة إلى الدرجات الرُّخاميَّة التي تُفضي إلى شُرفة

واسعة، ومنها إلى باب خشبيٍّ منحوت بيد فنَّان مبدع، فتحه السيِّد. . . البيت فخم بكلٍّ ما فيه، أخذني في جولة ابتداءً بالرَّدْهَة الكبيرة التي بها مفروشات لا أعتقد أن صناعتها مصرية، وغرفة الضِّيافة، وغرفة أخرى فيها طاولة حولها عددٌ كبير من المقاعد، يبدو أنها غرفة اجتماعات، وفي الطابق الثاني ثلاثُ غرف كلُّها للنوم، أما الطابق الثالث ففيه غرفة مكتبة واسعة جدًّا، وبها مقدارٌ ضخم من الكتب لو أن أحدًا قرأه لكان سيِّدَ العلماء، وفي منتصفها طاولةٌ مستديرة حولها عدة مقاعد، وفي إحدى زواياها (فونوغراف) أجمل من الذي عند مدام ماكلين، إلى جواره مكتبة خاصَّة بـ(الإسطوانات)، في الغرفة شُبَّاك يُطلُّ على شارع جانبي، وشُرفة بديعة تُطلُّ على الحديقة، أما الغرفةُ الأخرى فما هي إلا مَرسَمٌ فسيح، أخبرني حين فتحها أنه يحبُّ الرسم والقراءة، وأطلعني على عدَّة لوحات عليها توقيعه، لكنَّني انتبهت إلى توقيع آخر، ولم يترُكني للتساؤلات، فأخبرني أنها لوحاتُ ابنته، لم أُبدِ أيَّ فضول، وإنما خرجنا هابطَين إلى الرَّدْهَة الكبيرة، لنلقى فيها امرأةً مليحة في أوائل العِقْد الثالث تقريبًا، سُمرتها مصرية، ممشوقة القدِّ، ابتسامتها حاضرة، تلبَسُ ثوبًا ينتهي عند رُكبتَيها، ضيِّق عند الوسط يتسع بعده إلى أسفله، لونه خمريٌّ، يُضفي على بشَرتها جمالاً إضافيًّا، حين رأتنا رحَّبت بسيِّدها الذي ردَّ عليها: كيف حالك يا «فتنة»؟

- بخير يا سيِّدي.

- هل أخبركِ ليشع أننا أتينا؟

- نعم، وأتيتُ على الفَور.

- هذا السيِّد إيزاك، سيتردَّد على البيت، يعني من الآن تأتين إلى البيت من السَّاعة الواحدة وتبقَين حتى ينصرف.

- أمر جنابك.

- فتنة ستقوم على خدمتك دائمًا يا إيزاك، ليس عليك إلا أن تقضيَ الوقت في كلِّ ما هو مفيد، وأن تنفِّذَ التعليمات.

- حاضر.

ذهبت فتنة لتعدَّ لنا القهوة، وجلسنا في صمت ليس بالصَّمت، وإنما هو التفكير، أعتقد أن كلّاً منا كان يفكِّر في نفس الموضوع، لكن على طريقته، عادت فتنة تحمل القهوةَ على صينية مذهَّبة عليها فنجانان في قاعدتين ذهبيَّتين، زخرفاتهما تُبهر العين، وسألت: هل أُعدُّ الغداء سيِّدي؟

- لا، سننصرف بعد القهوة.

أطفأ (سيجاره)، وطلب أن ننصرف، مؤكِّدًا عليَّ أن أحفظَ الطريق، لم أعقِّب على كلامه؛ فأنا أحفظه بالفعل.

في طريق العودة أكَّد من جديد ألا أخبرَ أحدًا، فأنا الآن كابنه، ولا بدَّ للابن أن يطيعَ والده.

سرَّني كلامه، وبثَّ فيَّ آمالاً عريضة... «رحيل» دخلت معي البيتَ الفخم، ورأيتُها في كلِّ ركن، وعلى كلِّ فراش من فرُشه الوثيرة، ورأيتها تشرب معي القهوة، وتُداعبُني في الشُّرفة المطلَّة على الحديقة.

منذ اليوم التالي صرتُ أذهب إلى بيت الخيَّاميَّة، يستقبلني ليشع وفتنة استقبالاً حافلاً، فأجد الغداء معدًّا، صرت آكلُ أطعمةَ الأغنياء، وعند الساعة الثانية جاء عاملٌ من محالِّ (سيكوريل) يحمل صناديقَ حين فتحتها وجدتُّ فيها ملابسَ منزلية أنيقة، إن السيِّد يريد أن يدرِّبَني على عيشة القصور، لا بأس، يبدو أن هذا واجبٌ لاستقبال المرحلة القادمة.

أمضيت ساعات لا أستطيع فعلَ شيء غير التجوُّل في البيت، أفحص أدقَّ تفاصيله، حتى بعض الخدوش في الأثاث لمحتها، بل أحصيتها! وتفقَّدتُّ المكتبة التي تحوي كتبًا بالإنكليزية، وبالفرنسية، والإيطالية، والعبرية، والعربية، كتب لمؤلفينَ من العالم كلِّه، وما لم أكن أتوقَّعه أن أجدَ القرآن، وتفاسير للقرآن، وكتاب «صحيح البخاري»، و«تاريخ الطبري»، و«البداية والنهاية»، و«المعلقات»، و«ديوان الحماسة»، و«تاريخ العرب في شبه الجزيرة»، و«فتح فلسطين»، و«الحملات الصليبيَّة»، و«طبرية وحكاية صلاح الدين»، و«شوكة المماليك»، و«أنطون تشيكوف بستان الكرز»، و«أوسكار وايلد صورة دوريان

جراي»، و«برنارد شو»، و«تشارلز ديكنز: أوليفر تويست، ودافيد كوبر فيلد، وأوقات عصيبة»، و«شكسبير: هاملت، وتاجر البندقية»، و«لافونتين الخرافات»، و«باولو فن الشعر»، و«موليير: دون جوان، ومبغض الشر»، و«شاهين مكاريوس تاريخ الإسرائيليين»...

بحر من الكتب لا يمكنني حصرُه، لكنَّ تاريخ الإسرائيليِّين استوقفني؛ فهو صادر سنة ١٩٠٤ عن مطبعة جريدة «المقتطف» المصرية، الكتاب حديث ويبحث في تاريخ الإسرائيليين، ويصدر عن مطبعة مصرية، وهذا يعني أن البيئة مناسبة.

رحت أُبحر في الكتاب حتى استهلكتُ الوقت، جاءتني فتنة تسألني إن كنت انتهيتُ ممَّا أفعل، أو أنني أريد شيئًا، فانتبهت أن الليل بدأ يزحف، فأخبرتها أنني سأنصرف، فطلبت ألا أنصرفَ قبل أن تعدَّ لي عصيرًا.

صار البيت هدفي في معظم الأحيان، ففيه أحيا حياةً مميَّزة، وقد بدأ الأساتذة يتردَّدون عليَّ يلقِّنونني شتَّى فروع المعرفة... أطلعوني على تطوُّر تاريخ اليهود على مرِّ الزمن، خصوصًا في مصر، وأعطَوني الكثير من البيانات عن الجمعيَّات اليهودية التي أُسِّست في مصر، ابتداءً بـ«جمعيَّة باركوخيا» ١٨٩٧، التي رأسها «جاك هارملين» حتى عام ١٩٠١ وتبعه في رئاستها «جاك موصيري»، ولها فرعٌ في الإسكندرية باسم «الجمعيَّة

الصِّهيَونية»، و«جمعيَّة أبناء صِهيَون» للأطفال تحت سنٍّ خمسة عشر عامًا ١٩٠٣، و«جمعيَّة الأدب العبري» ١٩٠٥، و«جمعيَّة أحبَّاء صِهيَون» ١٩٠٦، و«لجنة التنسيق الصِّهيَونية» ١٩٠٩، و«جمعيَّة قديما» ١٩١٠، و«اتحاد أطفال صِهيَون» ١٩١١، و«دائرة هرتزل» ١٩١٢، أما في الإسكندرية فهناك جمعيَّات مستقلَّة، منها «هتكفاه»، و«بوعلي زيون»، و«هتسعير هتسيون».

كما عرفت عن مشروعات الاستيطان في مصر، هناك مشروع استيطان «العريش»، و«شبه جزيرة سيناء» الذي نوقش بين السيِّد هرتزل والسيِّد «جوزيف تشمبرلين» مدير المستعمرات في الحكومة البريطانية، وقد عُرض عليه استعمار العريش بدلاً من قبرص؛ كي لا تحدثَ مشكلات مع اليونان وروسيا؛ فسكَّانها من النصارى الأرثوذكس، إلا أن المشروع قوبل بالرَّفض؛ حيث اعترضت الآراء القوميَّة، وأعلن «بطرس غالي» باشا رفضَ الحكومة المصرية في بيان رسميٍّ، مع إمكان السَّماح بهجرة اليهود إلى مصر، وتقديم امتيازات لهم، على أن يكونوا رعايا مصريين. وتسبَّب هذا في زيارة السيِّد هرتزل للقاهرة في الثالث والعشرين من مارس ١٩٠٣، واستقبله جاك موصيري استقبالاً عظيمًا، أقام له فيه احتفالاً قدَّمه فيه إلى كبار أعضاء الطائفة اليهودية في القاهرة، وعلى رأسهم السيِّد «موسى قطاوي» رئيس الطائفة، واجتمع باللورد «كرومر»، وعرض عليه المشروع، بعد

لقاءاته بعدد من أعضاء الحكومة المصرية ومحاولته إقناعهم، إلا أن كرومر رفضَ المشروع رفضًا قاطعًا؛ لأنه يستهلك مقدارًا ضخمًا من ماء النيل، وليس لديهم أيُّ نيَّة للموافقة على تمرير مياه النيل تحت قناة السُّويس، وسافر السيِّد هرتزل في (أبريل) دون نتيجة.

في هذه الدروس تعلَّمت أشياء كثيرة، تصبُّ في بُوتَقَة واحدة، خليطُها الناتج أن اليهود لا يكفُّون ولا يفتُر لهم عزم لتحقيق أهدافهم، ففي العشرين من (مايو) من نفس العام وقَّعت الحكومة المصرية عقدًا مع «أرنست كاسل» و«إدجار سوارس» وشركائهما، يقضي باستصلاح الأراضي في «كوم أمبو» جنوب الوادي بامتياز مدَّته تسع وتسعون سنة، إلا أن الوطنيِّين انتبهوا للعقد وما يتحقَّق منه، فنشرت جريدة الأهرام عنوانًا: «المستعمرة الإسرائيليَّة في القطر المصري»، وكتبت تحته مقالاً يوضح ما رأته من أطماع إسرائيليَّة في مستعمرة في الأراضي المصرية تُغني الإسرائيلين عن استعمار شرق إفريقية، ويوفِّر عليهم السَّفر إلى مجاهل العالم الأسود، وانتهى الأمر إلى إلغاء المشروع.

هدأت المحاولات فترةً استطاع سياسيُّو اليهود فيها تحويلَ الرأي العامِّ المصريِّ والحكومة إلى قضايا داخليَّة تخصُّ الاستقلال وأوضاع الحكم في البلاد، إلى أن كان العام

١٩١١؛ ليخرجَ القنصل البريطانيُّ في غزَّة «إسكندر كنزوفيش» وهو يهوديٌّ بمشروعه لشراء الأراضي في «رفَح» المصرية، ونجح في شراء ما يقرُب من عشَرة آلاف (دونم)، وكان ينوي مضاعفتها لولا أن المصريين انتبهوا لما يجري، وجرى نسفُ المشروع... إن اليهود يعملون في كلِّ المضامير في وقت واحد، فيُربكون خصمَهُم الذي لا يعلنون أبدًا خصومتهم له، فلا هم المهاجمون ولا هم المدافعون في نفس الوقت.

في أثناء إقامتي في بيت الخيَّاميَّة كانت تأتيني الأخبار أولاً بأول، كما تأتيني في مكتب السيِّد الطنطاوي؛ فقد علمتُ أن المهاجرين اليهود يتدفَّقون على الإسكندرية - وأكثرُهم من فلسطين - بعد أن ضيَّقَ عليهم الوالي العثماني «جمال باشا» حين لاحظ ممارساتهم لأنشطة صِهيَونيَّة ذات خطر على الدَّولة العثمانية، حتى إنه حلَّ الكثير من المنظَّمات وعلى رأسها «الحارس»، و«هشومير»... والذي يبعث على الأسى، ويزرع الحزنَ في الأوردة أنه منع الكتابة بالعبرية على الدَّكاكين وفي الشَّوارع، ولكي يخنُقَهم أغلق المصرف الفلسطينيَّ الإنكليزي، ومما افتخروا به أنهم رفضوا التجنُّسَ بالجنسية العثمانية، ورفضوا التجنيدَ في الجيش العثماني، بينما حين بدأ توافدُهم على الإسكندرية أمر السُّلطان «حسين كامل» بمبلغ مئة جنيه يوميًّا للإنفاق عليهم.

اتفق كبار الطائفة على تشكيل الوفد الذي تلقَّى هذا الأمر، مكوَّنًا من «إدجار سوارس»، وحاخام الطائفة «ديلا بيرجولا»، والحاخام «إبراهام أبيخزير»، وبهذا الصَّدد أرسل إدجار سوارس برقيَّةَ شكر إلى رئيس الحكومة «حسين رشدي» باشا يشكره؛ لجهود الحكومة، منوِّهًا بجهود السُّلطان لدعم اليهود.

وأنشئ صندوق مساعدات عاجلة بالقاهرة، وصندوق بالإسكندرية؛ لإغاثة اليهود في فلسطين، فأرسل إدجار سوارس برقيَّةً يعلم فيها البارون «دي روتشيلد» بأمر الصُّندوق، فأرسل يشكر يهود مصر، ويخصُّ بالشكر يهود الإسكندرية؛ لما يبذلون من جهود لاستقبال المهاجرين ودعمهم، وأمر باكتتاب بمبلغ ألف جنيه.

عشت عامين من الاستمتاع بالتعلُّم، والقراءة، والتنقُّل في حيِّ الظاهر والجمالية، وشوارع المحروسة، أقضي وقتًا في المكتب، فأتعلَّم، وأتابع الأخبار من قرب، وأقضي وقتًا في البيت، فأتعلَّم وأستمتع... عامان مرَّا لم أشعر بمرورهما؛ فالحياة جميلة سهلة أنيقة، تعلَّمت إلى جانب التاريخ والفلسفة والاقتصاد الشعرَ وآدابَ العرب، وتفسيرَ القرآن، ووقفت على كلِّ العبارات التي ورد فيها ذكرُ اليهود وبني إسرائيل، قرأت تاريخَ حروب المسلمين، وتعلَّمت منهم أيضًا، فعقولهم لا يُستهان بها.

كانت إقامتي عند أمي تكاد تقتصر على النَّوم وتناول بعض الطعام معها، فتنة تقوم على خدمتي وراحتي بكلِّ ما تستطيع، لا أُنكر أن المعيشة في بيت الخيَّاميَّة ألهاني عن «رحيل»، وبدأت أُدرك أن الأحلام مراتبُ لا بدَّ أن تُرتَّبَ حسب الأهميَّة. إن ما أعجَبُ له أمر المسلمين الذين سادوا العالم ثم أضاعوا ملكهم، حتى انفصلت كلُّ قطعة من أراضيهم ليكونَ لها قضاياها وهمومها، وفي نفس الوقت أنظرُ لليهود بزَهو؛ فهم وراء كلِّ هذا، بل نجحوا في إلهائهم حتى عن أنفسهم.

(١٢)

من أجمل ما مرَّ بي في هذه المدَّة رحلتي إلى الإسكندرية مع السيِّد طنطاوي، وصل بنا القطار إلى الإسكندرية، ووصلنا إلى بيت السيِّد الطنطاوي مع الغروب. . . فتنتني الإسكندرية بمبانيها القديمة، وشوارعها الزاحفة نحو البحر، وعبَق الحضارات المجتمع في رُقعَة لا تتكرَّر على الأرض.

كنت أتمنَّى أن أركضَ لأشاهدَ البحر، لكنَّ السفر مُرهق، نمنا، غير أنني استيقظت كالعادة قبل طُلوع النهار، لم أتمالك الطفولة التي صرخت بداخلي، فركضتُ إلى البحر لأحتضنَ الشمس حين الشُّروق، ويحتضنني البحرُ بصفاء صفحته التي تلتقي مع السَّماء في بؤبؤ عين الزَّمن، ألقيت بنفسي إلى البحر، لا أعرف أيَّ شيء عن السِّباحة، فقط أسلمته نفسي غيرَ عابئ أن يأتيَ أحد، فالشاطئ العريض خالٍ من الناس تمامًا، كيف لا يعرفون الاستمتاعَ بنهار مشرق من نهارات (مارس)؟! بقيت إلى

أن ارتفعت الشمس. . . أمضَينا النَّهار في نقاشات وحوارات كأن السيِّد الطنطاوي يمتحنني فيما حصَّلت في المدَّة السابقة، كلَّ يوم أكتشف من مواهبه الجديد، عزفُه على (البيانو) يخلُبُ اللُّبَّ، وتنتشي به الرُّوح.

في المساء توجَّهنا إلى منزل السيِّد «مردخاي مرجليت» الذي استقبل السيِّد إبراهام الطنطاوي بحفاوة المشتاق. . . دخلنا إلى بيتٍ كلُّ ركن فيه منمَّق ومعتنًى به، عرَّفني السيِّد الطنطاوي به، وعرَّفه بي، موضحًا أنني (سكرتيره) الخاص، وحافظ أسراره. ابتسم لي الرجل ابتسامةً فهمت منها أنه يتعجَّب لصغر سنِّي، كنَّا أولَ من حضر، ودارت بيننا حواراتٌ عن الغرض من الاجتماع المُزمَع عقده لمناقشة تشكيل «النوطريم» الذي اقترحه «فلاديمير زئف جابوتنسكي».

سألني السيِّد طنطاوي عن رأيي، فأبديت الإعجابَ بالفكرة، مبيِّنًا السبب؛ فإن تكوين «نوطريم» مفيد من عدَّة جوانب؛ أولها وأهمُّها أنه سيُنشأ تحت عين الحكومة، وهذا اعترافٌ بحقِّنا أن نكوِّنَ فرقًا عسكرية، والآخر أن يشعرَ اليهود في مصرَ أن بإمكانهم تشكيلَ نظام خاصٍّ بهم، إنه تمهيدٌ فعليٌّ لإقامة دولة.

ابتسم السيِّد مردخاي هازًّا رأسه بإعجاب، ثم قام يقدِّم لنا كؤوسَ النبيذ الفاخر. . . وصل شابَّان تنطِقُ فيهما القوَّة والإصرار يدقَّان الأرض بقدميهما؛ ثقةً وفتوَّة، وتولَّى السيِّد مردخاي

التعريف:

السيِّد «فلاديمير جابوتنسكي»، السيِّد «جوزيف ترومبلدور». . . أما جابوتنسكي فصحفيٌّ يمتلك كلَّ مقوِّمات القيادة، إلا أنه حادُّ الطبع، ملامحه تفضح أنه لا ينام إلا قليلاً، وأما ترومبلدور فهو ضابط روسيٌّ متقاعد، واثق، هادئ الطبع، ملامحه تخبر بأنه وزيره الأول.

سألني جابوتنسكي عن اهتماماتي فأجبتُه:

- كلُّ شيء.

- هل هناك مساحة تعني كلَّ شيء؟

- حين يكون عقلك قادرًا على أن يبنيَ لك كلَّ ما لا تتوقَّعه.

- تعرف لغات؟

- العربية والعبرية، والإنكليزية والفرنسية، وأتعلَّم حاليًا اليونانية.

- ماذا يعني الوطن؟

- أن تبنيَهُ في عقلك، ثم يبنيَك في ذاكرته.

- عمرك؟

- منذ خرج إبراهيم إلى البادية الواسعة التي وعده الربُّ أن تكونَ له ولأبنائه من بعده.

- هل دائمًا إجاباتك مختصرة؟

ضحك السيِّد طنطاوي ملء صدره قائلاً: نفس السُّؤال الذي وجَّهته إليه في أول لقاء بيننا، هو مثلك «زئف»، عقله سابقٌ سنَّه، وجَّه لي الكلام موضحًا أن جابوتنسكي يبلغ من العمر خمسةً وثلاثين عامًا.

صمت بملامحه الجامدة، وتتابع الأعضاء متتالين، شربوا كأسَ نبيذ، أما أنا فكنت اكتفيت... تقدَّمَنا السيِّد مردخاي إلى غرفة فسيحة، تتوسَّطها طاولة طويلة حولها عددٌ كبير من المقاعد، أشار للجميع بالجلوس، فجلسوا على الجانبين، جلستُ أنا على رأس الطاولة المواجه للسيِّد مردخاي الذي وقف يتلو أسماء الحاضرين مُرحِّبًا ومعلنًا بداية الاجتماع، مشيرًا إلى السيِّد الطنطاوي الذي اتخذ مكانه على أريكة في زاوية الغرفة، موضحًا أنه ضيفُ شرف ومراقب غير رسمي، وأشار أنني سأسجِّل محضرَ الاجتماع؛ لجمال خطِّي، ومهارتي في استعمال الأقلام، وقد تقرَّر أن يُكتبَ المحضر بالإنكليزية.

بدأ جابوتنسكي بعرض فكرته على الحاضرين ومسوِّغاتها، فالنوطريم فرقة تبدأ عملها لحفظ الأمن بين اليهود في أرض الإيواء بـ«القباري» بعد أن نَشِبَت الخلافات بين «الأشكينازيم» و«السفارديم»، وفي حال الاتفاق تكون الفرصة سانحةً لإخراج تصوُّر لتشكيل قوَّة عسكرية خاصَّة، تعمل إلى جانب بريطانيا،

وفي نفس الوقت سيشغل تكوينُ هذه الفرقة اليهودَ في معسكر الإيواء؛ منعًا للاحتكاك.

أبدى الحاضرون آراءهم في الفكرة والغرض منها، والأغلبيَّة وافقت على ما تقدَّم به جابوتنسكي، وكتبتُ المحضر:

تفاصيل الاجتماع الذي عُقد في يوم ٢٧ (مارس) ١٩١٥

في قصر السيِّد «مردخاي مرجليت» بالإسكندرية

الحاضرون:

«مرجليت»، «جابوتنسكي»، «ليبفنسون»، «زئف جلوسكين»، «جرو دسكي»، دكتور «فايتس»، «أطا طنيجر»، «هراري قابلين»، «ترومبلدور».

وبحث الحاضرون موضوع تشكيل كتيبة من المتطوِّعين العبريِّين بالإسكندرية من مغتربي فلسطين، تضع نفسها تحت إمرة حكومة إنكلترا، والاشتراك في الدِّفاع عن أرض إسرائيل (فلسطين).

وقد نال هذا المشروع رضا الجميع؛ ولكنَّهم أعربوا عن شكِّهم في أن يجدوا بين المغتربين عددًا كافيًا من هؤلاء المتطوِّعين.

وقد أوضح السيِّد قابلين الخطرَ المحدق، المترتِّب على هذا الأمر للمقيمين في أوربا.

وذكر الدكتور فايتس أنه يجب تجميع كتيبة (فيلق) متطوِّعين من جميع مغتربي العالم؛ لعمل الدِّعاية في جميع أنحاء العالم، وعدم الاكتفاء بمغتربي فلسطين فقط.

وعرضوا المسألة للبحث، وعند الاقتراع صوَّت بالموافقة كلٌّ من السادة: أطا طنيجر، جلوسكين، جابوتنسكي، مرجليت، ترومبلدور.

وصوَّت بالرَّفض السادة: فايتس، ليفنسون، قابلن.

ولم يُبد السيِّد جروديسكي رأيه.

وتقرَّر تشكيل كتيبة متطوِّعين من مغتربي فلسطين، على أن تكونَ تحت إمرة إنكلترا، والاشتراك في الدِّفاع عن أوربا، وقد اختير كلٌّ من السادة: جلوسكين، جابوتنسكي، ترومبلدور لرئاسة اللجنة التأسيسيَّة للكتيبة بصفة مؤقَّتة.

التوقيعات.

بعد ثلاثة أيام استقبلنا في بيت الخيَّاميَّة اللجنةَ التأسيسيَّة المؤقَّتة، وأجمل ما في الأمر أنني كنت أتعامل على أن البيت بيتي؛ أُرشدهم إلى أماكن نومهم، أوجِّهُهم إلى حيثُ يريدون، كانت السهرة مزيجًا من التوقُّعات والتصوُّرات وفرضيَّات قَبول الحكومة البريطانية، أو رفضها لفكرة الفيلق... الشيوعية شغلت

حيِّزًا من الحديث بما عرضه ترومبلدور عن استعداد العالم للتغيُّر، وتشكيل خريطة جديدة له لا ينبغي لليهود أن يكونوا بعيدين عنها.

كانت هذه هي المرَّة الأولى التي أرى فيها الجنرال «ماكسويل» قائد القوَّات البريطانية في مصر، حين توجَّهنا إليه ومعنا السيِّد ألبرت موصيري. أبدى ماكسويل ترحيبًا بالسيِّد الطنطاوي ومازحه متسائلاً: لماذا لم تحصل على لقب (بك) إلى الآن سيِّد طنطاوي، مع أنك تجاوزت الأربعين، وشهرتك واسعة، وعلاقاتك ممتدَّة إلى القصر؟ إلا أن السيِّد طنطاوي حوَّل الكلام من المُزاح إلى الجدِّ، طالبًا إلى جابوتنسكي أن يعرضَ الموضوع على الجنرال، قام جابوتنسكي مادًّا المحضرَ إليه، وبعد أن نظر فيه تأمَّل الحاضرين من خلال الكأس التي يشربها، ضاحكًا ضحكةً عريضة.

- تريدون تكوينَ جيش.

- نشارك جيشَ جلالة الملك.

نفهم... أقترح أن تتشكَّل من فرقتك فرقةٌ لنقل البغال لمساعدة البريطانيين في قتالهم بشبه جزيرة «جاليبولي»، وسأعيِّن لهم العقيد «جون هنري باتيرسون» مدرِّبًا؛ فهو قارئٌ للتَّوراة والتلمود، ومهتمٌّ بتاريخ اليهود... ضحك مرَّة أخرى معقِّبًا: هو الوحيد الذي سيعرف كيف يتعامل معكم.

احتجَّ جابوتنسكي لما عدَّه إهانةً لليهود بتكوين لواء «الحمير»، وقبل أن يثورَ ماكسويل غيَّر الموضوعَ السيِّد ألبرت موصيري إلى حديث عن وضع الجيشَين المصريِّ والإنكليزيِّ، فردَّ عليه: الجيش المصريُّ جزء من جيش بريطانيا؛ لأن مصر تحت الحماية، ثم إنني أعجَبُ لأمر المصريين، حين علموا بالحماية هلَّلوا؛ لأنهم سيتخلَّصون من الحُكم العثماني، ولمَّا وصل السِّير «مكماهون» قال «سعد زغلول»: الآن يمكننا أن نستبشرَ الخير. ولكنَّهم الآن يعترضون على سلوك الإنكليز في مصر، ألم يكونوا معجبين؟ على المعجَب أن يتحمَّلَ بعضَ ما يرضيه، وكلَّ ما لا يرضيه، العشق فتنة.

بينما يدور هذا الحديثُ انتحيت بجابوتنسكي جانبًا:

- لا يحسُن بك أن تعترض، المهمُّ أن نثبتَ أن لنا فرقةً في الجيش، نحقِّق بها هدفين غير ما اتفقنا عليه؛ الأول: إذا أكرمها البريطانيون مجَّدنا بريطانيا، ونلنا بذلك الأكثر. والآخر: إذا أسيئت معاملتُها تعالت النِّداءات بأن إنكلترا تستضعف اليهود، وتُهدِر حقوقهم، وبذلك نكون قد ورَّطناها أمام العالم.

مدَّ يده لي مصافحًا، وانتهى الاجتماع بإقرار ما اقترحه الجنرال ماكسويل.

أوصلنا السادةَ الثلاثة إلى محطَّة القطار للسَّفر إلى الإسكندرية.

في مساء الخامسَ عشرَ من (إبريل) ١٩١٥ وصلت برقيَّة إلى السيِّد طنطاوي من الحاخام الأكبر لثُغر الإسكندرية «ديلا برجولا» بأن فرقة (البغالة) سافرت صباح اليوم في طريقها إلى شبه جزيرة «جاليبولي»، وقد انضمَّ لها من أبناء أغنياء يهود الإسكندرية «إفرايم» و«كلود رولو».

رفضُ اللجنة المركزية الصِّهيَونيَّة طلبَ ليون كاسترو انضمامَ الجمعيَّة الصِّهيَونية بمصر، جعله يكثِّف نشاطاته ويسعى في كلِّ اتجاه، ويعقد لقاءات مع كبار شخصيَّات اليهود بمصر؛ فاللجنة رفضت التعامل مع أيِّ جمعيَّات مصرية، فلا يليق بوضع مصر وموقعها أن تتعاملَ من خلال جمعيَّات صغيرة، والآن تطالبه لجنة العمل الصِّهيَونيَّة بـ«كوبنهاجن» أن يسعى لضمِّ كلِّ الجمعيَّات واللجان الإسرائيلية في مصرَ في كِيان واحد.

- لدينا اجتماع مهمٌّ اليوم يا إيزاك.

- أين يا سعادة البك؟

- في شعار هشمايم.

تعجَّبت لهذا الأمر.

- وما الحدثُ الخطير الذي يدعو لهذا؟

- السيِّد كاسترو يدعو إلى عقد اجتماع للقوى الصِّهيَونيَّة

جميعًا.

- ربما يريد توحيدهم كما طلبت منه لجنة العمل.

- ما يعجبني فيك حفظك لكلِّ ما تعرف في هذا الرأس الصغير.

تأنَّقت جدًّا، وتوجَّهت إلى «السيناجوج»، كنت أريد أن أجمعَ القاهرة كلَّها في عينيَّ، وصلت إلى شارع سليمان باشا، وهناك أحببت أن أترجَّلَ ناظرًا في كلِّ ما حولي في هذه المدينة التي تُشعرك أشجارها، وألوان ناسها، وطُرُز مبانيها بأنها حُزَم لونيَّة، تشكَّلت في لوحة لا يمكنك أن تميزَ كلَّ تفاصيلها منفردة... أحمل في قلبي طبولاً تستعدُّ لأن تُقرَعَ مع بداية الاجتماع الأهمِّ في اعتقادي، وتقتحم التَّوراة ذهني لأجدَ بني إسرائيل لا يجتمعون إلا على رجل يجمع ظاهرَهُم، وهو عالمٌ ببواطنهم، كلٌّ قوم بما هم فيه فرحون.

دخلت لأول مرَّة بابَ السَّماء أتأمَّل جُدرانه المرتفعة، ونوافذه الطويلة، والنُّقوش البارزة والمحفورة فيه، لم أكن أريد الدخول إلى جوفه قبل أن ألتقطَ إلى عقلي كلَّ دقائقه، في الداخل كان القوم قد اجتمعوا، لا يؤدُّون صلاة، وإنما كلُّ واحد متسلِّم أذنَ آخر، يسكب فيها، ثم يتبادلان الدَّور، واضعًا يده على كتفَيَّ همس الطنطاوي بك:

- تتمنَّى أن تصلَ إلى السَّماء؟

- وأن أطرقَ أبوابها، وأن يقامَ الهيكل.

- لماذا؟

- هذه الوجوه لا تريد من الدِّين إلا الهيكل يجمع شَتات الفقراء، فبهم تُبنى الدِّيار، الأثرياء تيجانٌ على قصور تُبنى بالفقراء، يا سيِّدي.

- هنا عِليَة القوم، انتبه.

- واضح من سَمتِهم.

أخذني من يدي وكأنني طفلٌ سيؤدِّي صلاةً للربِّ أول مرَّة.

- أو ربما تكون أولَ من يُهرق على المذبح.

- بل أبني المذبح.

- أنسيت؟

- تذكَّرت، المذبح لا يُبنى، يريده الربُّ من صخور الأرض.

- قبل موت سليمان دخلت «عشتاروت» الهيكل.

- عشتاروت، وآلهة النُّور والظَّلام، و«أفروديت»، و«هرقل»، وحيَّة الفرعون... ربما أنت من سيدخله حاملاً ثعبان موسى.

- الهمس تحوَّل كلامًا.

في بعض الأوقات تحوِّلك الرَّهبة إلى طاقة لا حدودَ لها.

- «موسى يعقوب قطاوي» رئيس الطائفة، «جاك موصيري»،

«حاييم ناحوم»، «إدجر سوارس»، «مراد فرج ليشع»، «يوسف قطاوي»، «سلفاتور سيكوريل»، «جاك جوهر»، «ألبرت حاييم»، «موريس جاتينيو»، «سالمون مورينو سيكوريل»، «يوسف بتشوتو»، «ليون قطاوي»، «أسيلي صقلي»، «موريس أشكينازي»، «ألبرت موصيري»، «ليون كاسترو»، لا أريد أن أقدِّمَك لهم، بل أريد أن يتقدَّموا هم لك يا إيزاك.

سَكينةٌ نزلت على نفسي وأنا أنظر في وجوه أصحاب الأسماء التي التصق كلُّ اسم بصورة صاحبه في ذهني، وإن كانوا هم لم ينتبهوا لي، اقترب منَّا مراد فرج ليشع مع ليون كاسترو يرحِّبان بطنطاوي بك، واستقبلني كاسترو بحفاوة كأنني من الفاتحين، اجتذبني من الطنطاوي شاقًّا بي الصُّفوفَ إلى الأمام، ستبدأ مراسم الاجتماع؛ رجال دين، رجال مال، رجال سياسة، رجال فكر، هل سيجتمع هؤلاء اجتماعًا ناجحًا مع كلِّ ما بينهم من تناقضات؟!

خلف طاولة الوعظ الكبرى جلس موسى قطاوي رئيس الطائفة، وعلى يمينه جاك موصيري رئيس المنظَّمة الصِّهيَونيَّة بمصر، وإلى يساره ليون كاسترو.

افتتح موسى قطاوي الجلسةَ بوجه متجهِّم، همس إليَّ الطنطاوي بك بأنه مُستاء من بعض الحاضرين الذين يجتهدون لتنحيته عن رئاسة الطائفة، مبتسمًا من تحت حاجبيه الكثيفين:

حلمٌ بعيد ما دام يوسف يتدرَّج في المجالس وفي الجمعيَّة التشريعية، وعلاقاته في القصر، وبتولِّي «فؤاد» بعد موت أبيه ستتطوَّر الأمور أكثر.

- ألا تلاحظ معاليك أنها جرأة أن يُقامَ هذا الاجتماع، ولمَّا يمضِ على موت السُّلطان «حسين» أسبوعان؟

- ألم أقل لك هناك أمورٌ نتَّفق معًا على أن ترك نقاشها أفضل؟

انتقل الحديث إلى جاك موصيري، رجل يبدو في ملامحه الدَّهاء ناطقًا، وصوته المنبعث من هدوئه يوحي إليك أنه رجلٌ لا يعطيك ما تريد إلا حين يرغب، أثنى على يهود مصرَ أجمعين، وأبان عن امتنانه لكلِّ من حضر هذا الاجتماع التاريخيَّ الذي ينبغي ألا ينتهيَ إلا وقد أُزيلت كلُّ الضَّغائن، وأن نعاهدَ الربَّ لأجل إسرائيل.

انتقلت الكلمة إلى السيِّد ليون كاسترو الذي أشعرني أنه صنع من عينيه حضنًا فسيحًا، يجمع فيه الحشدَ المؤتمرين لرُؤاه التي جاء يحملها لهم، افتتح حواره بالتحيَّة وشكر الرب؛ الربُّ حضر فيه الآن، إسرائيل التي يتمنَّاها حاضرةٌ في شفتيه المنفرجتين عن ابتسام مَشوب بالحذر... بيَّنَ الأسباب التي حدَتْه لعقد هذا الاجتماع، وأنه متفائل لحضور وجوه الإسرائيليِّين للاستماع له، آملاً أن يستجيبوا لمطلبه.

قلبي كان يخفق مع كلامه، أخشى أن يحدُثَ ما لا تُحمَد عقباه، المفاجأة تحقَّقت، لقد رفع جميع الحاضرين أيديهم موافقةً على عرضه بإعلان «هستدروت هتسوينت بمتصريم» (الاتحاد الصِّهيَوني بمصر) الذي يضمُّ كلَّ الجمعيَّات واللجان الإسرائيليَّة في مصر، وقف يصفِّق، فانهمرت موجةٌ من التصفيق في المكان، الجميع يصفِّق لإسرائيل.

قام الطنطاويُّ بك معلنًا اعتبار هذا الاجتماع في هذا اليوم الثامن عشر من (أكتوبر) ١٩١٧ البداية الفعليَّة لإسرائيل في بوَّابتها الحقيقية، ثم قدَّمني لإلقاء كلمة عن شباب الطوائف اليهودية، تخشَّبتُ في مكاني؛ لا أعرف ماذا أفعل؟ وماذا أقول أمام الذين يسوسون هذا البلدَ من مكاتبهم وقصورهم؟! التصفيق انقطع، ويجب ألا أتأخَّرَ أكثر، المسافة إلى المنصَّة تعادل المسافةَ إلى أورشليم، وسأقطعها.

- أيها السَّادة الكرام، بين حدائق صمتي زرعتُ أشجارَ القدس بعد أن كانت صحراءَ جرداء، رعيتُ الأغنام في بِيدها، وفي القدس جاءني سليمانُ غاضبًا لزوال الهيكل، وسألني الربُّ عن الأضاحي والبَخور والشِّواء، وإني أرى حُلُمي الآن في عيون الشُّيوخ والشَّباب من الحاضرين، واسمحوا لي أن أتكلَّمَ فيكم باللغة العربية.

رأيت الدَّهشة على الوجوه.. قام «سلفاتور سيكوريل» عن

مقعده مقتربًا منِّي يترجم إلى الفرنسية.

- أرى الدَّهشةَ في وجوهكم، لكنَّني قرأت قولاً لمحمد وجَّهه لقومه: «مَن علمَ لغةَ قوم أمِنَ مكرَهُم»، وفي موقف سألني أحد المسلمين: بأيِّ لغة تفكِّر؟ حينها تعلَّمت أن أفكِّرَ بلغة الآخَر؛ لأفهمَ فكره قبل أن أفهمَ قوله، ولأنني أكلِّمُكم بها الآنَ أوجِّه لكم نداءً أن تتعلَّموا جميعًا اللغة العربية؛ لأننا نؤسِّسُ للوطن في مصر، ونبنيه في فلسطين، فاقتربوا، وادفعوا أبناءكم إلى الاقتراب من العرب في كلِّ مكان.

رأيت الإعجاب في عيني يوسف أصلان قطاوي حين برم شاربه بثقة، أما طنطاوي وكاسترو فكادا يطيران.

- أيها السَّادة، اليوم تلتقي الجمعيَّات واللجان تحت مظلَّة الاتحاد لأجل إسرائيل، ولأجل إسرائيل نحن جميعًا في هذا «السيناجوج»، لسنا من بلد واحد إذا رجعنا إلى الأصول، في حين كان بنو إسرائيلَ من رجل واحد، تعدَّدت بطون أمهاتهم، ولا بأسَ من بعض الخلافات التي تنشَبُ، فهذه إرادة الربِّ منذ بلبل الألسنةَ في «بابل»، وإننا أحوجُ ما نكون إلى إزالة ما يفرِّق أمرنا، فإذا حدث بقيت إسرائيل حلمًا بعيدًا، وإذا أقيمت والخلافات قائمة، فستُعاني مهما تضخَّمت، وشتَّان بين النموِّ والتضخُّم!

الحرب الآن تغيِّر وجه العالم، وعلينا أن نجمعَ تاريخنا أو

نرسُمَه، أو نغتصبَه إذا اضطررنا، فما يجعل بلدًا مثل مصر، أو العراق، أو الهند، أو اليونان باقيةً برغم كلِّ المشكلات إنما هو التاريخُ الملموس، وتاريخنا في التَّوراة حكاياتٌ بدأت الشُّعوب تفهمها، ونحن السبب؛ لأنكم في أوربا طوَّرتم العلم، نعم، أوربا تسبق في المادَّة، لكن نسينا أنهم رأوا روايات التَّوراة، ونبشوا في التاريخ الذي هو فيها، فأدركوا أن تاريخنا رواياتٌ مُحكَمة، لكن أين الملموس كالأهرام، والمسلَّات، والمعابد، والنهر؟ فلنبدأ في إيجاد دورنا في كلِّ هذا، وهذه فرصة الشَّباب؛ ليُقيموا وطنهم، موجدين آلافَ المداخل لأجدادهم في كلِّ الحضارات.

البدايات صعبة، بيدَ أننا اليوم في قلب الحدث العظيم، خرج بنو إسرائيلَ مع موسى من مصر إلى فلسطين، ومن مصرَ نخرج إلى إسرائيل، كان موسى طريدًا، أفلا نتعلَّم؟ لن نخرجَ مطرودين إذا جعلنا المصريين دون أن يشعروا يُسلِّموننا مفاتيحَ القدس، تاركين فيهم ما لا يتيح رجعةً؛ لأننا لن نكونَ بين ظَهرانَيهم، وإنما في عقولهم وبيوتهم، ويورِّثوننا لأبنائهم من بعدهم.

أيها السَّادة، هي إسرائيل الدَّولة والمصير قبل كلِّ شيء، ولا بدَّ أن نسودَ العبيدَ كما وعد الربُّ، فكلُّ من في الأرض عبيدٌ لليهود.

لا أكاد أسمع غيرَ التصفيق، وصوتٌ يناديني وأنا بين يدي

«سلفاتور» الذي احتضنني بقوَّة، عمره يقارب عمري، واجتذبني الطنطاوي وكاسترو من بين يديه؛ لأجدَ عشرات الأيدي تصافحني بحفاوة؛ كأنَّني فتحتُ لهم أبواب القدس، ولم يبقَ إلا أن يحملوا ابن القمَّاش والدلَّالة على رؤوسهم!

الآن فهمت ما لا يجب أن يغيبَ عنِّي: إذا أردتَّ أن تهدمَ أمة، فاهدم طموحَ شبابها، وأكثر من مُلهِيات أطفالها، وعلِّم رجالها الكسل، ووفِّر لشيوخها العُزلة.

أعلن السيِّد كاسترو على الملأ أنني معيَّن من الآن في وظيفة المرشد العام للاتحاد، تصفيق الموافقة يهدر، لكنَّ الاسم لم يعجبني، لا بأسَ من الصمت الآن.

اتفق الحاضرون على أن يُرسلوا برقيَّة إلى الدكتور «حاييم وايزمان» رئيس لجنة لندن وعضو اللجنة المركزية للمنظَّمة الصِّهيَونيَّة، يخبرونه فيها بتكوين الاتحاد، وبتأييد خطواته لتأمين إصدار تأييد دوليٍّ للوطن القومي.

شارع (أبو السباع جيد) اقتراحٌ من الطنطاوي بك لمقرِّ الاتحاد، وأيَّده الجميع على ذلك، سيكون مقرُّ الاتحاد قريبًا من مقرِّ عملي، واقترح البعض فرعًا في الإسكندرية، وكانت الموافقة.

(١٣)

ولَدت سارة مولودها الأول، ووجَّه ديفيد دعوة إلى الطنطاوي بك لحضور «بريت ميلاه»، فقَبِل بحفاوة وسعادة، آمرًا بثلاثة جنيهات تزاد إلى راتب ديفيد.

وصلتُ إلى شقَّة سارة مساء اليوم الثامن من ميلاد وليدها، وفتح ديفيد الباب، إنها «رحيل» عند باب الشُّرفة ترتِّب زجاجات النبيذ في المكان المخصَّص لها، اقتربت منها، التفتت، فمٌ ارتسمت عليه ابتسامةٌ بلون الفرَح في وجه وردُه بلون الشُّروق، لم تنطِق ولم أتكلَّم، صمتٌ امتلأ بالحكايات، انتبهت لطرَقات على الباب، من فوق كتفَي ديفيد تطلُّ فتاة ممشوقة لم أرَها من قبل، السيِّد طنطاوي يدخل خلفها، اقترب، وبينما يعرِّفها بي قاطعته قائلةً:

- السيِّد «كمَّاش».

ضحك الجميع من إبدالها للحروف، فبدت عليها علاماتُ

الإحراج، تداركت الموقف بمزحة:

- كمَّاش يا جماعة من (كمَشَ) على كلام الشُّوام، فأنا كمَّاش.

مددتُّ يدي لأصافحها، فطبعت قبلةً على خدِّي الأيسر لم أشعر خلالها إلا أني غارقٌ في جحيم عطر اجتمعت فيه كلُّ العطور، مع صوتها الذي تعرَّف به نفسها:

- «طيبة».

توالى كلُّ الحضور: «صمويل إسرائيل» وحرمه «يهوديت»، السيِّد «ألبير موصيري» وزوجته «ماتيلدا»، وبدأت طقوس الاحتفال فقُدِّمت الهدايا، وتناقل الجميع المولودَ بين أيديهم، وأهدته أمي لحافًا مزخرفًا من حرير محشوٍّ بقطن فاخر، أُعدَّ للمولود خصِّيصى، مدام ماكلين قدَّمت له ملابس، وعزرا قدَّم له خاتمًا ذهبيًّا على سطحه مساحة مصقولة، أما الطنطاوي بك فقدَّم قلادةً ذهبيَّة لسارة، وأهدت ابنتُه إلى المولود خاتمًا ذهبيًّا، وأما أنا فأهديت له قلادةً حُفرَت فيها نجمة داود، مكتوب في قلبها: «لا تنظر خلفك إلا لتتيقَّن أنك في الطَّريق الصحيح»، واستقرَّت الآراء على أن يسمَّى المولود «بنيامين»، وعلى الفور أخرج عزرا أدوات من حقيبة صغيرة، وبمهارة نقش الاسمَ في السَّطح الأملس من الخاتم بخطٍّ عبريٍّ بديع.

بعد العشاء أدخلت أمي ومدام ماكلين المولودَ الجميل إلى

غرفة سارة، في حين جلسنا نتجاذب أطرافَ الحديث مع كؤوس النبيذ.

جائلاً بنظره السيِّد موصيري في وجوه الحاضرين:

- الهزائم المتتالية لفرقة البغَّالة تركت آثارًا سيِّئة في نفوس اليهود.

رددتُ عليه:

- هي تجرِبة لا يمكن أن نهدرَها، فهذه ليست هزيمة، وإنما هي المحفِّزُ لليهود أن يحقِّقوا لهم مكانةً عسكرية.

نافثًا دُخانَ (سيجاره)، تكلَّم طنطاوي بك:

- «جابوتنسكي» يطوف أوروبا مستحثًّا اليهود على تكوين فرقة تكون أفضلَ تدريبًا؛ لتحُلَّ محلَّ فرقة البغَّالة، وقد أخبرني السيِّد ليون كاسترو أن الدكتور حاييم وايزمان يبذل جهودًا كثيرة لصالح إسرائيل، وستنجح كما نجحت من قبلُ جهوده في روسيا، وتدفَّق اليهود إلى فلسطين والدُّول المحيطة.

تدخَّلت في الحديث:

- الوضع في مصر مناسبٌ جدًّا لأن نبدأ خطوات لتجميع اليهود على اختلاف توجُّهاتهم ومشاربهم، فالوطن الذي نحلم به لا يمكن أن يقومَ ما دام هناك تمييز بين سفارديم وأشكينازيم، وقرائين وربانيين، وإنما الدُّول تقوم على سياسة،

وجيش، ومال، وكثير من الكذب.

نظرت في وجهي يهوديت:

- كما سمعت عنك، سابق لسنِّك، لكنَّ الكِيان يقوم على مال، وكذب، ونساء، وقانون.

التفتت إليها طيبة:

- المسلمون كوَّنوا إمبراطوريتهم بدين، ورجال، وصدق، وتسامح.

ضحكت يهوديت:

- وانهدمت بالنساء، التاريخ لا يذكر الكثيرَ إلا لمن يبحثون في خباياه، هم أولُ من اكتشف استعمالات البارود، فصنعوا منه القنابلَ منذ مئات السِّنين، واسألي أيامهم في الأندلس حين زلزلوا الأرض تحت أقدام الإنكليز والفرنسيين، الآن أوربا تُطلق طائراتها وبنادقها، واسألي جواري القصور كم يهوديةً كانت فيها؟ الوطن لا يعترف إلا بأن يكونَ موجودًا.

رددتُ عليها:

- ليس من الضَّروريِّ أن نجعلَ المسلمين محورَ موضوعاتنا، وإنما العرب؛ لأنهم من مسلمين ونصارى.

ثم وجَّهت كلامي إلى صمويل:

- الصَّحافة لا بدَّ أن يكونَ لها أثر؛ فالفرصة مواتيةٌ لإثارة

الخلاف بشأن سُفور المرأة، ولا ينبغي أن تكونَ موضوعاتكم موجَّهةً إلى المصريين، وجِّهوا الحديث والنداء لليهوديات؛ ليأخُذنَ مكانهنَّ في المجتمع، ويؤدِّين دورَهُنَّ في تخليص مصرَ مما تعانيه، وأُراهن أن المصريين سيسبقونكم إلى مقالات يدعون فيها المرأةَ المصرية إلى الخروج من بيتها، ومشاركة الرجل في الشَّارع، فشعب فيه صراعٌ بين القومية العربية، والقومية المصرية، والوَحدة الإسلامية، والشِّعارات الدينية، والاحتلال، والشُّيوعية التي تسرَّبت، وأتى بها اليهود من روسيا، وتأصَّلت بنجاح «فلاديمير لينين» منذ أيام، هذا الشَّعب يبحث عن أيِّ طريق للخلاص، لكن هل في واحد من هذه الطرق الخلاص؟!

قفزت «رحيل» من مكانها:

- أين أبي ليسمعَ ما تقول يا إيزاك!

وضعت يهوديت يدها على ظهرها مربِّتةً:

- يبدو أن كلام إيزاك يبهر الحاضرين والغائبين.

قام الطنطاوي بك واقفًا، مشيرًا إلى أن الوقت قد تأخَّر، فعزمنا على الانصراف، وأمام باب البيت تصافحنا جميعًا على وعدٍ باللقاءات.

أوصلنا «رحيل» إلى بيتها، وصَعِدتُ مع أمي إلى شقَّتنا، كان رأسي يبحث عن الوسادة، لكنَّ أمي باغتتني:

- صارت النساء والفتيات يُعجَبن بك يا إيزاك، احذَر منهنَّ.

- ليس البنات والنساء، بل الكلُّ.

- أريدك في أمر مهم.

- ألا يؤجَّل؟

- فقط اسمعني.

- تفضَّلي.

- المبلغ الذي عند الحاجِّ محمد محمود.

- ما به؟

- ما رأيك أن نسحبَه من عنده؟ فالتجارة هذه الأيام كاسدة، وأرى أن ثمان مئة وتسعين جنيهًا مع مبلغ نقترضه يمكِّننا من فتح معرِض للمَصوغات، يديره أخوك عزرا.

- الناس لا يشترون أقمشةً ولا ثيابًا، فهل يشترون ذهبًا؟

- حين يكون الزُّبُن من معارفك لن يشتروا ذهبًا فقط، وإنما الجواهر الثمينة، ولعلمك اتفقت مع مدام يهوديت ومدام ماتيلدا على أن يصوغَ لهما عزرا طقمَين ذهبيَّين، وسيعطيني عزرا عمولةً لهذا الاتفاق.

ويحَ أمي! لقد بدأت تستغلُّ كلَّ ما حولها، تفكِّر الآن في أن نمتلكَ معرِضًا للجواهر، وربما غدًا تشارك «سيكوريل»، أو ربما تشارك «موصيري» في شركة كبرى، يا للسُّخرية!

- سأقترح عليك ما هو أفضل.

- قل يا شهبندر التجَّار.

- يهوديت وماتيلدا ستجلبان زُبُنًا كثيرين من الرجال والنساء لعزرا، حتى يشتهرَ بين العائلات الرَّاقية، فإذا انتهت الحرب كان لدينا رأسُ المال والشُّهرة لنفتتحَ معرِضًا للجواهر، وليس للمَصوغات الذهبيَّة فقط.

صمتت بُرهَة، ثم بدت على وجهها ملامحُ الرِّضا.

دخلت إلى غرفتي، وألقيت بجسدي على الفراش؛ لأقضيَ ليلةً من الأرَق، فمرَّة أستيقظ وقد أخذتني «رحيل» إلى السُّحُب البعيدة، نرى إسرائيلَ هي العالَمَ كلَّه، ومرَّة أخرى تأخذني عطور طيبة إلى الألوان والعقل، ومرَّة أستيقظ وقد أنهكت يهوديت قواي، قضيت ليلةً بين النشوة والتعب، دخلت أمي لتوقظَني وكان لا بدَّ أن أطلبَ منها أن تسخِّنَ لي الماء؛ لأستحمَّ، مزيلاً عنِّي آثار التعب والنشوة.

قرَّرت ألا أذهبَ اليوم إلى المكتب، بقيت في البيت حتى الثامنة، ثم نزلت أسيرُ في حارة النحَّاسين، تطربني مطارقهم،

وأنتشي برقصتهم المميَّزة وهم يجلون النُّحاسَ القديم، أتمهَّل في مشيتي في «زُقاق المدق»، أُدَندن على لحن المدقَّات، وروائح البُنِّ والتوابل من كلِّ صنف، ثم سلكت طريقي إلى بيت الخيَّاميَّة، ناديت ليشع ففتح لي الباب الحديديَّ، وعلى وجهه علامات استفهام لم أُعِرها اهتمامًا، ودلفت بين أشجار الحديقة أتأمَّلها، وأتأمَّل كلَّ نبات، حتى كدتُّ أحصي الأعشابَ في كلِّ موضع قدم، ليشع فتح باب الرَّدْهَة الكبيرة دون أن يتكلَّمَ بشيء، فدخلت مُلقيًا بجسدي على الأريكة، نازعًا عنِّي سُترتي.

- أنت هنا يا سيِّدي؟

- فتنة؟ لماذا أنتِ هنا؟

- طلب سيِّدي الطنطاوي بك أن أرتِّبَ البيت لاجتماع سيجرى هنا اليوم؟

- اجتماع؟ لا علمَ لي، أعدِّي لي كوبًا من القهوة.

- كوبًا؟ هل أفطرت؟

- لا أريد، فقط أعدِّي القهوة.

- أجهِّز لك الحمَّام؟

- لا، سأصعد إلى المكتبة.

أريد أن أكتب، وددتُّ لو أكتب رواية لم تُكتَب من قبل، رواية تتفوَّق على كلِّ ما قرأت، بل أريد أن أكتبَ مسرحيَّة أضع

فيها شخصيَّات العالم اليهوديِّ كاملة، وأبني هيكلاً باتساع الأرض، ومذبحًا أقرِّب فيه الفقر للربِّ قربانًا، فلا يقوم من موته، لماذا اسمها طيبة؟ هل هي مصر؟ أم هي الطيبة؟ المرسم.. لوحاتها ليست متقنة، لكنَّها جنَّات وزروع، نهر، «نفرتيتي»، «رمسيس»، بردية عليها آياتٌ من التَّوراة، صليب... مَن هذه الفتاة؟

- القهوة.

- تعالَي ورائي إلى شُرفة المكتبة.

تركت لي القهوة وغادرت، جلست أتأمَّل الشارع من فوق، وأتأمَّل الحديقة التي تستقبل الشتاء، انتهيت من شُرب القهوة، أريد أن أغفوَ قليلاً.. ستوقظني فتنة إذا حضر البك.

الصُّداع يتسرَّب إلى رأسي، والألم يدبُّ في عظامي دبيبَ النمل، أفقت ورأسي غارقٌ في عرَق ينساب منِّي، أرتجف، لا أقوى على النِّداء.. أكاد أسمع صوت فتنة:

- ماذا تطلب للغداء؟

يأتيني صوتها من بعيد جدًّا، ولا أرى إلا طيفًا عابرًا في الغرفة، شعرت بيدها الباردة على جبيني.

- أنت مريض يا سيِّدي.

ماء بارد يسيل على جبيني لينزل على أذني، بعضُه يدخل

فيهما، أشعر بها تجرُّني، تنزع عنِّي ثيابي، وتضعني في المَغطِس.. الماء البارد ينسكب عليَّ، هل أحلم بالشلَّال؟ هي لوحة النهر التي رسمتها طيبة.

- مساء الخير.

كانت تحيَّة الطنطاوي بك التي فتحتُ عينيَّ على وجهه المبتسم لي، وكان جالسًا إلى جواري.

- أعتذر، لقد غفوت، وكنت أعتقد أن فتنة ستوقظني إذا آنَ أوان الاجتماع.

حاولت أن أنهضَ، لكنَّني لم أستطع.. جسمي أثقلُ من الأهرام.

- لا تتحرَّك، أنت مريض، منذ يومين وأنت في غيبوبة برغم كلِّ الأدوية التي وصفها لك الطَّبيب.

- طبيب؟ هل لازمتني؟

- لا، طيبة وهذه.

مشيرًا إلى فتنة التي دخلت تحمل الحَساء، وقام عن مكانه ليُجلسَها، متأمِّلاً إياي، وأنا أرشُف (الشوربة) رغمًا عنِّي، فتنة حنون جدًّا وهي تسقيني، طفل مدلَّل أنا بين يديها، اكتفيت، فقامت ليعودَ الطنطاوي بك إلى مكانه.

- لديَّ دواؤك الأكيد الذي سيُقيمك حصانًا لا تسعه البرِّية.

مبتسمًا بزَهو وافتخار يخرج ورقة من جيبه قائلاً:

- اجلس؛ احترامًا لما ستتلو يا ولد.

اعتدلت أتسلَّم من يده الورقة... عيناي لا تستوعبان:

وزارة الخارجية البريطانية

٢ (نوفمبر) ١٩١٧

لورد «روتشيلد» العزيز،

يسرُّني جدًّا أن أطلعَك، باسم حكومة جلالته، على التصريح التالي المتعاطف مع الطُّموحات اليهودية الصِّهيَونيَّة، والذي قدَّمته الحكومة لي وأقرَّته:

«حكومة جلالته تستحسن إقامةَ بيت وطنيٍّ للشعب اليهوديِّ في فلسطين، وستقوم بأقصى مجهودها للتوصُّل إلى هذا الهدف، بشرط واضح: ألا تؤذى الحقوقُ الوطنية والدينية للطوائف غير اليهودية في فلسطين، وألا تؤذى حقوقُ ومكانة اليهود في أيِّ بلد آخر».

سأشكرك إذا أعلمتَ الاتحاد الصِّهيَوني بهذا التصريح.

المخلص،

«أرتور جيمس بالفور»

- سيدي، هل هذه حقيقة؟ لا بدَّ أنني فعلاً مريض، وهذه

آثار الحُمَّى.

- بل الحقيقة، أعتقد الآن أنك فرح جدًّا، هيَّا، سأتركك الآن، وربما تأتي طيبة لزيارتك، كن مستعدًّا.

تركني بين السَّماء والأرض أتأمَّل كلَّ حرف في التصريح: «وطن لليهود في فلسطين»، تكفي هذه.

- أتعتقد؟

- لا أريد أن أسبحَ في الأفكار.

- بل هيَّا لتسبح، تأمَّله جيدًا.

- أنا تعب، أريد أن أرتاح.

دخلت فتنة تحمل كوبًا من الينسون الدافئ، دخلت لتسحبَني من المسبح الأعظم، وجلست إلى جواري في السَّرير، وناولتني الكوب.

- كنتُ مريضًا جدًّا؟

- كنتَ تهذي.

- لا أذكر شيئًا.

- ولا الحمَّام؟

- ما به؟

- لا شيء.

- ستعشقك النساء ويكنَّ جواريَ لك إن أردت.

- لا أفهم ما تقولين.

- أفضل.

قامت خارجةً من الغرفة، مرسلةً ابتسامةً لم أرها على وجهها من قبل، ما بها اليوم مختلفة عن كلِّ يوم؟ ثوبها اليوم مختلف، وشعرها مفرود منطلق، ترى ماذا تقصد؟

- لا تفكِّر، ابق فيما أنت فيه.

- نعم، يجب أن أبقى فيما أنا فيه؛ فالحلم اقترب، ولا بدَّ أن مرحلتي هي القادمة.

- مرحلة كلِّ الصَّهاينة الإسرائيليين.

- نعم، كلِّ اليهود.

- كلِّ الصَّهاينة الإسرائيليين.

سحبني النوم إلى جُبِّه رويدًا، رويدًا.. فتحت عينيَّ لأجدَ طيبة واقفةً خلف حامل اللوحات، إنها ترسم، ويحَ الأحلام و(الهلاوس) التي تحتلُّني! أغمضتُ عينيَّ وفتحتهما، إنها هي، ليس وهمًا ما أرى، لم أُرد أن أخرجَها ممَّا هي فيه، فبقيت أتأمَّلها من وراء جفوني خُلسةً.

- أراك! لا تدَّعِ النوم.

انطلقت منها ضحكةٌ رائقة، واقتربت لتطبعَ قبلة على جبيني:

- أفزعتنا في اليومين الماضيين، كنتَ بكلِّ خير حين التقينا عند ديفيد، فماذا حلَّ بك؟

- أنا لا أعرف إلى الآن ماذا يحلُّ بي، لكنَّ أجمل ما حصل لي أن أفتحَ عينيَّ على بدر طلع في الغرفة.

- أصغر سياسيٍّ إسرائيلي، فماذا تنتظر منه آنسةٌ مثلي إلا المجاملة اللطيفة.

- ماذا كنتِ ترسُمين؟

أدارت اللوحة لأراها.

- إنه أنا، في قلب نجمة داود! هل عرفت بالوعد؟

لم تكن مجرَّد خطوط وألوان تلك التي رسمتها طيبة، إنما رأيت في ملامحي خليطًا من الإرهاق والفتوَّة، والشَّجاعة وضعف الأطفال، والإصرار والوَداعة... رأيت متناقضات كثيرةً، هل كانت طيبة ترسم ما في داخلي؟ لكنَّني لست متناقضًا، ربما لم تعرفني بعد، أو أنها رسمتني كنجمة داود التي تجمع كلَّ المتناقضات في خطوطها المتداخلة.

- ليون كاسترو ملأ به الدُّنيا، وصلُّوا في المعابد، وهتفوا في الشَّوارع.

- لكنَّ الحرب لم تنته بعد.

- أتعتقد أنك في حالة تسمح لك بالتفكير الآن؟ استرِح وأبعد عن ذهنك أيَّ شيء يثير أعصابك ويرهقك؛ كي لا تضعفَ مناعتك أكثر.

- لا أرى أن الوقت سيسمح بالرَّاحة بعد الآن؛ فقد فُتح لنا باب فسيح على عالم يحتاج أن نرسمَ خرائطه، وأن نجتمعَ على رأي واحد، وأن نديرَ اللعبة على طريقتنا، لا على طريقة بريطانيا، أو مصر، أو أيِّ إنسان غيرنا.

- مصر أعطتنا كلَّ شيء يا إيزاك.

- أعطتنا الفقر.

- أخوك عزرا صائغٌ ماهر، برغم صغر سنِّه، والمستقبل أمامه.

- سيبقى من الطائفة اليهودية، من المستضعَفين.

- اليهود موجودون حتى في القصر.

- صدِّقيني، أنا لا أفكِّر في وطن تحدُّه حدود ضيِّقة، لو فتحت لكِ صفحات عقلي ستجدين أنني أفكِّر فيما لم يفكِّر فيه هرتزل نفسه، مهما كان عرض أحلامه.

- لا تترك الطُّموح يوقفك في وجه تيَّار يجرفك، وتنبَّه أن الحسابات تُقلَب في لحظات، وها هي ذي روسيا تخرج من الحرب، وتغيِّر الريح اتجاهها.

- أحسنتِ يا طيبة، أحسنتِ، وربما تتبدَّل سياسة إنكلترا في ضوء المعطيات الجديدة، وضرب الألمان للسُّفن الأمريكية، وما يقال من أن ألمانيا تعقد اتفاقات سرِّيةً لدعم المكسيك ضدَّ أمريكا، في مقابل ثلاث ولايات بعد انتهاء الحرب.

- هل بلغكَ هذا الخبر؟

- والدُكِ ألمح إليه.

- أنا أخشى على أخي «راؤول» يا إيزاك.

- أخوكِ؟ لم أعرف طَوالَ هذه المدَّة أن لكِ أخًا اسمه راؤول!

- قصته يطول شرحُها، لكنَّه يعيش في أمريكا منذ زمن، مجنون مثل كلِّ من يفتنهم الغيب والعالم الجديد، المحتجب وراء البحار، فلم يسمع لكلِّ نصائح أبي وهاجر.

- حتى إيزاك أخو ديفيد مهاجر في أمريكا، ولا أحدَ يعرف عنه أيَّ أخبار.

دخلت علينا فتنة تُعلمنا أن الغداء جاهز، وتسألنا إن كنا سننزل لتناوله أم ماذا؟ نظرت طيبة تتفحَّص وجهي لتقرِّر: سننزل يا فتنة.

- هيَّا؛ كي لا تتمكَّن منك الغرفة، قم لتغيِّرَ المكان.

ساعدتني على أن أقومَ من الفراش، وساندتني إلى السُّلَّم...

التقاليد تقدِّم المرأة على الرجل، لكن السُّلَّم يسع شخصين، فنزلنا أتأبَّط ذراعها، وجلسنا إلى طاولة الطَّعام الكبيرة، وفتنة واقفة على خدمتنا، في بيوت هذه العائلات لا تكاد تفكِّر فيما تريد حتى تجدَه أمامك؛ لهذا ليس مطلوبًا منك إلا أن تأكل، ولك كلُّ الفرص لتفكِّر، أو تتكلَّم، أو تفعل ما تريد في أثناء تناول الطعام.

- أزمة الورق في البلد تؤثِّر في انتشار الصُّحف، وحذر بريطانيا يحجُب الأخبار.

- هل تتأمَّلين خيرًا في السِّير «ريجنلد ونجت»؟

- أنا لا أهتمُّ بالسياسة كثيرًا يا إيزاك، خصوصًا بعد تدهور أحوال مصرَ على هذا النَّحو.

كنت أختلس نظرات وقحةً في تفاصيلها وهي تأكل:

- أفضل؛ فالسياسة تجرُّ المتاعب، ولكن لا مهربَ من المتاعب التي يجرُّها العقل الذي لا يقتنع بالمعطيات القريبة.

- أشعر أن الصِّحَّة بدأت تدبُّ فيك.

- كان الوجع يستعمرني يا طيبة، وليتني أعرف له سببًا.

- ربما تغيُّر الجو.

أشعر أن فتنة تتابع أنفاسنا، وتحدِّق فيَّ بنَهَم الجائع العطشان، قد يكون خوفها عليَّ الذي نما نتيجة عِشرة السنين

بيننا! هي أعلم بطباعي من أمي.

دخل علينا ليشع يحمل جريدة الجمعيَّة الصِّهيَونيَّة، وكنت اكتفيت من الطعام.. جاك موصيري يتكلَّم حول تاريخ اليهود في فلسطين، رابطًا إيَّاه بالتعايش مع العرب الحادث الآن، والذي سيشهد له التاريخ.

- جاك دائمًا يعرف كيف يُدير دفَّة الأمور، ويحافظ على مكانه في كلِّ الملاعب السياسية والاجتماعية، وكاسترو يعرف مع من يتعامل.

- أحسنتِ... إسرائيل في أمسِّ الحاجة إلى الحكمة في إصدار كلِّ كلمة، كلمةٌ واحدة تكلِّفنا الكثير.

- ما رأيكم في رحلة إلى الإسكندرية؟

سؤال فاجأنا به الطنطاوي بك الذي دخل علينا فجأةً دون أن نشعرَ به، كنت في وجه أبحث في تفاصيله البديعة، وفي أفكاري أبحث عن الوطن الذي سكنني وسكنته.

هبَّت طيبة تتعلَّق بعنق أبيها، معلنةً موافقتها، ومتسائلةً إذا كان وضعي الصِّحي سيسمح بهذه الرِّحلة؟ علَّق أبوها بأن تغيير الجوِّ فيه فائدة، وكلُّ ما شغل تفكيري السبب الذي وراء الرِّحلة، فالطنطاوي رجل عمليٌّ لا يهدر وقته، ففهِمَ ما يدور برأسي، ودون سؤال أخبرنا بما تقرَّر من عقد اجتماعات واحتفالات في

الإسكندرية بمناسبة صدور الوعد.

كان وجود طيبة معنا أجملَ ما في الأمر؛ فمعها كانت الأوقات سعيدةً، ولم يكن الاجتماع الذي عُقد في مسرح «الهمبرا» كما الذي عُقد في حديقة رشيد، فالآخر له زخم الوطن، انصهرنا في سبعة أو ثمانية آلاف يهوديٍّ من المهاجرين والمصريين في مكان واحد، تزعَّمهم زعماء الاتحاد الصِّهيَوني، وحضره الحاخام الأكبر، ويبدو أن أفكاري سرَت في كِيان الاتحاد.

حضر «أحمد زيوار» باشا محافظ الثغر، مندوبًا عن حكومة «حسين رشدي»، أبدى الباشا تقديرَه لجهود الاتحاد الذي يناصر اليهودَ الذين هم إخوانُ المصريين، والذين يعانون الشَّتات والاضطهاد في بقاع الأرض، وأن مصر لا تبخل بأيِّ عون للإنسان مهما كان، فمصر تتجه نحو القومية والاستقلال بجهود كلِّ من على أرض مصر من أبنائها ومحبِّيها.

ذابت يدي في يد طيبة وتقافزت الآمال، وكلُّ الحاضرين يُنشدون: «هتيكفاه»... هل لموج البحر أن يبلِّغَ نشيدَ الأمل لكلِّ من يهدر على شواطئهم؟ هل يسمع الراقدون في تراب الإسكندرية منذ كانت مصر «الهتيكفاه»؟

أبلغ كاسترو الحاضرين أن الاتحاد سيرسل برقيَّات إلى الزُّعَماء بما تحقَّق، فهلَّل الحاضرون ملء حناجرهم، وحقًّا

أرسل جاك موصيري رئيس الاتحاد برقيَّتين؛ الأولى إلى الدكتور وايزمان مُعربًا فيها عن رغبة اليهود في مصر أن تصبحَ فلسطين دولةً يهودية، لغتها العبرية، وسكَّانها من اليهود. وأرسل الأخرى إلى «لويد جورج» رئيس وزراء بريطانيا معبِّرًا له عن امتنان المجتمعين لحكومة صاحب الجلالة لإصدار تصريح «بالفور».

كالمرَّة السابقة، تُشعرني الإسكندرية أنها الملعب الذي يدعوني لأن أعيشَ طفولتي، وهذه المرَّة تدعوني أن أعيشَها مع فاتنة جميلة اسمها طيبة تعرف كلَّ شيء تقريبًا عن الإسكندرية، لكن لا وقتَ لدينا، لا بدَّ أن نعودَ للقاهرة؛ فالأحداث تتسارع، ثم إنني لم أستردَّ صحَّتي بما يؤهِّلني أن أبذلَ الكثير من الجهد، ويكفيني أن استمتعتُ بعض الوقت، فالإفراط في المتعة يفُتُّ في العزيمة، ويشتِّت الجهد. وطيبة أيضًا كانت تطمع في بعض الوقت للتنزُّه في الإسكندرية، كانت تريد أن ترسمَ لوحةً في موقع الحدَث، نلتقي أنا وطيبة في رغبتنا الدائمة للتوثيق، لكنَّ كلّاً منَّا له طريقته الخاصَّة، وأدواته الخاصَّة للتعبير.

(١٤)

حين أكون في القطار يتنازعني شعوران؛ أحدهما يرجع بي إلى طفولتي، والآخر يركض بي إلى المستقبل الذي لا يُبدي ملامحه إلا في مكنونات فكري، لكنَّني بصدق أتمنَّى أن أكونَ في الغد دائمًا، فالأمس يمثِّلُ لي الشعورَ بأنني واحدٌ من الملايين الذين يعيشون في الأرض.

مصر تبدو عليها علامات التبدُّل؛ الحقول على جانبي القطار كأنها تنطِقُ برغبة في أن تحلِّقَ إلى السَّماء، ومياه التُّرَع ترقص، والفلاحون تغلب عليهم مشاعرُ فرح وأمل لم تكن متحقِّقةً من قبل.

لم تزل البلاد تحت طائلة الاحتلال، وكلُّ المقدَّرات في أيدي الإنكليز، إنهم شعبٌ يحتاج دائمًا إلى من يلتفُّ حوله من أبنائه، أو من غير أبنائه، المهمُّ أن يبعثَ فيهم الأملَ بأنهم أمة متميِّزة، أعجَبُ لهذا الشَّعب الذي كلَّما واتته الفُرَص منح زمامه

لغريب يحكمه، ويصبغه بكلِّ صبغات القداسة، ويمصره ويبني تاريخه عليه! الأهمُّ عنده أن يشعرَ أنه انتصر على قوَّة كانت تقمعه! وهل كتبوا تاريخهم؟ وهل فعل غيرُهم من الشُّعوب التي كانت تفخر أنها عربية، وأن راية الإسلام وحَّدتها، وأنهم مزجوا تاريخَ ما قبل الإسلام في الإسلام الذي صار حصنَهُم الحصين؟

ها هي ذي بريطانيا ألَّبَت الشريف «حسين بن علي» على الخلافة العثمانية، ووعدته أن تحقِّقَ له حلمه بدولة عربية كبرى في شرق «القلزم» حتى شرق المتوسِّط على حدود مصر، وسورية تريد استقلالاً، ومصر تريد استقلالاً، والعراق يرزَحُ في مشاكله، لماذا نفضوا عنهم الإسلام؟ بسبب ما فعلته بهم تركيا؟ أم بسبب ما فعله بهم الاستعمار؟ فأين عروبتهم؟ كان أسهلَ شيء أن تخرجَ منهم طائفة تترسَّم خطا الغرب ليعودوا آملين بالعلمانيَّة والتقدميَّة، طيبة مصرَّة على أنهم كانوا سادةَ الأرض، فليكن.. كانوا.

أنظر في وجه طيبة التي غيبتها الحقول وأكواخ الفلاحين عن الوعي، أشعر أنها تتسلَّل إلى داخل أعواد النباتات التي يرعاها المصريون؛ لينالَ خيرَها غيرهم، هؤلاء هم من بنَوا الحضارة؟! ويحها من أمة وويحَ طيبة! آلاف السِّنين لم تعلِّمهم أن يلتزموا بمبدأ لحياتهم، ولن يلتزموا.

إنهم فرحون لأن جماعةً منهم يستبشرون بالقادم من الأيام، ويفكِّرون في دستور يحكمهم به السُّلطان الذي ليس في الأصل منهم، محافظين على مصالح بريطانيا!

أراهن أنهم سيقضون أعمارًا يتكلَّمون ويحلمون وينقمون، ودينهم يعلِّمهم أنهم في رِباط إلى يوم القيامة، وما أسهلَ أن يفسَّرَ لهم هذا القول متفقًا مع حالهم؛ بأن الحال لا تستقرُّ لهم، وبهذا يحبُّهم إلههم! يفكِّرون الآن في الاستقلال، وهم واقعون تحت ضغط حُزَم من الأفكار.

بحقِّ الجحيم، كيف يفكِّر الجياع الجهلة في الاختيار بين القوميَّة والتخلُّص من الظُّلم العثماني، أو التخلُّص من الاحتلال البريطاني، والإبقاء على أتباع الخليفة العثماني؟ دائمًا يبحثون عن أمير المؤمنين الذي ضيَّعوه، لا أُنكر أننا ضيَّعنا عيسى، لكن عيسى لم يحقِّق لنا ملكًا، وإن كان من اتبعوه حقَّقوا الملكَ الأوسع، لكنَّ محمدًا ومن اتبعه حقَّقوا لهم ملكًا، فأضاعوه.

- إبراهيم بك؛ أتعتقد أن هذه الشُّعوبَ ستعود تملك الأرضَ مرَّة أخرى؟

- أفي هذا كنت تفكِّر؟

- كنت أسترجع تاريخَهُم وأتساءل: هل يعرفونه؟

- وهل تريد أن يعرفوه؟ هذه شعوبٌ إذا استقرَّت تغنَّت يا

إيزاك، وهذا دأبهم، لم يفهموا التسامحَ الذي حثَّهم عليه دينهم إلا على وجهه السَّافر، أما غيرُهم من البشر الذين عاشوا بينهم، ففهموه على وجهه الذي يستغلُّونه، وهؤلاء يباهون أنهم استطاعوا استيعابَ كلِّ الحضارات، أتعلم من أين يُحكَمون؟ وبم يُساقون يا إيزاك؟

- ما زلت مصرًّا أنهم يحكمون من دينهم.

- «مارتن لوثر» ثار، ودعوته جمعت التَّوراة والإنجيل في كتاب مقدَّس، ولم يضمَّ كتابهم معهما؛ لأنهم كانوا سادةَ الأرض به.

- وحتى لو كان الجمع من قبله ففي كلِّ الأحوال كتابهم ليس فيه، ويكفي أنهم الآن هم الذين ينادون بأن الدِّينَ لله والوطنَ للجميع.

- لأنهم أخفقوا في التعامل مع دينهم.

- كلُّهم يصلُّون ويجتمعون حول الإمام!

- والأئمَّة الآن منقسمون بين الدَّعوة إلى الدِّين، والدَّعوة إلى حبِّ الوطن، وأنت تعرف غريزةَ المواطنة والحرِّية، إنك إذا أردتَّ أن تفكِّكَ أمة فأشعرها دائمًا أنها مهدَّدة بمن يتحكَّم فيها.

- ها هم أولاء الإنكليز يتحكَّمون فيهم.

- وهم يبحثون عن الاستقلال.

- واليهود يملكون المناصب والأموال والشَّركات والمصارف.

- لكنَّهم يملكون ما هو أعظم؛ يملكون إشعارَ المصريين أنهم في أمان، وأنهم منهم، وأنهم الطائفة القليلة التي تعيش في سلام... أتعلم يا إيزاك؟ لديَّ أماناتٌ كثيرة لمسلمين من مصرَ كلِّها تقريبًا.

- أبي ترك لنا ما ادَّخر عند مسلم.

- بالضَّبط هذا ما يجب، وهذا هو الأمثل، فكم يهوديًّا في مصرَ لديهم ما يستأمنون عليه المسلمين؟

- قلَّة.

- وكم من المسلمين لديهم أمانات؟

- كثرة.

- أي: إن الثقة تستقرُّ على أن الأمانة لليهوديِّ.

- بالضَّبط.

- والنتيجة أن يفقدوا الثقةَ فيمن هم أحقُّ بالثقة، من ينظر تحت قدميه يعدُّ ما أقوله أمرًا هيِّنًا، لكنَّ النار تبدأ بعود ثِقاب ثم تلتهم الغابات، هل سمعت بمصرف لغير اليهود؟

- يفكِّرون، و«طلعت حرب» يسعى.

انفرجت أسارير طيبة، وكأنني نطقت بما كانت تتمنَّى، كانت تنظر إلينا، وكأننا نقتلعُ عظامها من تحت الجلد واللحم، هل تحبُّ المصريين؟ حتى أنا أحبُّ المصريين، لكنَّني أحبُّ نفسي أكثر.

في القاهرة قرَّر الطنطاوي بك أن نذهبَ جميعًا إلى بيت الخيَّاميَّة، فالإرهاق يأكل منَّا كلَّ ما يطوله، استقبلنا ليشع منحنيًا لسيِّده، وبعد دخولنا بدقائقَ معدودة دخلت فتنة في رقَّتها المعتادة، وشوقها الذي يقطر من عينيها، بعد أن سلَّمت ورحَّبت، مضت إلى المطبخ لتحضِّرَ مشروبًا، وبمجرَّد الانتهاء من المشروب انصرف الطنطاوي بك وطيبة التي تركت خلفها أزهارَ ابتسامة رقيقة، كلُّها عبث طفولي، قائلةً: عليك أن ترتاحَ ولا تجهدَ نفسك بأيِّ أفكار، أو أيِّ تفكير، خذ بقيَّة اليوم راحة من كلِّ شيء.

الماء الدافئ يُشعرني بالنَّشوة، والعطور التي تضيفها فتنة إلى مياه المَغطِس تشجِّعني على أن أنام في الماء، أبي يجرجر أسمالاً عابرًا إلى إسرائيل، وكثيرون هناك يستقبلونه، كلُّهم في أسمالهم البالية، لكنَّ البعض منهم كانوا في هيئة فارهة، علمت أنهم الأنبياء يستقبلون أبي الذي لم يزل ينفضُ عنه غبارًا كثيفًا، كلَّما نفض عادت إليه نضارته، صِبْيةٌ صغار يحملون ثوبًا أنيقًا،

يتقدَّمون به خلف جماعة أخرى منهم، يحملون آنيةً بها ماء، تطفو عليه ورود، بنات صغار أخذنَ بيد أبي خلف أشجار قصيرة لم يظهر من ورائها، ألقى بالأسمال، فأسرع حاخامٌ إليه مُشعلاً فيها النيران، فهلَّل الجمع الغفير، ورقص الأطفال، وناولوه الماء من بين الأشجار، كان شبح امرأة يبدو بين الأشجار، إنها المرأة التي تغسِّل أبي، ضحكاتها تبلغ سمعي، لم يرني أبي خلف تلك الجموع التي تنتظره، ربما لم يعرفني من هيئتي الجديدة، وشاربي الذي انتظم منذ زمن، خرج أبي من بين الأشجار في زِيِّه الكهنوتي الأنيق، يسير بخطًا ثابتة نحو الجموع التي اصطفَّت له، يهمهمون باسمه: القمَّاش، القمَّاش أتى، يعقوب عاد... هل كلُّ هؤلاء من الأموات وأنا فقط الحيُّ بينهم أسمع وأرى؟

أنا لا أعرف أحدًا من هؤلاء جميعًا، حتى الأنبياء الذين عرفتهم من هيئتهم ونداءات الناس لهم لا أعرفهم، ما عرفتُه أنني في الخليل، أشاروا جميعًا إلى القبور، التفت أبي إلى المكان الذي أقف فيه، والتفت معه الناس جميعًا، مدَّت المرأة التي معه يديها مبتسمةً، أفسحوا لي طريقًا، لم أتقدَّم خطوةً واحدة، تبدَّل المكان الذي نقف فيه... قبَّةٌ تبعد عنا خطوات، لماذا تبدَّل المكان؟ لم يتبدَّل، بل تبدَّل.. مشى أبي في هيبة الملوك نحوي، والناسُ ينظرون في امتنان وكأنه يملك رقابهم،

أرتجف فزعًا، استحضرتُ الذكرى القديمة، دنا منِّي كثيرًا، رفع يده اليمنى فبلغت الشمسَ التي لم أنتبه لها، ثم أنزلها بهدوء شديد ليجعلَها على خدِّي، شعرت أنها تغيِّرني وتعيدني طفلاً بريئًا!

ووضع يُسراه على خدِّي الآخر، فشعرت بها وكأنها تنفُث في لهب مُستعِر، وكأنني حصان جامح يكاد يهدم كلَّ ما حوله، قبَّل جبهتي، فجثَوتُ أمامه، فوضعَ يمناه على رأسي، فهلَّل الناس، وهو يرفعني بكلتا يديه، مخرجًا من ثوبه رغيفَ خبز قدَّمه لي، قائلاً: ألم أقل لك: لا يمكن أن نبقى هكذا؟ كان مبتسمًا يقطر النُّور من وجهه الشاب.

هلَّل الناس ورحَّبوا بي، لم ينطِق أبي اسمي، ولم ينطِقه أيٌّ من الجمع، بل نادَوني بابن يعقوب... بوَّابة كبيرة تنبت من الأرض، أشعر بها ترتفع من خلفي، لكنَّني أراها أمامي، أراها في عيني أبي.. في عيون الأطفال الذين صارت أيديهم أكبرَ من حجمهم، يحملون آلات بناء، وأسلحةً، وخبزًا ولحمًا، وآنيةَ عسل ولبن... أدارني أبي نحو البوَّابة، شيء ثقيل معلَّق بسلسلة في عنقي، ملتصق بصدري، حين أشار أبي أخذ ينبض أقوى من قلبي وعروقي، أخرجته، إنه مفتاح! حين أخرجته تمدَّد، وأشار أبي إلى فُتحته في الباب، فمددتُّ المفتاح في الفُتحة أديره لأفتحَه، فلم يُفتَح!

همهمَ الناس، تقدَّم الأنبياء وتأمَّلوا المفتاحَ جيِّدًا، ليس من زمننا، عمَّ الهرج والمرج المكان.. الناسُ يتهمون الأنبياء، والأنبياء يدافعون عن أنفسهم بأن «أورشليم» لم يكن بها مفاتيح، كانت الأرض مَشاعًا، خرج صوتٌ من أسفل يقول: اقتلوا الأنبياء.

أفقت على طرَقات بيد فتنة على الباب.

- هل أدخل؟

تدخل! كيف تسأل هذا السؤال؟ هل جُنَّت هذه الفتاة؟

- لا طبعًا.

- لقد تأخَّرتَ، وخشيت أن يكونَ عاودك المرض.

- أنا بخير، فقط أردتُّ أن أستمتعَ بالماء.

هل غفوتُ؟ هل كنت أحلم؟ لبست ملابسي وخرجت، فتنة واقفة عند الباب، وأريجُ عطرها يفوح، رأيت فتنة أجملَ وأبهىٰ، رأيتها أكثر فتنةً مما هي عليه!

- الغداء جاهز، تنزل إلى غرفة الطعام، أم أصعد به إليك هنا؟

- سأنزل.

تحرَّكت أمامي نحو السُّلَّم، والحلم يتكرَّر أمام عينيَّ بكلِّ تفاصيله، اللغز حُلَّ، أبي لم يكن راضيًا عن معيشتنا هنا، إنه

يريد إسرائيل؛ لهذا ضربني، ضربني كي لا أنسى الصَّفعةَ التي أخرج فيها كلَّ آماله يزرعها بداخلي بما أنقمه على الواقع، عجيبٌ أمر الأبناء، لا يمكنهم تفسير حكمة الآباء! وعجيب أمر الآباء يقسون على أبنائهم دون أن يفسِّروا أسباب القسوة، يعتمدون على أن الأبناء لا بدَّ أن يسلِّموا بأن آباءهم يحبُّونهم ويريدون لهم الخير!

سألتني فتنة عن الأوقات التي قضيناها في الإسكندرية، وكنت جائعًا، آكلُ كأنَّني ألتهم رغيفَ الخبز الذي قدَّمه لي أبي، لكن صبرًا، أبي قدَّمه لي في إسرائيل، هناك اللبن والعسل والأطفال، لماذا أيديهم كبيرة؟

- لم تكبُر إلا حين نبتت البوَّابة من الأرض.

- هم من إسرائيل.

- وُلدوا فيها.

- هم الأحقُّ بها، يعمرونها بناءً وزراعة.

- هي ليست لهم.

- بل لهم منذ كانت.

- والكنعانيُّون؟

- كان وجودهم مؤقَّتًا حتى يأتيَ المالك الحقيقي.

- والعرب؟

- وجودهم آنيٌّ حتى يأتيَ الوارث الحقيقي.

انتفضتُ حين اندلق طبق الحَساء.

- ما بك؟

- لا شيء يا فتنة.

- ساهم، تفكِّر حتى وأنت تأكل؟

- أعدِّي لي الشَّاي إلى أن أنهيَ طعامي.

لم أكن أريدها أمامي، أريد أن أصرفَها بأيِّ طريقة، أنهيت الطعام وصَعِدتُّ إلى المكتبة، وسحبت أوراقي لأكتب، فكتبت خُطبةً أريد أن ألقيَها ولو على الشَّجر.

(١٥)

«فبراير» ببرودته يحتاج إلى دفء يُعيد إلى النفس نشاطها، أنا لا أسعى لهذا الدِّفء؛ لأنه ينبعث من داخل نفسي كما البرد تمامًا، فصدور الوعد جعل الأيام تجري سريعًا، حاملةً الأحداث تلالاً وجبالاً، والطرق مرَّةً تبدو لنا متسعةً نحو إسرائيل، ومرَّةً تبدو لنا كآثار الثُّعبان.

الأخبار وصلتنا أن «جابوتنسكي» حصل في إنكلترا على الموافقات بتكوين الفرقة الثامنة والثلاثين، التي عُيِّن لتدريبها الكولونيل «جون هنري باترسون»، وصلت الفرقة في الثامن والعشرين من (فبراير) إلى الإسكندرية، وأقامت الطائفة لاستقبالها احتفالات ضخمةً.

وفي القاهرة استقبل اليهود الفرقةَ في محطَّة القطار، وأقاموا لها الأفراحَ حتى وصلت إلى «السيناجوج الأكبر»، فبوركوا، ومن هناك توجَّهوا - في خضمِّ الهتافات والتهليل - يجوبون

شوارعَ القاهرة في استعراض عسكريٍّ إلى أن وصلوا معسكر «حلمية الزيتون» حيثُ يتمُّون تدريباتهم.

جابوتنسكي ذكيٌّ يعرف من أين تؤكَلُ الكتف، فالألمان يتفوَّقون على الحلفاء، وخروج روسيا من الحرب مكَّنها من الاستفادة بما يقرُب من نصف مليون جنديٍّ ستسحبهم لمواجهة الحلفاء.

شعرتُ بالسَّعادة العارمة حين بلغتني أخبارُ وصول الفرقة التاسعة والثلاثين من اليهود الأمريكيين التي تكوَّنت بجهود «ديفيد بن جوريون» يشاركه «إسحاق بن زفي»، كانوا يحملون الكثيرَ من الآمال وروح الغرب الأمريكيِّ الجديد، وخضعوا في تدريبهم للقائد الإنكليزي «العازر مارجولين»، واليهود كالعادة يشعرون أن هذا هو جيشُهم الذاهب إلى توطئة الأرض في إسرائيل بدعم القوَّات البريطانية التي كانت قد سيطرت على أكثر الأراضي الفلسطينيَّة منذ العام الماضي.

مصر أصابها الاضطرابُ الشديد؛ لأنها في صفِّ الإنكليز، وجنودها يحاربون لصالح الإنكليز، والأخبار تؤكِّد أن الألمان يتقدَّمون، ويُحكمون الخناقَ على الحلفاء.

وما إن أتى (مارس) حتى تأكَّدت الأخبار، وشنَّت ألمانيا هجَماتها الشَّرسة لتحطِّمَ الجيش البريطانيَّ الخامس، وتسودَ حالةٌ من الذُّعر في صفوف الإنكليز بمصر، وتشتدَّ قبضة

الأحكام العُرفيَّة، فالرأي العامُّ تدبُّ فيه النزعة إلى المقولة التي لم تكد تخفت عن أحقيَّة الخلافة العثمانية بالتبعيَّة لها.

الصُّحف في القاهرة والإسكندرية تحاول أن توازنَ الأمور، حتى تضعَ الحرب أوزارَها، الفروض على الحكومة المصرية تزداد، والفقر يزداد، والقهر يصل منتهاه، فالجيش البريطانيُّ يحتاج إلى كلِّ دعم ماديٍّ ومعنوي، هذه الظُّروف كان لها آثارٌ جليَّة.

ولعبت المصالح لعبتها، فالخلافات نَشِبَت بين جاك موصيري رئيس الاتحاد وليون كاسترو الذي تأزَّمت طباعُه بسبب ما يحدث في العالم، وتسلَّط في تعامله مع الجمعيَّات، ومع رئيس الاتحاد نفسه، حتى استقال موصيري.

كنت في تلك الأثناء أتأمَّل الأمور عن كثب، وبدأت أكتب بعضَ المقالات في الجريدة التي يرأس تحريرها كاسترو، لم تكن مقالاتي مقالاتٍ بالمعنى المعروف، ولكنَّها خواطرُ تحمل في ثناياها الدَّعوة إلى أن نحلُمَ بالوطن في إسرائيل، وأن نرسمَ بيوتنا هناك قبل أن نغادر، كنت أريد أن أعرضَ للإسرائيليِّين في مصر عالمًا جديدًا، يخفِّف عنهم وطأة الاضطرابات الناجمة عن تغيُّر رياح الحرب، وفي نفس الوقت كتبتُ مقالات في جريدة الوطن، أوضحت فيها أن التاج البريطانيَّ أخذ على عاتقه قضيَّة الإنسان المقهور تحت وطأة الدِّين الواحد، والحاكم المتسلِّط،

وأن الأمة كلَّها لا بدَّ أن تسعى لتغيير هذا النظام القائم تحت مسمَّى الخلافة، وأن تبحثَ كلُّ قوميَّة عن نفسها داخل حدودها، فزمن الحدود الواسعة انتهى، وكلُّ إنسان هو في حقيقته إنسانٌ مسؤول عن نفسه، ومسؤولٌ عن أفعاله، وقد اتفقت الأديانُ أن لا أحدَ يتحمَّل خطيئة الآخر، وأفضل الناس الذي يُدرك الخلاصَ قبل فوات الأوان.

كانت مقالاتي تَلقى الإعجابَ من الطوائف كلِّها، ولا يقصُّ منها الرقيب أيَّ كلمة، ووافقت إدارات الصُّحف أن تنشرَ مقالاتي بأسماء غير حقيقيَّة، وأحيانًا كنت أوقِّع بالأحرف الأولى، فالإنسان دائمًا يفضِّل الغموض، ويبحث وراء كلِّ الغيبيَّات، والحروف الأولى أو الاسم المستعار اللافت كفيلان بأن يجعلَ القرَّاءُ من أصحابهما رموزًا أتت من الغيب لتعبِّرَ عنهم، بل يعدُّون أصحابها أبطالاً يحاربون لأجلهم في الخفاء.

بدأ السُّذَّج يستدعون شخوصَ ملاحمهم الشعبيَّة، وصرت في الشارع أسمع عن الملثَّم الآتي بجيش الإنقاذ، و«علي الزئبق» الذي بُعثَ من جديد، في الوقت الذي أضحك فيه مما أسمع، أعرف أنني أملك مفاتيحَ هذه الأمة، ليس هذا فقط، وإنما أتعلَّم كيف أخترقُ عقولهم وأعيد صياغتها.

مع اضطراب الأحوال في مصر، وما طال الاتحادَ والجمعيَّات اليهودية، وصل السيِّد حاييم وايزمان إلى

الإسكندرية على رأس البعثة التي شكَّلتها المنظَّمة الصِّهيَونيَّة لدراسة أوضاع اليهود في فلسطين، واستقبله فيها وجوهُ الطائفة هناك، وعلى رأسهم «إدجار سوارس» و«فليكس منسه»، ثم وصل إلى القاهرة، هل كان يُدرك أن الأوضاع في الاتحاد تتدهور، وأن الإسرائيليِّين في مصر يحتاجون إلى دُفعة روحيَّة، أم أنه جاء ليؤكِّدَ ثبات المبدأ والاتجاه في مصر، أمام الأزَمات التي تواجه الجيش البريطانيَّ في أوربا؟

استقبلناه في محطَّة القطار، وكان على رأس المستقبلين السيِّد موسى قطاوي رئيس الطائفة، وليون كاسترو وجاك موصيري والحاخامون وغيرهم الكثيرون، وبعد مراسم الاستقبال الحافل في المحطَّة توجَّه الموكب إلى «شعار هشمايم»، تأمَّل وايزمان الجالسين بعينه الفاحصة... اليهود منقسمون أمامه، وكلُّ فرقة تجلس في مكان بعيد عن مكان الأخرى، هذه المرَّة قدَّمني له ليون كاسترو، عرَّفني بأنني السكرتير الخاصُّ لإبراهام بك الطنطاوي، تعريف لم يلفت انتباهَ الرجل، ولكنَّه لم يلبث أن انتبه جدًّا حين أتمَّ تعريفه بأنني حلمُ إسرائيل القادم.

تأمَّلني وايزمان مليًّا، فمدَّ يده مصافحًا، متسائلاً: وما حلم إسرائيل القادم؟

- بوَّابة تنبتُ من الأرض، مفتاحها ليس مع الأنبياء، مفتاحها

مع عمر بن الخطّاب الذي فتحها به، وزرعه في قلوب المسلمين، ومنه نسخةٌ أعطاها للنصارى حين صلّى عند باب القيامة، بوّابة لا تُفتَح بل تكسَر كسرًا.

انتبه لي أكثر وأكثر، دقّق النظر في عينيَّ، جذبني إليه كأنه الوطن الكبير بنعومة يديه وقوّة تفكيره.. ألصقني به، وهمس في أذني بعد أن أنهيتُ كلامي: يكسرها من معهم المفتاح؛ ليجدونا تسلّلنا إلى ما وراءها، كان سحر قويٌّ ينسكبِ من عينيه في كلّي، ابتسامته الماكرة ارتسمت أمامي كأنها أكبرُ مدرسة عرفها الإنسان، لقد ملكني بهذه الابتسامة وبعبارته التي تلاقت مع مجمع أفكاري، نعم، لا بدَّ أن نتابعَ نحن نتائجَ ما نعلّمه للعرب والمسلمين، لا نفرّق بين معتقداتهم، أو ما يسمُّونه الأديان... أنا حقًّا أخلق لهم دينًا جديدًا لن يستطيعوا أن يلصقوه بالربِّ، إنه دين أرضي، وثنيَّة جديدة، وثنيَّة فردية، كلُّ بلد هو فرد واحد، فتيٌّ في ظاهره، وجميع أعضائه مريضةٌ في حقيقتها.

وصلت طيبة - وأنا أتكلّم معه - تلبَسُ ثوبًا لا مثيل له في الجمال، تفوح منها عطورها تملأ ما بين السَّماء والأرض، فاستقبلها أبوها، وتقدَّم بها إلى السيِّد وايزمان الذي أثنى على جمالها وأناقتها، صافحتني، وبلا شعور رفعتُ يدها مقبِّلاً.

انتهى الاجتماع على موعد بمحاضرة يلقيها السيِّد وايزمان، وأضاف السيِّد كاسترو أنني سأتولّى متابعة هذا الحدث؛ ليُنشرَ

في مجلَّة الاتحاد الصِّهيَونيَّة، فرحَّب وايزمان.

في بيت الجمَّاليَّة كانت طيبة مع الطنطاوي بك ينتظران عودتي، وتناقشنا حول مستقبل إسرائيل والأهداف التي ترمي إليها زيارةُ وايزمان في هذا الوقت، وكلاهما اتفق معي على أنها لدفع الحركة الصِّهيَونيَّة في مصر، واستعدادًا لذهابه إلى القدس لافتتاح الجامعة العبرية.

بعد ثلاثة أيام عُقدت المحاضرة التي شهدها جمهورٌ غفير، على رأسهم أثرياء الإسرائيليِّين في مصر، تناولت المحاضرة محاورَ كثيرة كان أهمُّها دعوة وايزمان لجميع اليهود أن يدعموا الجهودَ الصِّهيَونيَّة، محرِّضًا الجميع على جعل اليهودية والصِّهيَونيَّة شيئًا واحدًا، وأن يُزيلوا ما بينهم من خلافات في مجلس الطائفة، كان صادقًا جدًّا حين ألحَّ أن يجعل الجميع الوطنَ القوميَّ غايةً تُبذَل لأجلها كلُّ الأسباب، وعلى الأغنياء في مصرَ بذل المال؛ لأجل رعاية المهاجرين وإعانتهم، وبناء المستوطنات، وإقامة المشروعات، وشراء الأراضي.

وطلب دعمَهُم لبناء الجامعة العبرية في القدس التي سيمضي إلى وضع حجر أساسها، الجامعة التي ستكون منارةَ العلم والثقافة، والإشعاع الحضاريِّ في العالم كلِّه، ونبَّه الإسرائيليِّين في مصر على خطر التراخي في التعاطي مع الأمور المهمَّة؛ مبيِّنًا أن هذا ليس في الصَّالح العامِّ في ظلِّ الظُّروف التي يمرُّ بها

العالم كلُّه، واليهود خاصَّةً.

غادر وايزمان مصر، تاركًا آثارَ محاضرته في النفوس والعقول، غادر والعالم يترقَّبُ ما ستؤول إليه شؤون الحرب.

الحرب كالدُّنيا، لا تعرف لها حالاً، فما كادت أفراح الألمان تُزهر حتى استعاد الحلفاء تنظيمَهُم، ولاقَوا الألمان في أعنف المعارك وأشرسها، يصرُّون على الانتصار، وتحطيم هذه القوَّة التي تريد تغييرَ صورة القوى الاستعمارية الأصيلة، لكنَّ معركة «المارن» الثانية تحسم الأمر، فكان الثامن من (أغسطس) يومَ الجحيم للألمان، فليست الهزيمة فحسب، ولكن الأسر، ربع مليون مقاتل ألماني أسرى... الأصوات تتعالى في مصرَ بأن إنكلترا سترفع عنهم كلَّ آيات الظُّلم بعد هذا الانتصار الحاسم، ولا رجعةَ للعزلة.

(١٦)

ضوء الصُّبح يدعوني أن أقومَ إلى شوارع الحارات، أمشي فيها، سلكتُ مسالكي المعتادة بين الأزقَّة والدُّروب، أملأ عقلي بإصرار العمَّال الذين يحيلون الأشياء إلى أشياء أخرى، لها سِماتها، وألوانها، وصيغها الجديدة، لكنَّ الجوامع اليوم تغريني أن أتأمَّلَ هذه الأُبَّهَة والفخامة التي حَرَصَ عليها بُناتها، هذه الصُّروح لا تدلُّ أبدًا على أنهم لم يدركوا أن هذه الأُبَّهَة ستُبقي هؤلاء الناس متعلِّقين بروحانيَّاتهم، ليس الأبنية فقط، وإنما تلك الجوامعُ التي بها الأضرحة. توقَّفت أمام الحسين، الناس يؤمُّونه من كلِّ مكان في مصر؛ هناك امرأةٌ تبكي متوسِّلةً إليه أن يساعدَها في ردِّ بقرتها التي ضاعت، فتاة جميلة هناك تستعدُّ للدخول تناديه أن ييسِّرَ لها أمرها؛ لتجدَ العريس بعد أن عافها شبابُ البلدة برغم جمالها... ألهذه الدَّرجة يؤمن هؤلاء الناسُ أن أهل بيت محمد يملكون هذه الطاقات التي لا تتوافر في

غيرهم؟

- عماد.

التفت إليَّ، ودهشت لترتيبات القدَر، هل كنت على موعد معه في هذا الوقت! حين رآني أسرع الخطوَ نحوي متهلّلاً.

- أهلاً إيزاك، ماذا تفعل هنا؟

- أردتُّ أن أتنزَّه في الأحياء، طبعًا كنت تصلّي الصُّبح وبقيتَ في رحاب الحسين.

- نعم، صدقت، لكن ليس كما تقصد، أنا لا أتبرَّك، وإنما هم أهلُ بيت الحبيب - صلَّى الله عليه وسلَّم - نحبُّهم لأنهم منه، ولأنهم كانوا حملةَ علم ورسالة.

- هل أنت شيعيٌّ يا عماد؟

- ولماذا أكون؟ الفاطميُّون حملوا هذا المذهب، لكنَّ المصريين لم يعتنقوه، وكلُّ ما عناهم منه أنه يقدِّر آلَ البيت ويجلُّهم، لكنهم رفضوا من الفاطميين كرهَهُم لصحابة الرسول - صلَّى الله عليه وسلَّم - وسوء حديثهم عنهم؛ لذلك لم يستقرَّ المذهب في مصر، ولا أعتقد أن المصريين يميِّزون سنيًّا من شيعي، بل ولا يعرفون، ولا يريدون أن يعرفوا ما هو المذهب الشيعيُّ، هم مكتفون بأسماء المذاهب الأربعة، (للبسطاء) حياتهم (البسيطة) التي يعيشونها، وإيمانهم صادق، ولأهل العلم

حياتهم التي يعيشونها، يلتقون مع (البسطاء) في سماحة الاعتقاد، ويختلفون عنهم في الاجتهاد والبحث، أمَّا أمثالنا من المتعلِّمين، فأكثر ما يشغلهم قضيَّة الوطن، فهل هناك فرصةٌ لأن نميزَ بين سنِّيٍّ وشيعيٍّ يا إيزاك؟

- لكنَّكم تقدِّسون أصحابَ القبور وتتبرَّكون بهم.

- تعال نتمشَّ يا إيزاك، ونجلس في مقهًى نشرب الشَّاي.

- موافق.

في مقهًى قريب جلسنا، النَّادل رحَّب بنا، وخصَّني بقوله: أهلاً يا خواجة، ضحك عماد قائلاً: صرتَ خواجة يا إيزاك؟ ابتسمت له ناظرًا إلى ملابسي.

- هذا من العموميَّات التي يستحسن الشَّعب المصريُّ تعميمها، وسأذكِّرك ذات يوم - بعد زمن طويل - أن التسمية ارتبطت باليهود والنصارى من غير العرب، الذين يلبَسُون الملابس الإفرنجيَّة والقبَّعات، وستبقى ملتصقةً بأصحاب الدِّيانات غير الإسلام إلى آخر الزَّمن، ولو تبدَّلت الثياب.

- أرأيت أن (للبسطاء) فلسفتهم وخصوصيَّاتهم؟

- تقصد سؤالي عن التبرُّك؟

- نعم، لكنَّها ليست قاعدة، إنها مرتبطة بما يعانيه هذا الشَّعب الطيِّب من الغَبْن والظُّلم وضياع الحقوق، مما يجعله

يلجأ لأيِّ وسيلة تعينه، أو حتى تصبِّره على ما يلاقيه.

كنت أستمع لعماد بكلِّ تركيز، فالمسألة خطيرة، وإن كان يتكلَّم عنها بعفوية، فهي مقياسٌ صريح أن كلَّ الأديان معرَّضة لصنوف من الوثنيَّات وفق طبيعة أفكارهم، وهذا مدخلٌ إلى تغيير آرائهم ومعتقداتهم، حتى في عقيدتهم التي يرَونها راسخةً، كلُّ ما هنالك توفُّر الأسلوب الذي يحرِّك العواطف الجاهلة نحو المسائل التي يريد تثبيتها، أو إحلالها محلَّ غيرها.

- هل تقصد أن المذهب الشيعيَّ لم يستقرَّ في مصر، وأنه انتهى بنهاية حكم الفاطميين؟

- لا أقول هذا، ولا أنفي وجوده قطعيًّا، لكن لا أثرَ له في حياتنا، ولا نرى من يلتزمونه، وها هو ذا الأزهر الشَّريف لم يعُد فيه أيُّ أثر للمذهب الشيعي، وإنما مذهب أهل السنَّة وآراء فقهائه، لكن أخبرني، لماذا تسأل في هذه الأمور؟

ماذا أقول له؟ وكيف أُفلت من أسئلته التي لا أعرفُ أهي أسئلةٌ أم فِخاخ؟

- عظمة دينكم يا عماد، وعظمة الشَّواهد عليه. صدِّقني أنا معجبٌ بدينكم وبجوامعكم، وطريقتكم السهلة في الحياة.

- مبارك عليكم الوعد بالوطن، هل ستُغادر إلى فلسطين؟

- فلسطين؟ ولماذا؟

- ألا تصرِّحون في الصُّحف أنها الوطن القوميُّ لليهود، وأنكم تريدون تكوينَ عالمكم الأفضل هناك؟

تُرى ماذا تريد يا عماد؟ وبأيِّ عقل تسأل الآن؟

- البلاد كلُّها مفتوحة لنا يا عماد، ونحن لم نجد هنا إلا كلَّ الخير يا صاحبي، ولا تنسَ أنني مصريُّ الجنسيَّة، على الرغم ممَّا قاله هذا النَّادل أنني خواجة.

كنت أنتظر أن يضحك.

- تقصد أنك لست موافقًا على الوعد؟

- كيف حالُ عائلتكم الكريمة؟

- بخير والحمد لله، أمي أخبرتني نقلاً عن والدتك أنك تحظى بثقة إبراهيم بك الطنطاوي المحامي.

- أعمل سكرتيرًا عنده.

- فقط؟

- ماذا تقصد بفقط؟ سكرتير كأيِّ سكرتير، مع فارق يسير هو أن الرجل مثقَّف، ولم يكن يجد من حوله من الشَّباب من يجدِّدون فيه هذه الرُّوح، وأنا وفَّرتُ له ما أراد.

لا أعرف ما أقول، لكنِّي أحاول تشتيتَ ذهنه فلا يسأل أكثر، فقد يكون على علم بما كتمتُه عن الجميع؛ تحقيقًا لرغبة الطنطاوي بك، أيُعقَل أن تكون أمي لا تخفي شيئًا عن أمه؟

ألهذا الحدِّ أخطأتُ حين أخبرتها بمكان مبيتي المتكرِّر خارج البيت؟ ليتني ما أشفقتُ عليها.

- ماذا تتوقَّع بعد هزيمة ألمانيا يا عماد؟

- ابتداء الحرب.

ويحه! إنه يتفق معي من حيثُ لا يدري.

- ابتداء الحرب؟

- نعم، حربنا نحن حرب الحرِّية والاستقلال.

وحربنا نحن لو تدري، حربنا لتأكيد أفكارنا، وتحويل الحلم إلى حقيقة لا ينازعنا فيها أيُّ إنسان، ماذا لو أخبرتُك بهذا؟ هل ستقوم لتصرُخَ بملء فيك: هذا من الذين سيغتصبون القدس؟

- هل تتغيَّر ملامح الموقف السياسيِّ لإنكلترا؟

- ثلاثون عامًا يعِدوننا بالاستقلال.

- مبادئ ولُسُن حدَّدت الكثيرَ من الخطوط العريضة.

- أعتقد أن ما يُنشَر لا يتجاوز أن يكونَ توقُّعات من الكتَّاب، وممَّن يريدون الوصولَ إلى غايات خاصَّة.

أنهى عبارته، ونظر في وجهي وقد ذهبت به أفكاره بعيدًا عنِّي، قائلاً: ماذا تشرب إيزاك؟

- للتوِّ أنهينا الشَّاي.

نادى على النَّادل أن يحضرَ لنا قهوة.

- كيف تحبُّها؟

- مُرَّة، دون سكَّر، سادة.

- سادة؟ لماذا؟

- أحبُّ كلَّ شيء على طبيعته دون تغيير فيه، لا بالزِّيادة ولا النقصان، ما دام لي.

- وإن لم يكن لك؟

- كما يريده من يريده.

شربنا القهوةَ مع نقاشات عن ابن عربي وفكره، وبعض أشعاره، وما أورده في «الإشارات»، ومعتقده الفلسفيِّ، كان عماد معترضًا على كثير ممَّا قاله ابن عربي، ويرى أن ابن تيميَّة وابن خلدون على حقٍّ حين كفَّرا مذهبه.

- أليس من أقطاب علماء الإسلام ومفكِّريه؟

- من قال هذا؟

- صاحب فكر يدعو إلى المحبَّة، ويزيل الحواجزَ بين الأديان.

- ويرى أن الله يحلُّ فيه، وأنه يوحي إليه بالإشارات، وأن آخر الأولياء على حقٍّ، وأحقُّ أن يتَّبعَه الناس، وأنه أفضل من

الأنبياء، وأن النبوَّة انتهت، أما الوحيُ فلا ينتهي لا في الدُّنيا ولا الآخرة؟ أهذا كلام يعقله عاقل؟

- تكفِّره؟

- من تعدَّى على نصِّ القرآن فهو كافر.

- تقصد فاسق يُستَتاب، الرجل لم ينكر الربَّ ليكفرَ بنُكرانه.

- ربه يحلُّ فيه، ويؤمن بوَحدة الوجود، ولمَّا كان الله يحلُّ فيه فهو إله.

- فهل النصارى كفَرَة؟ ألا يرَون الرأي نفسَه تقريبًا؟

- لماذا تفتح هذه الموضوعات يا إيزاك؟

- أنت مثقَّف ومطَّلع، وعليكم أن تناقشوا مثلَ هذه الأمور، خصوصًا في المساجد؛ لتنشروا العلم، وتفتحوا عقولَ الناس؛ ليتدبَّروا الدِّين.

- لا، هناك من الأمور ما يجب أن يُدفَن، ولا يُفتَحَ له باب؛ كي لا يتناولَهُ العامَّة أو ضعاف النفوس، فيضيع الناس في شِعابه.

- أليس من حقِّ كلِّ إنسان أن يعتنقَ ما يريد؟

- الإسلام جبَّ كلَّ ما قبله، وهو نقيٌّ، وهذه أفكارٌ دخيلة تحلُّ من زمن إلى زمن ثم تموت.

- العلم لا يموت.

- علم يقتل أمَّة، ويميّع عقيدة، ويفتح أبوابَ جدل لا عائد منها ولا طائل إلا الفتن!

- نمشي؟

- أنا سعيد لأنني رأيتك، وسعيد لأنك لستَ حريصًا على ترك مصر والذَّهاب إلى فلسطين، هل تعدني بلقاء آخر؟

- دعها للظُّروف، فأنا منشغل هذه الأيام جدًّا، لكنَّني لا أخفي عنك أنني كثيرًا ما أفكِّر في لقائك.

انصرف عماد إلى طريقه، وتوجَّهت إلى مكتب الطنطاوي بك. . . استقبلني ديفيد يحمل إليَّ رسالةَ عتاب من أمي التي تشتكي غيابي عنها، وانقطاعي عن البيت، أخبرني ديفيد أنها تريد أن تنتقلَ من الشقَّة القديمة الضيِّقة إلى أخرى، إنها الشقَّة المقابلة لشقَّة مدام ماكلين، هذا أمرٌ ممتاز، أشرت بهذا لديفيد ثم دخلت إلى مكتب الطنطاوي بك، حملتُ من مكتبه بعض كتب التشريع القانونيّ، ودخلت بها إلى حُجرتي.

لم تمرَّ عشرة أيام على انتصارات الحلفاء وهزيمة ألمانيا، حتى بدأت اجتماعاتُ الإسكندرية لتأسيس لجنة العمل من أجل أرض إسرائيل، التي أسَّسها عددٌ من أثرياء يهود الإسكندرية على رأسهم «فليكس منسه»، و«ليون نحمياس»، و«جوزيف إيلي بيشوتو»، وقد سُجِّلت رسميًا على أنها جمعيَّة خيرية تنشط في

الأعمال الإنسانية.

انشغلت في الكتابة لعدد من الصُّحف المصرية، أكتب فيها موقِّعًا بالحروف، متحدِّثًا عمَّا لاقاه اليهود في تاريخهم الذي عاشوه في أوربا يُضطهَدون ويهانون، وأنتقد ما تناولتهم به الرِّوايات الأدبية وعلى رأسها روايات «شكسبير»، مستشهدًا بمواقف اليهود في مصر، هؤلاء المنسجمون في النسيج الاجتماعيِّ المصريِّ على الرغم من اختلاف جنسيَّاتهم، وأن الفضل متبادلٌ بين طرفين يمثِّلان الرُّوحَ الوطنية المنسجمة؛ فاليهود في مصر يبذلون ما يستطيعون لأجلها، وأيضًا في المقابل مصر تمنحُهم الامتيازات والرُّتَب والمناصب، كما تمنحهم الحمايةَ والرِّعاية.

وفي المجلَّة الصِّهيَونيَّة كنت أكتب بالفرنسية، مؤكِّدًا فكرةَ القومية، هذه الفكرة التي لا بدَّ أن نأخذَها بعين الاعتبار، مع اليقين أنها هي الحلُّ الأمثل لكلِّ المشكلات، ولا يمكن لإنسان أن يعيشَ مشرَّدًا بلا وطن، تحكمه أُطُر ومعايير لا يتدخَّل فيها غيرُ أبنائه الذين تحكمهم عقيدة.

تناولت في أكثر من عدد الصِّهيَونيَّة كونها العقدةَ المتينة التي صهرت الإسرائيلية واليهودية في سبيكة واحدة، ازدادت قوَّة مع المرونة التي تكفُل لها التكيُّفَ مع كلِّ العوامل، متخلِّصةً من بقايا الماضي الذي زرع في القلوب أشواكَ الغربة والاغتراب.

كنَّا جميعًا نفضِّل الكتابة بالفرنسية؛ لأن أكثر أبناء الطائفة يجيدونها، والقلَّة من المصريين يعرفونها، فكنَّا نضرب عصفورين بحجر واحد، نوصل أفكارنا للإسرائيليين في مصر من ناحية، ومن ناحية أخرى نختبر تقبُّلَ المصريين لفكرة الصِّهيَونيَّة، وقد تأكَّد لي عامل مهمٌّ جدًّا وهو التكرار، فمن الضروريِّ التكرار في أعداد متتالية لنفس الفكرة، لكن في صياغات مختلفة وأثواب ملوَّنة، وقد نجحت هذه الطريقة، ولاحظنا أن المصريين يتقبَّلون الموضوع ضمن ما يتقبَّلون من أمورهم الحياتيَّة المزدحمة بالهموم والفقر والآمال، خصوصًا أن الكثير من أعمدة الفكر والنزعة نحو إسلاميَّة شمولية بدأت تخفِتُ في ظلِّ معطيات المرحلة الراهنة.

الصُّحف التي كانت ترفع شعارات الخلافة العثمانية أغلقت اليومَ أفواهها بعد أن تناولت بقيَّة الصُّحف أخبارَ استسلام تركيا وقبولها بالهُدنة بلا شروط، فـ«الوطن» تنقل عن الصُّحف البريطانية هذه الأخبار، وباقي الصُّحف أقامت منذ اليوم التالي لإعلان الهُدنة الاحتفالات بناءً على ما يُشاع في البلاد من أن إنكلترا هدمت ذلك السُّورَ الفولاذيَّ الذي حجب الشَّرقَ عن الحضارة والعلم والمدنيَّة، وأغرقهم في أوحال الجهل والفقر.

كلَّ يوم أجدني أقربَ إلى تحقيق ما نويت تحقيقه، الصُّحف قليلة بسبب حظر النشر، وقلَّة الورق، والناس يتهافتون عليها في

هذه الأيام، يجرون وراء أيِّ صحيفة تقع في أيديهم؛ ليتابعوا ما يجري خارجَ مصر وداخلها، بل إنني رأيت رجلاً لا تبدو عليه أيُّ علامة من علامات العلم أو المعرفة، يستوقف بائعَ الجرائد؛ ليشتريَ منه واحدة، وبعد أن أخذها دسَّها في جلبابه، سألته ما إذا كان يعرف القراءة، فأجاب بأنه اشتراها ليقرأها له أيُّ أفندي يعرف القراءة، وسيحتفظ بها إذا كانت تحمل أخبارًا عن زوال الغُمَّة.

هذا منبِّه خطر بالنسبة لواحد مثلي، فحتى الجهلة يهتمُّون بالجرائد في المصائب والملمَّات، المصريون بطبيعة حالهم يتميَّزون بذكاء فطري، ولا ينقصهم لأن يسودوا العالمَ إلا أن يستعيدوا ثقتهم في أنفسهم، وهم بالفعل يسعَون إلى ذلك، وعلى استعداد لتغيير حتى ملامح وجوههم وجلودهم؛ ليجدوا العزَّ قد عاد إليهم بالحرِّية.

في الغروب أحببت أن أتمشَّى في (كوبري) قصر النيل، هناك يجلس كثيرٌ من العوامِّ والباعة والفلَّاحين الآتين ببضاعة يسوقونها، حداني فضولي أن أسألَ رجلاً كان بصمته يحكي للنيل حكاية، أحببتُ أن أسأله، بل رأيت أن أخيِّرَه بين قيراطَي أرض أو ما ينادون به من الحرِّية وطرد الإنكليز، تفرَّس الرجلُ في وجهي قائلاً: أنت (خواجة)، ماذا تريد منَّا؟ أقنعته أنني مصري، وأحببت أن (أدردشَ) معه، وجلست إلى جواره على

الأرض، فأخبرني أنه يريد أن يبقى أجيرًا في بلد ليس فيها إلا المصريون؛ لأنه في هذه الحالة سيخدُم بلده، ولا يخدُم المحتلِّين.

تعجَّبت من أمره، إنه في كلِّ الأحوال أجير عند مالك الأرض الذي يستعبده، حتى لو خرج الإنكليز، لكنَّ فكرة التحرُّر تلبَّسَتهم حتى صارت جزءًا لا يتجزَّأ منهم، فلم يعودوا ليرَوا شيئًا إلا خروجَ الإنكليز ومنحهم الاستقلال! ولا أعتقد أن هذا الرجلَ يفكِّر بمرحلية أو وَفق تخطيط ما، كما يفكِّر السَّاسة وأصحاب القرار، ولكنَّه لم يعبِّر عن دين، لم يذكر دينه أو دينَ الإنكليز أو ديني، فقط ألفاظ: خواجة... مصري... احتلال.

(١٧)

وصلت إلى شقَّة سارة، فاستقبلتني بحفاوتها المعتادة.. بنيامين صار قادرًا على المشي، إنه يشبه أباه كثيرًا، إلا أنه استأثر من سارة بعينيها الجميلتين، استقبلني عند الباب بضحكاته الجميلة الصافية، عاتبتني أختي؛ لأنها منذ مدَّة طويلة لم ترَني، وصارت تعرف بعض أخباري من ديفيد الذي صار مشغولاً هو الآخر.

سارة يبدو عليها حزنٌ لم تخبرني بعدُ عن سببه، سألتني إن كنت أريد أن آكل، لكنَّني لم أكن أريد، فأحضرت لي كوبًا من الشَّاي، ومعه بعض المخبوزات الإفرنجية، وجلست ساهمةً على غير عادتها، سألتها عن أسباب الحزن الذي أراه في قسَماتها، فتهرَّبت من سؤالي، ملقيةً عليَّ عددًا من الأسئلة عن معيشتي، وتطوُّر أحوالي.

كنت أريد أن أحكيَ لها عن كلِّ تفصيلات اللقاءات، وما

يجري ويدور، ولكنّي انتبهت إلى أنها تداوم على قراءة الصُّحف، وتجيد تحليلَ الموضوعات التي تقرؤها. بنيامين لا تهدأ حركته، ولا تنتهي نداءاته، خرجت من المطبخ بنتٌ في عمر العاشرة دون تنبيه، نظرتُ في وجهها، وضَّحت سارة أنها خادمةٌ أتى بها ديفيد منذ أيام لتساعدَها في أعمال البيت.

سارة تبدو أنيقة، وشقَّتها ازدادت جمالاً عن ذي قبل، أبديت إعجابي بأن يكونَ في بيتها خادمة، موضحًا أن هذا في صالح بنيامين؛ كي تلعبَ معه، سارة تريد أن ترى ابنها إنسانًا مختلفًا عنَّا، تحلم أن ترسلَهُ في يوم من الأيام إلى أكثر الدُّول تقدُّمًا؛ ليدرسَ ويعيشَ هناك، كانت تتكلَّم وهي تمسح على شعره الأسود الناعم الجميل، الماضي يلوحُ في عينيها، يقيني أنها تذكرُ تلك الأيام في الحارة، وتذكر الفقرَ الذي كان يبخل علينا حتى بكِسْرَة خبز نبلِّلها بالماء:

- لكنَّ الحال تبدَّلت بمجرَّد موت أبي يا سارة!

فغَرَت فاها دهشةً لما تلفَّظتُ به وأنا أرفع كوبَ الشَّاي إلى فمي، متسائلةً عمَّا قلت، فأعدتُ عليها ما قلت بأن الحال تغيَّرت منذ مات أبي، والفقر لن يعودَ ليطرقَ بابنا مرَّة أخرى، كنت كمن فتح عِقالَ نهر أراد أن يتدفَّق، فانطلقت تتكلَّم، أميرة هي سارة كما اسمُها حين تضع ساقًا فوق ساق، مسندةً ظهرها إلى ظهر مقعدها الوثير، تنظر في عينيَّ، وتتكلَّم متذكِّرةً تلك

الأيام التي كان يعود فيها أبي سعيدًا على غير عادة أيامه، وينتحي بهذه السعادة جانبًا في غرفته قبل أن ترجعَ أمي، ويُدَندن بأغانٍ مصرية، ثم يخرج بثياب غير التي دخل بها، غير ثياب الكدح والمشقَّة، والتنقُّل بين الشوارع والأزقَّة والبلاد، سعادة أبي تعني أنه سيعود حاملاً طعامًا غير معتاد، وحقًّا كان يفعل، لم نكن نعرف من أين يأتينا به؛ فالأمر لا يهمُّنا، المهمُّ أن أبي هو الذي جلبه، لم أفكر يومًا في مصدر هذا الطَّعام والحلوى التي كان يرجع بها.

سارة تتكلَّم، والأفكار تقتحم رأسي، مستحضرًا ذكرياتي (البسيطة) في تلك الأيام، عادًّا الأثوابَ التي أملكها، فلا أجد أن العدَّ له فائدة، فما هي إلا خِرَقٌ بالية، في كلِّ عام يندسُّ فيها زائرٌ جديد رماديُّ اللون كسابقيه، أكملت سارة والحزنُ لم يغادر وجهها، ساردةً ما تريد أن تتكلم به وكأنني لست حاضرًا.

كنت أحسُّ أن الأمر بالنسبة لسارة ليس مجرَّد رغبة في الحكي والكلام، وإنما قدومي حرَّك فيها أشياء، وهناك ما تريد أن تبوحَ به حقًّا، ولماذا أتت بسيرة أبي؟ أبي؟! هل جاءها في حلم هي الأخرى؟ ربما، هل هذا ممكن؟ باغتُّها بالسؤال، إن كان أبي جاءها في الحلم، فانطلقت منها الضحكات، أثناء قيامها واقفةً تتجه إلى البار، مناديةً باسم الخادمة أن تأتيَ بالثلج، قمتُ عن مكاني أنا الآخر، واتجهت إليها، وقد اتسعت

عيناها، وازدادت لمعانًا بفعل الضَّحك الذي رسم على بابيهما عناقيدَ من الدَّمع الرَّقيق:

- وهل أتاك أبوك في الأحلام يا إيزاك؟

ارتسم الحلم بأكمله أمام ناظري، وكدتُّ أسردُه لها، ولكنَّني اكتفيت بأن أقول:

- مع الأنبياء.

ويحَ سارة! لقد انفجرت في الضَّحك هذه المرَّة، ناعتةً إيَّاي بالمجنون، شعرت أنني أبتسم ابتسامةً بلهاء لا تعبِّر عن أيِّ شيء؛ لأنني حقًّا لم أكن أعرف أيَّ المشاعر أريد إظهارها، فلماذا أنا مجنون؟

أنت رأيت أباك مع الأنبياء؟ وماذا كان يفعل بينهم؟ كانوا يريدون أخبار الدُّنيا التي حملها معه؟ ماذا تقصد هذه البلهاء؟ مدَّت يدها بكأس لي، فتناولتُه وأنا أنظر في وجهها؛ لعلِّي أفهم شيئًا، خصوصًا أن كلمة الأخبار شغلتني، هل لهذه العبارة علاقة بصامويل إسرائيل الذي كان يلتقي بأبي؟ هو الصحفيُّ الوحيد الذي عرفت أن علاقةً كانت تربطه بأبي، لكنِّي لم أهتمَّ بتفاصيل هذه العلاقة، على اعتبار أن أبي قد مات، حاملاً معه كلَّ علاقاته، كما أن صامويل لم يُبِن لي عن أيِّ مشاعر، ولم يكلِّمني على تلك العلاقة... أخذت بيد سارة لنجلسَ في أماكننا، فاستجابت قائلةً:

- يبدو أن الزَّمن يا إيزاك يخفي أشياءَ يخرجها في أوقات تخصُّه هو، ولا تخصُّنا نحن.

- ماذا يا سارة؟

- أبوك الذي زارك في حلمك، الذي يجلس، أو كما تقول يعرف الأنبياء.

- بل كانوا حوله، استقبلوه استقبالَ الفاتحين وحوله أيضًا الغلمان الصِّغار، والبنات اللاتي قدَّمن له ملابسَ فاخرة، وامرأة حمَّمته خلف أشجار في معزل عن العيون.

- أكلُّ هذا أُعدَّ لأبيك؟ يبدو أن أحلامك شطحت بك لترى أباك وليًّا، أو ربما سنحتفل به قريبًا حين يأتينا على حصان أبيض، وفي يده مفاتيح «أورشليم»، أو يخلِّص اليهود كما يفعل أولياء الله من المسلمين الذين ماتوا، لكنَّهم يأتون في الأزَمات، هل سنقيم لأبيك ضريحًا ومحرابًا يا إيزاك؟

يبدو أن سارة تتعرَّض لضغوط شديدة؛ لذلك تتكلَّم بهذه الطريقة، لا بأس، فلتتهكَّم كما تريد، أحبُّ كلَّ شيء من سارة الغالية، بكى بينامين، نادت الخادمة لتأخذَه إلى الدَّاخل، فهي لا تريد سماع أيِّ بكاء.

- ما بك يا سارة؟ وما الذي أوصلك إلى هذه الدَّرجة.

- قدَرك أنك أتيت لتعرف.

- وماذا أعرف؟

- تعرف حقيقةَ والدنا، إن كانت هي الحقيقةَ الوحيدة.

ماذا تقصد يا تُرى؟ وماذا تعني بالحقائق؟ هل مات أبي ليتركَ لنا الألغاز والأحاجيَّ؟ وأي ألغاز يتركها من كان في وضع أبي وفقره وتجهُّمه الدائم؟ هل هناك غير الذي أخبرتني به أمي من موضوع موسى الخمَّار؟ هل هذا ما تقصده سارة؟ لو أن هذا ما تقصده، فهل يستدعي كلَّ ما هي فيه من حزن وهذَيان واستهزاء؟!

ارتشفت سارة من كأسها كأنها تتجرَّع السَّم، وحالتها تزداد سوءًا... هل كانت تنتظرني لأعيشَ معها هذه الحالة؟

فتح ديفيد الباب داخلاً، تفاجأ بوجودي، فرحَّب بمرحه المعتاد سائلاً: لماذا لم أخبره أنني سآتي، أجبتُه أنني لم أكن أنوي، لكنَّني اشتقت إلى سارة وبنيامين، فأتيت، كرَّر ترحيبه بي، واستأذن في أن يدخلَ ليبدِّلَ ملابسه.

- بل تعالَ واجلس؛ ليعرفَ ما لا يعرف، أليس ابنَه؟ أليس العبقريَّ الذي تتعلَّق بعقله الأحلام الإسرائيليَّة في مصر؟ أليس هذا ابنَ يعقوب القمَّاش؟

- ما بك يا سارة؟ وهل هذا وقته؟ ألا ترينني عائدًا تعبًا؟

أنا في دهشة وحَيرة من كلِّ ما يحدث، ما الأمر الجلل الذي

أحدث الخلافَ بينهما إلى هذه الدَّرجة؟ لكنَّها قاطعتني بحدَّة:

- هل تريد أن تكونَ كأبيك؟ ألهذا يجهِّزونك؟ تريد أن تنضمَّ للأنبياء؟

ويحَ سارة! تحفر لي بئرًا عميقةً ترجع صوتي رنَّانًا كلَّما ناديت فيها، ولا شيء غيرُ صوتي، جلس ديفيد بعد أن أتى بكأس ملأها لحافَتها، هامسًا إلى سارة، راجيًا أن تهدأ، فالأمر لا يستدعي كلَّ هذا، بل يوجب الفخر.

فخر؟ ما الأمر الذي يراه ديفيد موجبًا للفخر، وتراه سارة موجبًا لكلِّ هذا الحزن؟

وقفت سارة بيني وبين ديفيد متذمِّرةً، ضربت الأرضَ بقدمها بعنف شديد، قفزت عدَّة قفَزات لتغلقَ الغرفة على بنيامين والخادمة.

«نادية» مسلمة مصرية، لكن مهما يكن فالأمر لا يستدعي إغلاقَ الباب؛ فلن تفهمَ ما نقول، فلا علم لها بالفرنسية... عادت سارة لتقفَ في نفس مكانها السَّابق سائلةً إياي:

- ألم تسأل نفسك مرَّة عن العلاقة التي تربط شابًّا ثريًّا أنيقًا يعمل في الصِّحافة ببائع أقمشة جائل؟ ألم تسأل نفسك عن الأطعمة والحلوى التي كان يأتينا بها أبوك ولا نعرف مصدرَها؟

ما بها تعقِّد لي الأمور التي يجب ألا تتعقَّدَ هكذا؟ ولماذا لا

تدخل في الموضوع مباشرة مهما كان؟

- قولي يا سارة ولا تحرقي دمي أكثر، ولا تحرقي أعصابك أكثر.

- أعصابي؟ وهل يشعر بي أحد؟ يهوديت.

سقط اسم يهوديت في أذني كأنه عيارٌ ناري، ما العلاقة بين والدي ويهوديت؟ ما بها هذه البلهاء؟ هل لعبت الخمرُ بعقلها فلا تعرف ماذا تقول؟

- يهوديت أخبرتني بكلِّ شيء، ويا إيزاك يعقوب القمَّاش، لم تكن تدري منذ تعارفنا أننا أبناء يعقوب القمَّاش الذي كان يتردَّد على بيتهم.

ديفيد وضع رأسه بين كفَّيه، وأنا فاغرٌ فمي، متناقضة مفاهيمي في هذه اللحظة، أترقَّبُ ما ستبوح به سارة مكملةً كلامها، هل كان أبي يعرف يهوديت وأباها؟ خفَّفتُ عن نفسي بأن الأمر لا غرابةَ فيه؛ فكلُّنا يهود.

- أبوك كان يعمل لحساب يهوديت، يعمل جاسوسًا.

انتفضت واقفًا، والنار تشتعل من أخمص قدميَّ إلى رأسي، أبي جاسوس؟ بجهله وفقره وتجهُّمه؟ جاسوس على من؟ على الفقراء؟ أم على المسلمين؟

- ماذا تقصدين؟

- أبوكَ كان يتجسَّس لحساب جماعة يهودية تتابع شؤونَ اليهود الذين تغريهم حركات التبشير المنتشرة في مصر، ولمَّا كان الذي جاءك مع الأنبياء جوَّالاً يعرف هذا وذاك ويدخل البيوت، عمل جاسوسًا لحساب هذه الجماعة التي منها والد يهوديت، ومنها صاموئيل.. قاطعها ديفيد قائلاً:

- لك أن تفخَري أن أباك كان يهوديًا حقيقيًا، وكان حريصًا على الطائفة والدِّين الذي لا بدَّ أن نعيشَ عليه ونموتَ عليه. ويحَ زوجة «ميخائيل»!

انفجرت سارة باكيةً تنتحب، ما زلت لا أفهم، أو أنني لا أريد أن أفهم.

- مَن ميخائيل؟

قام ديفيد يحتضن سارة التي أوَت إلى صدره ببكائها ونحيبها، وهو يعبث بشعرها، ويربِّت ظهرها مهدِّئًا، ويقول:

- بل أبوك بطل سيذكر له الربُّ ما فعل، اهدئي يا حبيبتي.

- ماذا فعل أبي يا ديفيد؟

- اصبر يا إيزاك، واهدأ، إنها سارة رقيقة القلب كما تعرفها، سارة الحالمة الطيِّبة النقيَّة.

جلسا، وقد بدأت سارة تُكَفكِفُ دمعها، في حين بدأ ديفيد يسرد الحكاية، أما أنا فكنت أتمنَّى أن أنزع عنِّي ملابسي،

وأُلقي بنفسي في المَغطِس.

- ميخائيل هذا رجلٌ من عامَّة اليهود، كان يعيش في بلدة تبعد عن القاهرة عدة كيلومترات، قرية للمسلمين، وكما تعرف لا بدَّ للطائفة أن تعرفَ كلَّ أخبار اليهود، خصوصًا الذين يعيشون في مناطقَ بعيدة عن المعابد، وكان أبوك مكلَّفًا أن يتابعَ أخبارَ بعضهم، وحسب رواية يهوديت إن أباك علم أن هذا الرجلَ اعتنق الإسلام سرًّا، هو لم يخبر أباك، لكنَّ زوجته أخبرته حين كان في زيارة لهم، فأبوك كان صديقًا لهما أكثر من كونه بائعَ أقمشة، وكانت ترتاح له الزَّوجة وتُفضي إليه، ولم تكن مرتاحةً لتبدُّل أحوال زوجها الذي اندمج مع المسلمين بصورة لفتت انتباهها. وما كان من أبيك إلا أن أبلغَ السيِّد «جاك» والد يهوديت، فطلب منه أن يأتيَهُ بميخائيل... أقنع أبوك ميخائيل أن يأتيَ إلى القاهرة ليقضيَ معه يومًا، فلم يتردَّد الرجل وأتى، فجمعه بالسيِّد جاك الذي تودَّد إليه، وأعطاه بعضًا من المال؛ ناصحًا إياه أن يهتمَّ بدينه وعياله.

كان يحكي وأنا دهشٌ لما فيه سارة من حزن وأسًى، أبي رجل طيِّب، وأدَّى مهمَّة عظيمة.

أكمل ديفيد يقول: وتابع أبوك أمرَ ميخائيل، ولمَّا علم أنه انخرط مع المسلمين وأظهر إسلامه، أبلغ السيِّد جاك، الذي لم يتردَّد في أن طلبَ من أبيك قتلَ الرجل؛ حرصًا على الدِّين،

وحرصًا على الطائفة التي يمكن أن ينفلتَ منها الواحد تلوَ الآخر، اعترض أبوك على هذا الأمر في البداية، لكنَّه اقتنع بحُجَج وإيضاحات السيِّد جاك، ونفَّذ المهمَّة مع موسى الخمَّار، ولم يتركا أيَّ أثر لما فعلا.. مات الرجل غارقًا في ساقية، وانتهى أمرُه.

حين ذكر موسى كانت صاعقةً لي، حتى فعلة أبي لم تهزَّني مثلما هزَّني ذكرُ موسى، ما به هذا الموسى الذي تتكشَّفُ لي أسرارٌ بينه وبين أبي حينًا بعد حين؟ ألهذا السبب كان أبي يقضي عنده الأوقات؟ فما الذي قصَّته عليَّ أمي؟ رأسي صار كخليَّة نحل في أقصى حالات نشاطها، كلُّ شيء يتداعى لعيني، وأعصابي شبَّت فيها حرائق، أريد أن أقضِمَ لساني، بل أريد أن أعضَّ على قضيب من فولاذ، صاعقة تصمُّ أذني.

واضعًا يدي اليمنى في جيب بنطالي وقفت، واتجهت إلى الشُّرفة، ظلام الليل لا تؤثِّر فيه النجوم المتناثرة، إنها بعيدة جدًّا، لكنَّها تلمع ككلِّ العبارات الطيِّبة التي أعرف، والتي توارت في عَتَمَة غمِّي، لماذا سارة حزينة؟ يهوديٌّ خرج عن الملَّة ولم يرتدع، فماذا تنتظر؟ أن يُذلَّ المحمديون اليهودَ بأن منهم رجلاً ترك دينه إلى دينهم؟ يستحقُّ أبي أن يكونَ مع الأنبياء، ويستحقُّ أن نحتفلَ به.. ولِمَ نحتفل به؟ إنه قبل وبعد كلِّ شيء قاتل، آه منك يا موسى! ماذا تخفي الأيام من بعد؟ لا

أريد أن أعرف.

خرج إليَّ ديفيد، ووقف ينظر إلى السَّماء هو الآخر، فباغتُّه بالسؤال:

- كيف عرفت يهوديت بالأمر؟

- يهوديت تعمل معهم يا إيزاك، وكذلك صاموئيل، إنهم يكرهون كلَّ ما يتصل بالإسلام والمسلمين، ويريدون أن يكونَ كلُّ العالم يهوديًّا بأي ثمن.

- يهوديت تعمل في جماعة للتصفية الجسدية؟

- لا، لم أقل هذا، وإنما هي جماعة لتنقية اليهودية والحفاظ على العِرق الإسرائيلي.

- إنها هي.

- ماذا؟ من هي؟... انتظر يا إيزاك.

خرجت من الشقَّة، ومن خلفي نداءات ديفيد... أريد أن أركضَ، أن تُطوى لي الأرض، أن يحتدَّ نظري فأرى كلَّ شيء في العالم، أن أرى الماضيَ والمستقبل، وأن أرى ما في عقول الناس وقلوبهم، أنا أريد أن أخترقَ السَّماء، أن أصلَ إلى الربِّ الذي كتب علينا ما نحن فيه، لماذا لا ينزل إليَّ ويأتيني بإشارة؟ ألا يفعل هذا مع كلٍّ من يفي لعهوده، ويقدِّس أرض إسرائيل

ويسعى لإقامة هيكله؟ ألا يتنزَّل إلا في الصحراء؟

أيها المتواري خلفَ الحجُب وتتركنا للأسرار والألغاز، ألا تخبرني إن كان ما فعله أبي خطيئةً أم مكرمةً من مكرمات محبِّيك؟

وصلتُ إلى «مزراحي»، الليل كما الليل، الحارة هي الحارة، الناس فقط يتبدَّلون، في نفس المكان وقفت، لكن على اختلاف الحال، فأنا أستطيع الآن أن أدخلَ وسأقابَلُ بالاحتفاء، لن يراني من فيها متسوِّلاً أو شحَّاذًا، وسنِّي تسمح أن أناخبَهُم الكؤوسَ وأجاريَهُم في الأحاديث، هناك راؤول وكوهين وسوسو، نعم هي يهوديت، تلك التي أتت إلى هنا ليلةَ مات أبي، كم أنا غبيٌّ! كيف لم أعرفها؟

- كان شرودك تلك الليلة يُلهيك عن كلِّ شيء.

- بل أمعنت فيها النظر.

- وها أنت ذا عرفت، هي يهوديت.

- وهؤلاء جماعة قتلة؟

- هم المحافظون على دينك ودين الأنبياء الذين كانوا مع أبيك في أحلامك.

- ألهذا قال لي أبي وهو يصفعُني: لن نبقى هكذا؟

- ربما...

- أكاد أُجَن، أريد أن أعرف: كيف أكون حلمَ إسرائيل وفهمي ناقصٌ إلى هذه الدَّرجة؟

- من أراد أن يفهمَ كلَّ شيء لن يفعلَ أيَّ شيء، الأنبياء مكلَّفون رسالةً محدَّدة، لا يفكِّرون إلا فيها.

- للمسلمين نبيٌّ واحد، وها هم أولاء كثرةٌ كاثرة.

- والذين يمجِّدونهم وينسَون كتابهم ليكونَ كلامهم هو القانون، أليسوا أنبياء؟

- لا، ليسوا أنبياء.

- فليكونوا أنبياء يا إيزاك، لنجعلهم أنبياء، لنبعثهم فيهم بأديانٍ جديدة لم يعرفوها من قبل.

- أتريد أن تنتقمَ منهم؟

- من قال أنتقم؟ أريد أن أتمَّ الرسالة.

- يقولون: إن التَّوراة تقذف بنبيِّهم.

- أتريد أن تكونَ من رعاياهم تدفع الجِزيةَ وأنت سيِّد الأرض؟ أنسيتَ عهود الرب؟

- القتل؟

- إن كان القتل هو السَّبيل، فالربُّ أرسل الأنبياء يقودون جيوشَ إسرائيل.

- إنها يهوديت.

- وغيرها كثيرون وكثيرات، لتحقيق الحلم أدوات، وللنَّار حطب وكبريت، ومن يُرِد تحقيق حلمه لا يقف عند صغائر الأمور، تعلَّم يا إيزاك، تعلَّم.

الأفكار تقتحم أوردتي وشراييني، الضحكات تنبعث من كلِّ مكان، من كلِّ بيت، الناس ما عادوا ينامون منذ علموا بهزيمة ألمانيا، العسكر الإنكليز أوَوا إلى الخمَّارات و(البارات)، وتركوا أماكنَهُم في الشَّوارع، ألا يخشَون من أيِّ حركات تخريبية يقوم بها الموالون للدَّولة العثمانية ولألمانيا؟ الذين هزموا ألمانيا لا يخافون من الشَّيطان، من أين يأتي هذا الصَّوت؟

رفعت رأسي أتفقَّد الأماكن، إنه يأتي من شقَّة مسلم، ويحَ المسلمين! لقد جعلوا من أبي قاتلاً، لماذا لم يقتلهم هم ويترك اليهوديَّ لأبنائه؟ الشوارع تحملني وتحطُّني، ضحكات نساء تخرج من بين الشُّقوق، تُرى أيُّ مكيدة تُدبَّر؟ وأيُّ شرٍّ يُحاك؟ أتضحك لمن معها؟ أم تضحك عليه؟

أم عماد امرأة تحفظ بيتها، لا أذكر أن أمي قصَّت أيَّ أمر يخصُّ زوجها، أو أيَّ أمر يؤخذ عليها أو على بيتها، ما أذكره أنها محتشمة في بيتها، حتى وهي تستقبل أمي، زوجة ميخائيل هي التي وَشَت به، يهوديت تضع النساء أهمَّ مقوِّمات الأدوات

التي نبني بها الوطن، لا بدَّ أنها كانت تعني أيضًا ما نهدم به أيَّ وطن!

نعم، بالنساء يذهب مجد أيِّ أمة، وذهب بالمرأة ميخائيل، لماذا مات أبي؟ هل مات ليتركَني في هذه الحَيرة أواجه المصير؟ نور الصُّبح بدأ ينبلج من حُجَر الليل، المآذن تبدو لي اليوم كالأشباح، ليست المنارات التي أرى، إنها جنودُ المسلمين، ها هم أولاء يحتشدون ليمتلَّكوا الأرضَ من جديد، هم دائمًا يبنون المآذن؛ ليشعُروا أنهم يمتلكون مع الأرض السَّماء.

- السلام عليكم.

- وعليكم.

أي سلام يلقيه عليَّ هذا العائدُ من المسجد، لماذا بقيَ فيه حتى بزغ النهار؟ هؤلاء المتسكِّعون المتنطِّعون يريدون من يعيد لهم ما أضاعوه، ماذا يعرف هذا عن دينه، وعن علمائهم الذين ماتوا، وعن تاريخ دولتهم؟ هل سمع بمجالس الخمر والنساء في قصور خلفائهم؟ أم هل سمع بأشعار اليهود التي كان يسعى إليها أثرياؤهم، ويدفعون فيها الذهب والفضَّة؟ ويقولون عنَّا: إننا كالحمار يحمل أسفارًا، فماذا هم؟ وماذا يحملون؟ وإن كان منهم من يحملون، فإلى متى وكلُّ التيَّارات والفلسفات صارت تغزوهم؟

هذا لا يكفي، لا بدَّ أن يبحثوا في كلِّ الدفائن القديمة، أن يصيرَ يومهم مشحونًا بما يصرفهم حتى عن التسبيح الذي يلهَجُون به، آلاف الوسائل لإلهائهم، ها هي ذي الحرب تنتهي وأفرُغ لكم.

أم عماد تقيَّة ورعة، تصون زوجها وأسراره، وزوجة اليهوديِّ تفضحه عند رجل غريب ليقتلَه! سارة غاضبة، يهوديت تسبَّبَت في غضبها، يهوديت امرأة... موسى... كانوا يمنُّون على أبي بطعام وحلوى ملطَّخة بالخيانة والدِّماء؟

- دم يهوديٍّ خرج عن الملَّة يا إيزاك، خائن.

- زوجته الخائنة، المرأة نجس وخبث، وبؤرة الرَّذيلة، والرجل الحقُّ هو من يستعبد النساء، فمكانها الطبيعيُّ تحت قدميه، ألا يُعزَلنَ في حيضهنَّ هؤلاء النَّجسات الناقصات؟

وصلت إلى بيت الجمَّاليَّة، فتح لي ليشع.

- أحضِر لي فتنة حالاً.

- أمرك.

ارتميت على الأريكة كعادتي ألقي ثيابي عنِّي، أريد المَغطِس، أريد حلمًا يخرجني مما أنا فيه، ألقيت في الماء كلَّ الورود التي في البيت، سكبت فيه عطرًا، غطست حتى غمرَ الماء رأسي وأنفي، إلى متى تستطيع أن تحبسَ أنفاسك؟ أريد

أن أحبسَها حتى أعبرَ الكون إلى السَّماء. . . طرَقات على باب الحمَّام.

- اذهبي وأعدِّي لي فطورًا وقهوة.

- ألا تريد شيئًا آخر؟

- أحضريه لي في غرفة النَّوم.

وقع أقدامها على الأرض يُشعل حربًا في رأسي، دائمًا تريد أن تتجاذبَ معي الحديث، لحساب من تعمل؟ هل تريد استدراجي؟

الطنطاوي وضعها هنا لتكونَ عينًا عليَّ؟ أنا لم أبدِ أيَّ إشارة أنني قد أعتنق الإسلام ولا غيره أبدًا، فلماذا هي هنا؟ ولماذا تحاول استدراجي إلى أن أحكيَ لها؟ بل لماذا أنا هنا؟

خرجت من المَغطِس، وبينما أرتدي ملابسي سمعت وقعَ أقدامها عائدةً، مرَّت بالحمَّام نحو الغرفة، وضعَت الطعام وجلست في مقعد مقابل للذي سأجلس فيه، هي تعرف أنني أحبُّ أن أواجهَ الشُّرفة المفتوحة لوجهي، جلست ليكونَ وجهها مقابلاً لي، ليس وجهها فقط، بل هذا الجسد الخبيث الذي صار يتفجَّر يومًا بعد يوم منذ مرضي، جلست والجوع يسبقني، أريد أن ألتهمَ كلَّ ما في الأرض حتى أوراقَ الشجر، أراها تتأمَّلني وأنا ألقي بالطَّعام إلى فمي كما يُلقَى بالخشب في النَّار،

تتعجَّب من أفعالي التي لم ترَها من قبل، سألتُها:

- هل تدخلين بيوتَ المسلمين؟

- أدخل بيوتًا كثيرة، وأعرف فتيات من كلِّ الطبقات.

- ولماذا تذهبين إليهنَّ؟

- عندي ما لا يجدنَ عند غيري.

ضحكت ضحكتها التي لا تُطلقها إلا حين انتشاء.

- وما الذي عندك؟

- ولماذا تريد أن تعرف؟

- وكيف ترَين أحوال المسلمات؟

- يبحثن عن كلِّ جديد وغريب.

- عجيب هذا الأمر، لا أشعر بهذا حين أراهنَّ في الشارع.

- ليس كلهنَّ يا حبيبي، فقط اللائي ندخل حياتهنَّ.

نظرتها لم تترك مجالاً أن أفكِّر في أيِّ شيء غير صحَّة رأي يهوديت من أن النساء أحدُ أهمِّ الدعائم، بل السِّلاح الفاعل الذي يقيم ممالك أو يهدم ممالك.

- أعدِّي لنا قهوة أخرى يا فتنة.

- لنا؟

- نعم لنا، سأشرب القهوة معك اليوم، أخبريني، لماذا

سمّوك فتنة؟

التفتت من خلف كتفها رافعةً شعرها قائلة: ألا ترى؟! فتنة هو الاسم الذي أطلقه عليَّ أحد السَّادة الكبار، ومن يومها اسمي فتنة، أحببت هذا الاسم جدًّا؛ لأنَّه أنا.

نزلت معها، سنشرب القهوةَ في الحديقة، أريد أن أكونَ في مكان أفسح من الغرفة، دخلت معها المطبخ، أريد أن أسمعَ منها كلَّ التفاصيل، تمشي أمامي، تستحقُّ أن يكونَ اسمها فتنة، هل تعلم بنات المسلمين هذه المشية؟ هذه القُدرة على إرسال طاقة الرَّغبة في الرِّجال؟ أوقدت نار الموقد بخفَّة، مدَّت يدها إلى عُلبة البُنِّ، مزيحةً علبة السكَّر.

- هل تشربينها مُرَّةً؟

- أنا والسكَّر لا نجتمع.

ما بها اليوم هذه الفتنة، هل تقرأ دواخلي؟

- أنتَ أيضًا والسكَّر لا تجتمعان، أما أخبرتك أن النساء يكنَّ بين يديك جواري؟

اقتربت جدًّا منِّي وأنا دهش لتكرار هذه العبارة، تذكَّرت حين لم أفهمها يوم قالت: ولا حتى الحمَّام؟ الآن نحن في المطبخ... النار مشتعلة تحت رِكوَة القهوة، أولتني ظهرها... اقتربتُ منها جدًّا... همست: الآن؟ فارت القهوة، وأطفئت

النيران... لم أعرف كم مرَّ من الوقت، كلُّ ما أعرفه أنها لم تكن معي وحدها، بل كانت هي ويهوديت تتبادلانني، في حين طيبة و«رحيل» تقفان خلف النافذة المطلَّة على الحديقة ترقبان وتتهامسان في دهشة.

مضيتُ إلى الحمَّام، استلقيت في المَغطِس، تنتابني مشاعر متناقضة، ذلك الحلمُ الذي أنهكني، كانت معي فيه يهوديت، فتنة أشهى منها في الحلم، كلٌّ من الحقيقة والحلم له لذَّته، لمَ سلَّمت لي نفسها؟ هل كان هذا يوم أُصبتُ بالحمَّى؟

أهذا ما تقصده بقولها: ولا حتى الحمَّام؟ ألهذا تراني أمتلك ما أسودُ به النساء؟ لمَ فعلت هذا؟ هل أنا مَن استدرجها؟ أم هي استدرجتني؟ هذا ما تعلِّمه لبنات المسلمين؟

وقع أقدامها يخبر أنها عادت، توجَّهَتْ إلى غرفتي، خرجتُ لأجدَها في ثوب غير الذي كانت تلبَس، عطور أخرى تفوح منها، فتنةٌ جديدة تتفجَّر فيها، القهوة على الطاولة...

- لماذا أحضرتها إلى هنا؟ اتفقنا أن نشربَها في الحديقة.

- الغرفة أفضل، المفترسون لا يُترَكون في العراء إلا في البرِّية.

- أيُّ برِّية؟

- لا عليك، لا عليك، نشرب القهوة أفضل.

يبدو أن عالمًا من الأسرار بدأ يتفتَّح، ويبدو أن الطنطاوي كان يعدُّني إلى ما هو أبعد ممَّا تصوَّرت، لماذا فعلت معها ما فعلت؟! إن كنت أريد أن أصيدَها فكيف أمكِّنها من نفسي لتصبحَ لها طاقة عليَّ؟ أنظر في وجهها فيخيب رأيي، إنها تنظر إليَّ خُلسةً كأنها تسترجع زمانها، أو تبني زمنًا آخر.

- هل تعلِّمين بناتِ المسلمين ما حدث منذ قليل؟

صمتت بُرْهَة تستجمع طاقتها لتردَّ، احتقن وجهُها بالدَّم، الرَّعشة باديةٌ على أناملها.

- أنا لم أفعل ما فعلتُ قبل قليل مع غيرك يا إيزاك، ذاك الذي يحدُث عمل، مهمَّة لأجل إسرائيل، لأجل ما تفكِّر فيه، وتهذي به وأنت نائم.

- أنا أهذي وأنا نائم؟

- كثيرًا يا حبيبي، كثيرًا، كلُّ شيء تقوله وأنت نائم عن إسرائيل، وعن حدود إسرائيل، وما يجب أن يكونَ عليه المصريون، خصوصًا المسلمين.

أشعر أن الاضطراب سيدبُّ في أوصالي، كيف لا أشعر بنفسي وأنا نائم؟ كيف أهذي ليعرفَ غيري ما أعرف عن نفسي وما لا أعرف؟ هذا أمرٌ خطير لا بدَّ أن أتخلَّصَ منه.

- وماذا تفعلين يا فتنة؟ كنت تتكلَّمين بضمير الجمع، ماذا

تُعلِّمنَ بناتِ المسلمين؟

- نعلِّمُهن الحياة، نعلِّمُهن أن يكنَّ مختلفات عن كلِّ النساء في بلدهن، نعلِّمُهن كيف تكون لهنَّ شخصيَّة مستقلَّة، وألا تكونَ كلمة الرجُل هي العليا، وأن يكونَ لها عالمها السرِّي الذي لا يعلم عنه شيئًا، نحن نطَّلع على أدقِّ تفاصيل النساء والبنات ممَّا لا يبُحنَ به لغيرنا... اعتبرنا مسؤولات نظافة.

ضحكت ضحكةً خبيثة مجنونة، رفعت فِنجانَ القهوة ترشُف رشفةً خفيفة، كأنها تقبِّل الفنجان، كنت أرتشف رشفةً في نفس الوقت.

نحن ننظِّف البنت والمرأة، نعلِّمها كيف تتفنَّن في الاستمتاع بنفسها، نبعث فيها الطاقات الكامنة التي يعتبرنها في دينهم خطيئة، نحكي لهنَّ عن عالم الرِّجال الحرِّ المنفتح، ومعاني الحبِّ، وضرورة الاستعداد؛ لأن الزمن سيتغيَّر، أتعلم؟ أنا أتكلَّم الإنكليزية كالفرنسية تمامًا، وأتكلَّم العبرية، المصريات يُحببنَ فينا أننا نتكلَّم العربية المكسَّرة، علَّمناهن أننا أتينا من عالم جديد، نحمل لهنَّ النور؛ لذلك دائمًا هنَّ في شوق إلى زياراتنا، هذه تحكي لي عن الشابِّ الوسيم الذي يمرُّ في شارعهم، وتلك تحكي عن الخطَّابة التي لا تكفُّ عن الإتيان بصور الشَّباب من كلِّ العائلات، هنَّ حبيسات التقاليد... مهمَّتنا كسر هذه التقاليد؛ ليخرُجنَ إلى الشَّارع، ليس لمجرَّد

الخروج، وإنما لإيجاد عالم مخالف للتقاليد، فإما أن تسيرَ في متعة ولذَّة، وإما أن تُصدمَ وتقضي حياتها في العذاب.

شيطانة تجلس أمامي! فتحت صندوقَ الأسرار، كأنها تلتقط خيوطَ حديثها من عقلي الذي فتحت فيه قاعات جديدةً لاقتحام عالم المرأة التي يقولون: إنها عمادُ المجتمع، وإن الأُسَر المسلمة مبنيَّة على الفُضليات.

أأقول لك ما لا تعرف؟ كثيراتٌ ممَّن في دُور البِغاء، وكثيرات ممَّن يضعنَ البُرقُعَ في الشَّارع لسنَ مسلمات، بل يهوديَّات، منهنَّ من يتكسَّبن بإغواء الشَّباب، ومنهنَّ التابعات لنا يُشِعنَ المِشيَة، والمَلبَس، والعطر، ودَقَّة الأرض بالكعب الرنَّان، يُشِعنَ كلَّ هذا لتحتذيَ بهنَّ النساء والفتيات المسلمات، وحين تعترض أمهاتهنَّ يكون التعليل: ألا ترَينَ كيف صارت النساء يلبَسن؟ وكيف يمشين؟ وبم يتعطَّرن؟

وفي الأحياء المتفرنجة من أحيائهم نلبَسُ النِّقاب الثقيل، ونمشي في انكسار، ونكاد نكنس الشوارعَ بالملابس الرثَّة، لا تعتقد أننا بهذا نثير الشَّفقة، بل نخلق في عقول هؤلاء من المتفرنجات ساحات من القرَف من الملتزمات بثيابهنَّ الرثَّة وهيئتهن البدوية.

مرَّ الوقت بسرعة، ولا أعرف كيف سأسوِّغ غيابي للطنطاوي بك، لا بدَّ أن أنصرفَ الآن، وسأخبره أنني كنت تعبًا؛ لذلك

أفطرت ونمت بعض الوقت، كنت أنوي أن أكتبَ موضوعًا عن مستقبل ألمانيا بعد الهزيمة لجريدة الوطن، لكن لا بأس، سأكتبه في المكتب حين أصل، طلبت إلى فتنة أن تجهِّزَ لي عَشاءً دسمًا وأن تنتظرَني، فقد أتأخَّر إلى ما بعد الغروب، ودَّعتني بقُبلة غجرية لم أحبَّها، بل لا بدَّ أن أمتنعَ عن كلٍّ هذا.

(١٨)

في المكتب كان الطنطاوي بك مجتمعًا بكاسترو، وألبرت موصيري، وصامويل إسرائيل، والمفاجأة كانت وجود جوزيف سيكوريل، وحاييم ناحوم الحاخام، وموسى قطاوي، والمفاجأة المدهشة كانت في حضور يهوديت، وامرأتين لا أعرفهما، لكنَّهما تبدوان فاتنتَين في ثيابهما الفاضحة.

أخبرني ديفيد أن الطنطاوي طلبني أكثر من مرَّة، ولا بدَّ أن أسرعَ في الدُّخول إليه... دخلت.

نظر إليَّ الطنطاوي نظرةَ استفهام، لكنَّه هزَّ رأسه كي لا أعقِّب... استقبلني الحاضرون استقبالاً رائعًا، كلُّ واحد يُطلق عليَّ ما يراه في شخصيَّتي... صوت كاسترو المرتفع اخترق أذني بندائه: مرحبًا بك يا حلمي، أما ناحوم فقام مصافحًا مناديًا بالنجيب الذي تنعقد عليه الآمال... لم تقم يهوديت، وهذا طبع النساء، مدَّت يدها ضاغطةً على يدي، عيناها كأنهما أشراك

منصوبة، التفتت إلى صديقتيها معرِّفة، فمدَّت كلٌّ منهما يدها مسلِّمة.

الرجال الجالسون ينظرون بإعجاب إلى الشابِّ الذي يستحوذ على عيون النساء؛ إحداهما اسمها: «إستير رحماني»، والأخرى: «سيبيل إيهود»، لم أهتمَّ بهما كثيرًا، لكن يهوديت همست لي بأنهما من أفضل زُبُن عزرا، قالت سيبيل: عزرا فنَّان بارع برغم صغر سنِّه، لا بدَّ أن يكونَ له المكان المناسب لهذه الموهبة سيِّد إيزاك، قاطعتها يهوديت قائلة: أما إيزاك فلا فنَّان يضاهي إمكاناته في فنونه يا سيبيل يا حبيبتي.

أفادني الطنطاوي بك أن سيبيل وإستير قادمتان من إسرائيل، تملكان هناك أراضي، ومحالَّ لبيع الملابس المستوردة والتُّحَف، وأنهما مسؤولتان عن توزيع المجلَّة الصِّهيَونيَّة هناك، وعلاقاتهما ممتازة مع المندوب السَّامي الجنرال «اللنبي»، وساعدتا جابوتنسكي كثيرًا لدى اللنبي حتى وافق على افتتاح مكاتب تجنيد اليهود.

نظرت إستير إليَّ نظرةً ملؤها الثقة، قرأت في عينيها قدرةً تفوق مهارات فتنة، فضلاً عن الثَّراء البادي عليها، لكن متى عرفت عزرا أخي؟ لا بدَّ أن يهوديت لا تضيع فرصة، لكن أيُّ فرصة تضيعها هذه الثَّرية الرَّشيقة الأنيقة؟ ولماذا عزرا؟ هل أرادت أن تعرِّفَهما بأصلي بطريق غير مباشر؟ ولماذا لم تأخذهما

إلى «سوليمون» الصائغ صديقها؟

ألبرت موصيري كان غارقًا في الأفكار، على حين كان صامويل إسرائيل منهمكًا في الكتابة في دفتر على ركبته، لا أعرف ماذا يكتب؟ لكن يبدو أنه يكتب موضوعًا للمجلَّة الصِّهيَونيَّة... قطع الصمتَ ألبرت بقوله:

- ألا نتكلَّم في عدَّة أمور مهمَّة يا سادة؟

ودون أن يتلقَّى الردَّ قال:

أمر الاتحاد لا بدَّ أن ينظَّم، خصوصًا بعد استقالة «جاك».

التفت إليه ليون كاسترو، وقد بدت علاماتُ الغضب على وجهه قائلاً:

- الاتحاد فوق كلِّ اعتبار يا ألبرت، وأنت تعلم جيدًا أننا نمرُّ بمنعطف تاريخيٍّ حرج، وأن عين المنظَّمة وكلِّ لجانها على مصر، وجاك كان يريد ألا أتدخَّلَ في أيِّ شيء، وأن تكونَ قراراته نافذة، هل يعرف في شؤون الاتحاد أكثر منِّي؟ هو رجل أعمال ناجح، لا أُنكر، ومفكِّر نشط، أعترف، لكنَّ الإدارة لها أصول يا ألبرت.

كان الصمت يخيِّم على المكان، لا يظهر فيه غيرُ صوت ليون المحتدِّ، في حين كان ألبرت مطرقًا رأسه، وعلامات الامتعاض باديةٌ عليه، وما إن أنهى ليون كلامه، حتى رفع ألبرت رأسه

موجِّهًا الخطاب إليه:

- نحن نعلم أنك قديرٌ يا ليون، وأنك وحدَك قادرٌ على بناء دولة، لكن تقدير المقامات واجبٌ يا أخي.

أشاح ليون بيديه في الهواء متقافزًا في مكانه مردفًا:

- مقامات الجميع محفوظة، لكنَّ كلَّ واحد يعرف دوره وما يجب عليه، والأدوار موزَّعة، وكلُّكم تعلمون أنني الرئيس الفعليُّ للاتحاد، والمنظَّمة تُدرك ذلك جيدًا، وتعلمون أن الولاء والانتماء لا يقفان عند المناصب، وإلا لتركت مصر، وحصلت على أرفع المناصب في لندن.

قاطعهما الطنطاوي بك طالبًا الهدوء وضبط النفس، ساد المكانَ صمتٌ... قطعه صوت قدَّاحة إستير رحماني التي كانت تشعل (سيجارتها) وعلامات الدَّهشة باديةٌ على وجهها؛ لما يمرُّ به الاتحاد من هذا الجدل، في الوقت الذي أكَّد فيه وايزمان ضرورةَ ضبط النفس، وإزالة كلِّ أسباب الخلاف، وأردفت:

- مصر ستبقى العينَ الرَّاعية للوطن، وستبقى بوَّابته الآمنة، الوطن في حاجة إلى إزالة كلِّ هذه الخلافات، وأن نشعرَ بالسعادة دائمًا؛ لأننا نمثِّل الفئةَ الراقية التي يجب أن تحكمَ العالم كلَّه بفطنة وكياسة.

وافقها إبراهام بك الرأي، وطلب أن يبديَ رأيه، فوافق

الجميع، وبعد ثناء على جهود الجميع خصوصًا السيِّد جاك موصيري الرئيس المستقيل، وامتداح بذله وسعيه الدَّائب لأجل الوطن القومي، سحب الطنطاوي بك نفَسًا عميقًا من (سيجاره)، ونفث دُخانه بصبر نافد قائلاً:

لكنَّنا لا بدَّ أن نكونَ على قدر المسؤولية، وألا نخضعَ لتحكُّم الظُّروف، ولو حاولنا أن نختارَ رئيسًا للمنظَّمة من الأسر الإسرائيلية في مصر لوجدنا فيها النُّخَب الحريصين الباذلين لأجل إسرائيل، وبناءً على معرفتي بالسيِّد جوزيف سيكوريل، وأفراد عائلته العريقة يمكنني أن أشيرَ عليكم بأن يتولَّى جنابه رئاسة الاتحاد.

انفرجت أساريرُ الجميع بمجرَّد أن أنهى الطنطاوي كلامه، وقاموا مهنِّئين جوزيف الذي لم يخرج عن وَقاره وتقديره لذاته، واحتفلنا بهذا الحدَث بشرب الأنخاب، وتبادلنا الأحاديثَ عن العديد من القضايا المتصلة بالاستيطان وأحوال اليهود في إسرائيل. ومن خلال كلا الضَّيفتين استطعت أن أفهمَ أن الأمل هناك يخالطُه الكثير من الحذر؛ نتيجةً لتداعيات الحرب، وأن الجمعيَّات واللجان في إسرائيل تبذل كلَّ ما تستطيع؛ لإشاعة روح التفاؤل والأمل في نفوس «الأشكيناز» المقيمين هناك، لكنَّ الأحوال في مجملها مُطَمْئنة؛ فقد بسط الجيش البريطانيُّ سيطرته على الأراضي كلِّها حتى شرق نهر الأردُنِّ، والجميع

يترقَّبون انعقاد مؤتمر السَّلام الذي يصرُّ «ويلسون» على عقده. مالت يهوديت متسائلةً في مرح خبيث:

- والعرب يا سيبيل؟

مالت سيبيل برأسها في غُنْج؛ معبِّرةً عن ارتياحها، ومضيفة:

- إن الكثيرين من ملَّاك الأراضي خصوصًا الأغنياء في فلسطين ولبنان يبيعون، ونحن نشتري، ولا مانع من أن نستفيدَ ممَّا دفعنا في بعض السَّهرات.

يبدو أن هذه الدَّولة لا يمكن أن تقومَ إلا بجهود العاهرات، يبذلن الكثيرَ لأجل وطنهن، ولا مانع من تكوين ثروة أيضًا إلى جانب البذل، فمن يمتلك بئرًا في صحراء لا بدَّ أن يسقيَ ويشرب، ويستفيد منها في كلِّ وقت، وبكلِّ طريقة، ولا مانعَ من سقاية البهائم أيضًا.

رنَّ جرس الهاتف، ردَّ الطنطاوي بك، ثم صمت قليلاً... أجاب محدِّثَه ببضع كلمات لم تزد على: مفهوم، حاضر، مع السَّلامة.

تناول (سيجارًا)، استغرق وقتًا في إشعاله، كان يفكِّر بعمق شديد، نظر في وجوهنا جميعًا، ثم قال: اختلف سعد باشا زغلول مع السِّير «ونجيت» المندوب السَّامي البريطاني الذي كلَّمه بطريقة غير لطيفة، منوِّهًا أن بريطانيا لن تقبلَ سفره لمناقشة

مسألة الاستقلال، وهو الآن في لقاء مع رئيس الوزراء يُطلعه على ما حدث. . . يبدو أن الأمور ستتأزَّم في المرحلة القادمة، ظهر الفضول على وجه كاسترو، أشعر أنه يتمنَّى أن يكونَ في القصر الآن ليسمعَ كلَّ ما يجري ويدور هناك، بدت علامات التعمُّق في التفكير على وجه الطنطاوي بك وجوزيف سيكوريل، أما ألبرت موصيري فقد أخرج أوراقًا وقلمًا وبدأ يرسم جدولاً يضع حروفًا وأرقامًا في خاناته.

مرَّ من الوقت نصف ساعة تقريبًا، شعرت بتملُّل الطنطاوي بك، في حين الجميع هائمون في الأفكار، قام سيكوريل واقفًا، فقام الجميع استعدادًا للرحيل، لكنَّه لم يغادر إلا بعد ما قال على مسامع الجميع:

- أبطال جدُد يظهرون على ساحة الأحداث، لكن ما يُطَمئن أنهم ليسوا من الحزب الوطنيّ، وليس فيهم اندفاعُ شباب الحزب، وإنما شيوخٌ تعلَّموا في أوربا، ورؤيتهم قوميَّة، ولا يمثِّلون اتجاهًا فكريًّا أو دينيًّا واحدًا، وهذا مفيد جدًّا، سواء بالنسبة للإنكليز أو بالنسبة لنا.

في المساء شعرت أنني محتاج جدًّا أن أستمعَ إلى حديث فتنة الذي يكشف لي الكثيرَ ممَّا في رأسي، وفي نفس الوقت أريد أن أَطمئنَّ على سارة بعد ذلك اليوم الذي أنهكت المعلومات

التي بلغتها كلَّ طاقتها، وجعلتها تخرج عن طورها، وأخرجتني معها، لكنَّها أخرجتني إلى العالم الذي يجب أن أخرجَ إليه، ومحتاج إليه جدًّا، أخرجتني إلى أسوأ تجرِبة وإلى أدقِّ تجرِبة مع فتنة، ومع نفسي، ومع عقلي...

خامرَ هذين الشعورين رغبةٌ في لقاء يهوديت التي أخبرتني أنها تقيم مع صديقتيها هذه الأيام في «سميراميس»، ولكن مالي ولسميراميس؟ ومالي ولمن معها؟ أريدها وحدَها، النساء جوارٍ كما قالت فتنة، والجارية لا بدَّ أن تكونَ طوع أمر سيِّدها، البشر في أصلهم نباتات متسلِّقة، كلُّ إنسان يحتاج إلى ما يتغذَّى من جُذوره، ويعتمد على ساقه ليرى النورَ والهواء.

فتنة تنتظرني، ولديها الكثير، وأولئك النسوة يمكنهنَّ الانتظار دهرًا، البلد الآن على فُوَّهَة البركان، ولا بدَّ أن أرتِّبَ أوراقي، هكذا تقول رُقعة الشِّطرَنج، ويقول عماد، تُرى كيف ستكون ردود أفعال عماد حين يعرف ما حدث مع سعد زغلول؟ لا بدَّ أن الأخبار ستنتشر، وسنعرف كيف نستفيد منها إلى أقصى درجة.

- أريد أن أشربَ أفخر شراب.

- سأحضر لك كأسًا من زجاجة معتَّقة، يبدو عليك الإرهاق.

- أنا لا أعرف الإرهاق، هي الأفكار.

- تحبُّ أن تفرغها؟

- أريد أن أؤجِّجَها، كم امرأةً تعمل معك؟

- خمسون امرأة، ما بين العشرين والأربعين.

دهشت لسرعة ردِّ فعلها وإجابتها.

- أجهِّز لك الحمَّام؟

- وأطلقي البَخُور في غرفة المكتبة، هل حضرتِ حفلة زار من قبل؟

- كثيرًا جدًّا.

- أريد زارًا.

- والقُربان؟

- كلُّ تاريخ هذا البلد سأذبحه، سأخضِبُ كفيَّ منه، ثم أطهوه لأعيدَ تقديمه لأهله.

- ماذا تريد؟

- كلَّ بيت في كلِّ شارع وحارة، كلَّ شابٍّ وفتاة، كلَّ زوج وزوجة.

- لا تجعل الطُّموحَ يغريك، فتنفلت الخيوطُ من بين يديك.

- هل لديك أخبار؟

- سعد باشا خرج من عند رئيس الوزارة ينوي تشكيل الوفد.

وقفت في منتصف المسافة بين الطابقين، كيف تصل الأخبار إلى فتنة بهذه السُّرعة؟! الأخبار تخرج من القصر إلى خادمة بهذه السُّرعة؟ الابتسامة تملأ وجهَها، هل تشعر أنها منتصرة؟ لا بدَّ أنها تشعر أنني طفل أتعلَّم، ولم أبلغ أُولى خطوات التعلُّم.

- هيَّا إلى الحمَّام يا عزيزي، فقط عليك أن تفكِّر، وعليَّ أن أنفِّذَ ما يطرأ على عقلك.

- من أنتِ؟

- أنا كما تريدني، وحيثما تريدني، هيَّا إلى الحمام، أريد أن تُفرغَ كلَّ قديم فيك، وأن تُخرجَ جديدًا.

ساقتني كطفل، وملأت لي المَغطِس، وشرعت تدلُك عضلات ذراعي وكتفي، ثم تركتني قائلة:

- لا تناديني، سأغيب قليلاً، استَرخِ في الماء إلى أن أعودَ إليك.

نصف ساعة أو أقلُّ مرَّت دون أن تطرق الباب، دخلت، قدَّمت لي ثيابًا غير التي كنت ألبَسها؛ جلباب مصري، أصرَّت ألا ألبَسَ شيئًا تحته، اعترضتُ، وضعت إصبعها على فمي تسكِّتني، خرجت معها إلى المكتبة، التفتُّ لأجدها ترتدي ثوبًا أحمر شفيفًا، هولُ ما أرى ألجمني، نساء شكلهنَّ غريب، ملامحهنَّ فظَّة، ورجال أعتقد أنهم مخنَّثون، شموع ملوَّنة،

ودفوف وآلات، غناء لا أفهم منه شيئًا، نُصُبٌ في منتصف الغرفة. . .

بدأ الطَّواف، من ورائي أمسكت وسطي بيديها الناعمتين، وساقتني لأنتظمَ في حلقة الطَّواف، أدخنة البَخُور كوَّنت سحابات في الغرفة، نداءات لملوك الجنِّ، ديك في عنقه ورقةٌ مكتوب عليها بحروف متفرِّقة «ت ا ر ي خ»، أشعر بالدُّوار، صوت الطَّبل يتسارع. . . فتنة تنسجم في رقص همجي، فتاة في العشرين تخرُج من تحت النُّصُب فاردةً شعرها طويلاً، هي وفتنة تتجاذبانني من كلٍّ مكان في جسمي، أقاوم بكلٍّ ما أستطيع، أصوات تأتيني: البِكر أَولى، العُقدة تُحَلُّ، أنت ملبوس، (اخرج يا ابن الكلب)، صليبٌ يرتفع إلى سقف الغرفة، زغاريدُ تتماوج أصواتها، بكاء يأتي من الأركان، طفلٌ ينتحب، نجمة داود ترتفع من حِجْر الفتاة. . . مِبخَرَة نحاسيَّة تقترب من أنفي جدًّا، الدُّوار يزداد، قرآن المسلمين معلَّق في السقف، الأرض تبتعد عن قدميَّ، أشعر أنني أطير.

- أين أنا؟

- أنت في فراشك يا حبيبي.

- ما الذي حدث؟

- ذبحتَ التاريخ.

- كلُّ جسدي يتألم يا فتنة.

- الزار يا حبيبي.

- ما الذي كان بعد خروج النجمة من حِجْر الفتاة؟

- استلقيتَ عليَّ.

- هكذا يكون الزار؟

- للممسوس، والملبوس، والمربوط... والتي هجرها زوجها، والتي لا تحبل.

كانت تتكلَّم بلُكْنة الدَّلَّالات، كأنها تعرض بضاعةً صالحة لكلِّ شيء، أو كأنها غجرية تضرب الرمل، وتزعم قراءة الطَّالع!

- والنتيجة؟

شخرت ونخرت، وتلت تعاويذَ لم أفهم منها شيئًا، لكنَّني عرفت أن من تكون فيهم هذه العادات لا بدَّ أن يُحرَقوا، وأن يحكمَهُم بدلاً من البشر قردة! ماذا يمكن أن نتوقَّع حدوثه مع من لا يعرف أين وكيف قضى ساعة، أو أكثر من ساعة؟ أنا فاقدٌ الإحساس بالزَّمن.

- هل تعرفين من كانوا هنا يا فتنة؟

- كلَّهم يا حبيبي، هم مشغولون على مدار الساعة، من دار إلى دار، آه لو تعرف! إنهم يدخلون بيوتَ كبار التجَّار والموظَّفين، عالم الزار له أسرارُه التي لا يعرفها إلا أهله،

وحين يزداد الأمر تعقيدًا في بيت الحالة، تمضي إلى الخرابة طواعية، وهناك ما لا عينٌ رأت!

- كيف يمكن أن نبقيَ هذه العادةَ فيهم؟

- بأن تتطوَّر مع كلِّ تطوُّر، وأن يتجدَّد ممتهنوها على حسب الزمن.

- أحسنت يا فتنة، أحسنت، هذا ما كنت أريد أن أرى وأسمع.

- وجرَّبتَ بنفسك، تريد قهوة؟

- بل أشتهيها!

(١٩)

لا بدَّ من مقالة تناسب المرحلةَ التي نحن فيها، فعضوية حزب الوفد تمثِّل مرحلة متقدِّمة جدًّا، نشاطنا، سعد زعيم، الأمة الباحثة عن منفذ للوصول إلى دول أوربا في مؤتمر الصُّلح أو للقاء المسؤولين البريطانيين في لندن، بيت سعد زغلول يعِجُّ بالوفود على مدار الساعة، شارع الإنشاء حقَّق أعلى معدَّل للازدحام شهدته مصر، العامَّة والمثقفون وعِليَة القوم هناك، لا وقت عند أحد أن يلتفتَ إلى دين أو مهنة أو وظيفة، اسم «سعد» صار هو الأشهرَ والأكثرَ ذيوعًا، الحقُّ معه، إذا أردتَ أن تروِّجَ لسلعة فأشِع بين الناس أن الحكومة منعتها، واختَر لها أغلفةً باهرةً للعين واسمًا رنَّانًا! لو أن بريطانيا وافقت لما تدفَّقَت هذه الحشود، ولما حدث هذا الإجماع والاجتماع، كثيرًا ما يرتكب الكبار حماقات لا تكون في صالحهم، وكلٌّ يرتكب حماقةً وفق منظوره!

أنا متيقِّن أن عمادًا يفكِّر مليًّا في المذهب الشيعي، ويفكِّر في الأضرحة، ويبحث في الكتب عن ابن عربي، وطبعًا سيبحث عن «ابن الفارض»، ويقرأ في تطوُّر الصوفية، ورموز الوصل والجلال، والترقِّي والتماهي، والحلول والاتحاد... هكذا الشعب الآن، يبحث ويركض خلف سعد ورفاقه، لن يفكِّرَ في أبعد من فكرة التحرُّر، في الزار اختلط الحشيش بالبَخور، والمسوِّغات كزَبَد البحر لا يفنى إلا ليُخلَق.

«الوطن»، و«المقتطف»، و«مصر»، و«الصِّهيَونيَّة» و«الجمهورية»، كلُّ هذه الجرائد تطلب أن أرسلَ لها مادَّتي المكتوبة، ولمَ لا؟ ما دام هذا هو الطريق الذي أحقِّق فيه ذاتي، وأرسم به طرقًا هي الأوجب أن تُرسم، محدِّدًا القِبلةَ بنفسي، ألست أنا الحلم الذي يتعلَّق به الإسرائيليون؟ الفارق بين الإسرائيليين والمصريين شيء جوهري؛ الإسرائيليون يشكِّلون سلسلةً من الضَّرورات والأشخاص والشخصيَّات، والمصريون يكتفون بفرد واحد يُلقون عليه كلَّ التبعات، ويطالبونه بتحقيق كلِّ الأحلام، ويتهمونه في كلِّ كبيرة وصغيرة، حتى الإسهال والإمساك، خلاصهم المأمون أن يعلِّقوا مسائلهم في رقبة عالِم!

فليكن؛ فالفارق بين العلم الشرعيِّ وتأويل العلم الشرعيِّ وَفقَ رؤى المجدِّدين أمر يسيرٌ جدًّا، كلُّ ما يحتاج إليه هو الترويج، وللترويج مواسمه، الأذكياء فقط يرسمون هذه المواسم،

ويعرفون مواعيدَ البَذْر ومواعيد الجني، عصا موسى يعرفها المسلمون، تهشُّ على الأغنام، وتشقُّ البحار، وتفجِّر الحجر عيونًا، وتتحوَّل ثعبانًا، ونحن ورثنا هذه العصا، لكن ليس كلُّنا «موسى»، وكلٌّ يدير بها ما يريد.

الصُّحف مأمورة ألا تنشرَ عن سعد زغلول وجهوده إلا النَّزرَ الذي لا يكاد يُذكَر؛ لذلك فالناس يأتون ليعرفوا الأخبارَ بأنفسهم، ومع ذلك يشترون الصُّحفَ لبضعة سطور فيها، مواضيعي تُنشَر كاملة، بالأمس نُشرَت لي مقالة توَّجتها بعنوان: «ما دينُك؟» دارت حول لقائي بأحد المثقَّفين، ناقشني حول مفاهيم الحرِّية والتوجُّهات المعاصرة، والأدوات الواجب الأخذ بها لتحقيق الاستقلال التام، ومع نقاش طويل سألني: ما دينُك؟ فأجبته: مصري، أطرقَ لحظات، ثم قام واقفًا، ثم انحنى على رأسي يقبِّله.

نعم، لا بدَّ أن ننسى كلَّ شيء، إلا أننا مصريون، قِبلتُنا الحرِّية، وسعينا الاستقلال، وإمامنا سعد زغلول، وسنبقى نحترم المملكة العُظمى أبدَ الدَّهر؛ لأنها تقدِّر قيمة مصر ومكانتها الرفيعة في المنطقة، وسنُبقي على وفائنا بالمواثيق التي تكفُل حماية مصالحها وأموالها في بلادنا، فنحن قومٌ شرفاء، حدودنا هي الثَّوب الذي يسترنا، لا نَنشُد من الاستقلال إلا أن ننتظمَ ضمن الدُّول الخادمة للحرِّية، وشخصية الشعب الفردية

التي تقوم على احترام متبادَل بين الإخوة دون التدخُّل في المقدَّرات، فعصر التكتُّلات الجديد لا يعني أبدًا الخضوعَ لسلطان بقدر ما يعني احترامَ التحالفات، ومصلحتي قبل أيٍّ شيء، فقد أثبتت القومية العربية إخفاقها، وأثبتت فكرة البحر متوسطية إخفاقًا ذريعًا، والدِّين يبقى دينَ عمل في الدُّنيا وحساب في الآخرة، أما الشعوبُ فتُبنى على أساس قانونيٍّ قومي، وكلُّ قوم تحدُّهم حدودهم.

الآن أعدِّل بعضَ المفردات في نفس المقالة، وأعيد بعضَ الصِّياغات لأكتبَها بالفرنسية في المجلَّة الصِّهيَونيَّة، وأنا مُدرك أنها ستُحدث في نفوس الإسرائيليين ما يحدثه السِّحر، وستُثبت في نفس المقيمين في أورشليم وباقي البلاد روحَ العزيمة والإصرار على قوميتهم.

- سمعت بعض الشَّباب المتحمِّس اليوم يهتف لصاحب مقالة بعنوان: ما دينُك!

- أين؟

- كنت أتجوَّل صباحًا في محالِّ «سيكوريل»، ثم سلكت «الموسكي» لشراء بعض الأشياء الخاصَّة لإحدى بنات عائلة عبد السيِّد، وبلغ مسامعي من الشَّباب على المقاهي احتفالهم بكاتب تلك المقالة التي تُلهب الحماسة، وتقوِّي إصرارهم على «سعد باشا» رافع لواء القومية، ثم هتفوا للوفد.

- ومن الكاتب يا فتنة؟

- أنت أيها الشَّيطان، هذه المقالة لا تخرج إلا من صِهيَونيٍّ محترف، أنا على يقين أنك ستُحدث (طفرةً) في عالم الصَّحافة المصرية.

- بل العربية كلِّها، هذا زمن المتعلِّمين يا فتنة، زمن الذين يؤمنون بأن العلم هو فقط ما وصلهم، والذي من خلاله يبنون أفكارهم عن الحرِّية، مع أنهم يملكون كلَّ أدواتها، ولو أيقنوا أن الثبات على مبدأ كفيلٌ بأن يخرجَهُم من الجُبِّ الذي وضعوا أنفسهم فيه، لما تكالبوا على كلِّ فكرة حقَّقَت تفوُّقًا في بلاد تختلف عن بلادهم في كلِّ شيء تقريبًا، ألم تسمعيهم يهتفون لـ«ويلسون» ولمشروع «ويلسون» للسَّلام؟ أتعتقدين أن ويلسون وضع هذه المبادئ لأجلهم؟ أو أنه سيُعاند إنكلترا وفرنسا من أجل هؤلاء؟

- أعلم أن المبادئ كانت الطُّعمَ الذي أوقع بألمانيا، وكان الشَّرط واضحًا، فإعلان الهُدنَة مشروط بأن توافقَ ألمانيا على تطبيق المبادئ دون قيد أو شرط، ولهذا تخلَّت عن مستعمراتها.

- بالضَّبط، وها هي ذي إنكلترا تُماطِل المصريين، في حين لو كان الميزان معتدلاً لطبَّقت بريطانيا البنود، وهذا يقلقني فيما يخصُّ إسرائيل، فلا ينبغي للعاقل أن يأمنَ لإنكلترا التي تفضِّل مصالحها على أيِّ شيء، نجم أمريكا صاعد، واتخذت مكانها

على طاولة الدُّول الكبرى، ومن المنطقيِّ أن تمدَّ يدها إلى مشروع الوطن، سنحتاج إليها لا محالة، فاللعبة مستمرَّة.

- ستبيت هنا الليلة؟

- نعم، لديَّ الكثير لا بدَّ أن أنجزَه.

- أتريد أن أبيتَ معك؟

- لا ، إن لم يكن فيه إزعاج لكِ، لكن أيقظيني باكرًا.

- مع نور الصَّباح ستجدني أعددتُّ لك فطورك والقهوة.

دخلت غرفة ليون كاسترو الخاصَّة، الذي لم يسمع طرَقاتي على الباب، كان مُنهمكًا جدًّا في كتابة مقالة، حتى إنه أشار لي بيده أن أجلس، ضغط زِرًّا إلى جواره، ودون أن يرفعَ رأسه قال: اطلب قهوتك من السَّاعي، فطلبتها، مدَّ يده لي بورقة دون أن ينظرَ إليَّ، كأنه يفرغ ما في رأسه بعينيه في الورقة التي يكتب فيها، قرأت الورقةَ التي كانت مقالةً سينشرها في المجلَّة الصِّهيَونيَّة، المقالة مكتوبة برقَّة امرأة حنون، كأن كلَّ كلمة فيها حِضْنٌ دافئ يحتوي من يقرؤها، إنها نداء إلى أبناء الطائفة اليهودية للعودة إلى دينهم، وكتبهم المقدَّسة، والتشدُّد في كل ما يخصُّ الدِّين؛ لأنَّ الربَّ اختارهم من بين الملايين الذين يعيشون في الأرض ليكونوا أحبابه الذين يدَّخر لهم جنَّتَه في

أرض إسرائيل، ويذكِّرهم فيها بالجهود التي بذلها هرتزل، هذا الملهَم الذي أخرجته السَّماء من رَحِم أم شريفة، ليحملَ ما حمله موسى إلى فرعون، ويسعى في البلاد جامعًا أشلاء اليهودية التي اتحدت الأممُ على تمزيقها ونثرها بين حدود الأرض، لكنَّ السَّماء أمطرت مطرها على تلك البذور، وتولتها الشمس برعايتها حتى صارت أشجارًا عملاقة، منها تُصنَع الحراب، ومنها تُصنَع سفن الخلاص، ومنها تُخرَج نار الهداية ونور الإيمان، ويذكِّرهم بالرُّبَّان الماهر، والطائر المحلِّق وايزمان الجدير بأن يكونَ أبًا للإسرائيليين في كلِّ مكان على وجه الأرض، ذلك الذي يحبُّ إسرائيل، ويسعى لأجلها سعيَ الأسود؛ لتسيطرَ على عرينها، الذي سخَّر الربُّ له جابوتنسكي الشُّجاع وبن جوريون وغيرهما من الشُّجعان؛ ليكونوا يدَ الربِّ التي يضرب بها أعداءه في الأرض، أولئك الذين يكرهون شعبه المختار.

أنهى ما يكتب، وأنهيت أنا القراءة، وفرغتُ من شرب قهوتي، ركَنَ ظهره ساحبًا نفَسًا عميقًا ملأ به صدره حتى شعرتُ وكأن أزرار قميصه ستنطلق كالرَّصاص، ثم أخرج الهواء بهدوء وثقة، ودون أيِّ مقدِّمات بدأ في الحديث، منبِّهًا على أن الزَّعامة تتحقَّق بعدَّة عوامل، أهمُّها الرغبة الداخليَّة التي تولِّد حول صاحبها هالةً وطاقةً تصل من يرَونه، فيشعرون أنهم

مدفوعون لاتِّباع باعث هذه الطَّاقة فيهم، ثم تأتي عواملُ العلم والثقافة والرغبة في التخلُّص من القانون القائم.

لاحظ ليون أنني تململت أريد أن أتكلَّمَ حين قال:

- الرغبة في التخلُّص من القانون القائم.

فاستطرد موضحًا:

أيُّ قانون مهما قام على العدل ورعاية المصالح، يجد له معارضين ممَّن لا يناسبهم هذا المستوى من العدل، وهذه الدَّرجات من المصالح، فمصالحُ الأفراد ومصالح الجماعات المنشقَّة تتعارض دائمًا مع مصالح المجموع الكلِّي، فلو نظرنا إلى أصحاب الجنسيَّات غير المصرية من المقيمين في مصر مثلاً لوجدنا أن مصالحهم التي يُديرونها في مصر تستلزم الولاء للقانون الذي يكفُل بقاءها ونماءها، إلا أن لهم مصالحهم الأخرى التي مع البلاد التي منحتهم جنسيَّاتها؛ لهذا كانوا أكثرَ اطمئنانًا أيام الحرب، ففي كلِّ الأحوال سيجدون المكانَ الذي يأوون إليه على أن تبقى مشروعاتهم ومصالحهم في أمان تدُرُّ عليهم الأرباح.

والمصالح ليست دائمًا قائمة لتدُرَّ أرباحًا، بل إن هناك مصالحَ تقوم على أساس الخسارة، لكنَّها دائمًا مخاسر مرحليَّة، وهذا ما فعلته ألمانيا مع الحلفاء، لعبت على مبدأ الخسارة، وتعتقد أنها ستعوِّض كلَّ خسائرها، وهذا أمر طيِّب جدًّا فوجود

الاعتقاد بتعويض الخسارة يحمي صاحبه من الموت المفاجئ أو الجنون إذا نظر إلى حجم خسائره.

كأن كاسترو يحاضر في جمع غفير من الناس، ويؤطِّر لمقوِّمات الزَّعامة، وخصائص الزَّعيم الذي يلتفُّ الناس حوله ويأتمرون بآرائه.

أكمل كاسترو قائلاً:

وما يحدث في مصرَ الآن هو صورةٌ كثيرًا ما تكرَّرت، كأنهم في دار عرض (سنما)، لا يملُّون إعادة الفِلم كلَّما انتهى، المطلوب الآن يا إيزاك أن ننشرَ موضوعات عن قول محمد: «إن الله يُرسل على رأس كلِّ مئة عام من يجدِّد دينَ الأمَّة».

بدأت أفكِّر بعمق في كلام ليون، كنت أرتِّب مع فتنة أن نعيدَ بعث العادات والخرافات في نفوس العوامِّ والخاصَّة، وها هو ذا ليون يريد بعثَ كلام محمد؛ ليتَّبعوا كلَّ من ينادي بأن خلاص الأمَّة في اتِّباع سعد، وإن لم يكن في اتِّباع سعد فهو في اتِّباع أيِّ شخص ينادي بالقومية المصرية.

- أتريد أن تحرِّكَ فيهم المشاعرَ الدينية ليبحثوا عن إمام؟

- أريد أن أثبتَ في الأذهان أن الشَّعب نسيجٌ واحد، وهذا ما يدعو إليه الإسلام، فإذا تمَّ لنا الوطن القوميُّ فلا نجد المعارضين؛ لأنَّ المعارضة ستكون ضدَّ القوميَّة الواسعة مترامية

الأطراف، وضدَّ التسامح، وإذا أخفق المشروع في بعض مراحله بقينا محتفظين بهذا المناخ في مصر، الذي يحفظ لنا جميعَ الحقوق والامتيازات، بل يمكن أن نحصُل فيه على الأكثر.

- فهمت، ولا مانع أبدًا من تعدُّد الأئمَّة واختلاف وجهات النظر بينهم، هذا الاختلاف المبنيُّ على أنه لا يفسد للودِّ قضية.

ضحك كاسترو ملء قلبه مُشيحًا في الهواء بيديه كعادته:

- قلت: إنك حلُمي، بل وتعرف ما في رأسي، وأشعر أن شعب إسرائيل منذ الأزل اجتمع فيك لتكونَ النبيَّ والشيطان في وقت واحد، وأعرف أنك فاهم، لكنَّني أحببت أن آخذَ رأيك في المحاضرة التي سألقيها في نادي الشبيبة بالظاهر.

- الشَّباب في حاجة إلى بعث هذه الرُّوح فيهم حقًّا، خصوصًا أن صوت القومية المصرية بدأ يرتفع، وأخشى أن ينجرفَ اليهود مع المصريين في كلِّ شيء، حتى في الجلوس مع مشايخهم ودعاتهم فيتأثَّروا بهم، وكما تعلم هم ليسوا مؤهَّلين دينيًّا، ويمكن التأثير فيهم بالأقوال البرَّاقة.

كاسترو مشغول بالأدخنة التي تنبعث من (سيجارته)، يطاردها بعينيه، أحسستُ أنه غير منتبه لكلامي، لكنَّ الحقيقة أنه كان منتبهًا جدًّا، بل حفظه عن ظهر قلب، وأعاده معقِّبًا بأن خروج اليهود إلى الشَّارع مع المصريين مفيدٌ إلى حدٍّ ما، مفيد

لإخراجهم من عُزلتهم، ومفيد كي يبرُزَ دورنا في المطالبة بالاستقلال، لكنَّ الحذر واجب، فاللعب بالسَّيف محتاج إلى براعة شديدة حين تقذف بالسَّيف في الهواء، وتستعدُّ لالتقاطه.

- استقالة حكومة «حسين رشدي» باشا أحدثت حالةَ هياج في الشَّارع كلِّه، وزادت من شعبية سعد زغلول.

- لا أعتقد أن السُّلطان فؤاد في وضع يسمح بقَبول الاستقالة يا إيزاك.

قام من مكانه يتمشَّى في الغرفة دون أن يقطعَ كلامه.

بريطانيا لا تريد أن يقبلَها؛ لأنه لو قبلها فهذا يعني أنه يوافق على انضمام رئيس حكومته لسعد زغلول على مرأى ومسمع العالم كلِّه.

- حتى بعد أن صادر المندوب السَّامي برقيَّته التي كان من المفترَض أن تصلَ إلى حكومة إنكلترا؟

- سعد باشا يجيد استخدام الإلحاح، وأنت تعرف موقفه الثلاثاء والأربعاء ٣، ٤ من الشَّهر.

- هل تعتقد أن مشروعه للسَّفر إلى باريس بدلاً من لندن سيتحقَّق؟

- أتوقَّع كوارثَ تحدث متتالية، هل ستحضُر الاجتماع اليوم في منزل «أحمد باشا الباسل»؟

وأنا أُشعل (سيجارة) وأنهض، أبديتُ موافقتي.

- وهل تفوّت هذه الفرصة؟

وضع ليون يده على كتفي مربّتًا:

- ألم أقل إنك حلمي وحلم إسرائيل أيها الولد النجيب؟

يبدو أنه رأى في عينيَّ حرصي على حضور الاجتماع، ليس لأهميَّته؛ ولكن لما قد يعود علينا من الاجتماع بسعد والحاضرين هناك.

في الاجتماع كان عددٌ كبير من ذوي الرأي ملتفّين حول سعد زغلول وعددٌ كبير من أهل الصِّحافة، منهم من أعرفهم ومنهم من تعرَّفتهم فيه. ألقى سعد أول خُطبة له بعد تشكيل الوفد، كان جريئًا، والإصرار يملأ صوته، بل والذَّكاء والفطنة، وقد خرجتُ من الاجتماع مُلمًّا بكلِّ وجهات نظر سعد، ابتداءً بظروف تشكيل الوفد، والغرض من تشكيله. كنت أسمع نبَرات صوته وهو يتناول هذا المحورَ كأنه يعزف لحنًا شجيًّا مُصرًّا على أن يسحبكَ إلى (نوتته)، تحفظها مع اللَّحن مهما كنت جاهلاً، إنه يتكلَّم بلغة الآباء الحريصين على مصالح أبنائهم، الذين يسرُدون لهم معاناتهم التي أنفقوها؛ حرصًا عليهم وعلى مستقبلهم.

يا له من ألمعي، متصف بكلِّ صفات السياسيِّ المحنَّك،

والخطيب المفوَّه، لقد انفجرت الهتافات بحياته وحياة الوفد حين أبدى أسفَهُ لحرمانه وصَحْبه من السفر للمطالبة بحقوق مصرَ من خلال المطالب التي عرضها علينا، كان يكفيه سردُ المطالب دون الرُّكون إلى مبادئ «ويلسون»، لكن يبدو أن للزعماء مراتبَهُم التي يحترم فيها كلٌّ مقام الآخر، لقد فجَّر سعد قنبلةً جديدة أمام الحاضرين: إنها قضيَّة السودان، موجة أخرى من الهتاف، ويبدو أن سعدًا لم يكن يريد أن يهزمَ بريطانيا وحدَه فحسب، ولكنَّه يريد أن يُحْرجَها، وربما لعب اللعبة المزدوجة التي يضع بها إنكلترا في ضائقة الاختيار، إنني أشهد لهذا الرجل أنه قدير، وجديرٌ بالانتصار في أيِّ معركة كلامية.

قرَّرت أن أكتبَ مقالةً بهذا الخصوص، وأن أوظِّفَ ما قاله سعد لخدمة مشروعنا، وفي نفس الصُّحف. وصلتني «الأهرام» في اليوم التالي الثلاثاء ١٤ (يناير)، تصوِّر الاجتماع وكأنه حفل شاي، حضره بعضٌ من عِليَة القوم، أما في مجلَّة «الصِّهيَونيَّة» فالوضع مختلف، فما نريد أن يُكتَبَ فيها يُكتَب، فلا شأن لقرَّائها بما يحدُث إلا بما يرَون أو يسمعون، لكن لا بأسَ من بعض اللطائف التي تُداعب السياسة من بعيد.

نشر كاسترو موضوعًا عن حقوق الإنسان في المجتمعات، مع بعض تحريف في كلام سعد الذي اتخذ ملامحَ أخرى تناسب العرض؛ ليكونَ المقال المجاور أجدرَ بالقراءة، فهو مقالٌ عن

أهميَّة الكنيس في حياة اليهودي، وضرورة أن يربِّيَ الآباء أبناءهم على حبِّ السيناجوج، وحبِّ الحاخامين والولاء لهم؛ لأنَّهم يعرِّفونهم طريق الربِّ الذي يحبُّهم، ويدَّخر لهم أنهارَ العسل واللبن في أرض إسرائيل الحبيبة التي خُلقنا منها، ولا بدَّ أن تفرحَ بنا حين نعود إليها.

(٢٠)

دخل ديفيد غرفة مكتبي يحمل صحيفة «مصر»، مشيدًا بذكاء تلاميذ «فرج سليم ليشع» الذين يعرفون كيف يوظِّفون الخبر، وأين يضعونه في الصَّفحات، تناولت من يده الصَّحيفة، ظانًّا أنها قديمة، وإذا بها صحيفةُ اليوم الثلاثاء الرابع من (مارس) سنة ١٩١٩، وبعد أن قرأت كلَّ ما فيها وجدتُ زاوية «أخبار محلِّية» في الصفحة الثانية، وضمنها خبرُ استقالة وزارة «حسين رشدي باشا»، ناقلةً الخبر عن «الوقائع المصرية» بتاريخ أمس، مع نصِّ خطاب السُّلطان إلى رئيس الوزراء بقَبول استقالته.

نظرت إلى ديفيد ووجهي يحمل الكثيرَ من الأسئلة، لكنَّ أقربها استفهامي عن ذكاء تلاميذ «ليشع» الذي تحدَّث عنه ديفيد، فأنا لم أرَ أيَّ علامة من علامات الذكاء أو الحرفيَّة، وكان ديفيد يرى أن الجريدة تبدو وكأنها لا تُعير الموضوع أيَّ اهتمام، ولكن كان لي رأيٌ آخر مناقض لرأيه، فصاحب الجريدة

يهودي، لكنَّه يجاري الأحداثَ ويجاري عُرفَ النشر في تلك الظُّروف، ولا يريد أن يعاديَ الإنكليز، أو أن تخرجَ جريدته وفيها أعمدة مُسحَت بفعل الرَّقيب.

كان على مكتبي عدد «التيمس» البريطانية التي مددتُّها إليه، منوِّهًا بنوعيَّة المقالات التي تُنشَر للبريطانيين وقرَّاء الإنكليزية، وأن مقالاً مثل هذا لا بدَّ أن يكونَ ناجحًا بكلِّ المقاييس، فهو يصوِّر جماعةَ الوفد على أنهم حُرموا من المناصب الحكوميَّة، وأن تشكيل الوفد والضجَّة الحادثة إنما تنطوي على غايات شخصيَّة، وبهذه الطريقة يكون موقف سعد زغلول صعبًا جدًّا أمام دول الغرب، ولا عليك من وضعه وصورته في بلده، فهذا العصر وما يتلوه عصرُ الغرب الذي ستناقش كلُّ القضايا أمامه، والصِّحافة تنقل إليهم الصورةَ ليس على ما هي عليه، وإنما على ما ينبغي أن يرَوها عليه، وهذه مسألة محوريَّة في تشكيل الرأي العامِّ تجاه أيِّ قضية.

عقَّب ديفيد على كلامي بأن السُّلطة الإنكليزية هنا تحاول، لكنَّها لا تجد غير الحَجْب أو القصِّ من المقالات، ودلَّلَ على ذلك بأن الصُّحف عاجزة عن نشر أيِّ تفاصيلَ عن موافقة الحكومة البريطانية على سفر وفد «حسين رشدي» و«عدلي يكَن»، وإصرارهما على سفر وفد «سعد زغلول» مما تسبَّب في قَبول السُّلطان استقالةَ الحكومة.

- حركة ذكيَّة من بريطانيا لإلهاء الشَّعب بأنها لا تعارض إجراء مفاوضات، لكنِّي على يقين أن خطَّة بريطانيا ستنقلب على رأسها بعد استقالة الحكومة، وتيقَّن أنها ستؤجِّل سفر «رشدي» و«يكَن» إن لم تُلغه.

خرج ديفيد من مكتبي ليستعدَّ للذَّهاب إلى المحكمة، فلدَيه مرافعة مهمَّة في قضية دَين، لا أعرف كيف أغيِّر صورةَ هؤلاء المرابين التي التصقت باليهود، ولن تتبدَّلَ أبدًا؛ لأن من يحترفها لا يستغني أو يُقلع عنها، لكنَّني أشهد أن هذه الفئةَ من البشر أذكياء جدًّا، فهم يستطيعون التحكُّمَ في المقترضين، ويحيلون حياتهم من فقر إلى عدم القدرة على الفَكاك من الفقر!

- أحضر لي قهوة، وأضئ مصابيح مكتب الطنطاوي بك.

- اتصلَ، وقال إنه لن يأتي.

- أعلم، افعل ما طلبتُه فقط.

«في إسرائيل حرِّية بلا حدود، وأراض بلا حدود، هناك تقف في زاوية يعدُّها العالم كلُّه زاويةً حرجة أنت ستكون المتحكِّمَ فيها، ولو تحكَّمت فيها ستتحكَّم في العالم كلِّه، وفي إسرائيل الربُّ سيحتفل بكم؛ لأنكم ستُعيدون زمن القرابين والبَخُور التي يفرح بها، وسيغدق عليكم أكثر، وسيكون للمعابد أبوابٌ من ذهب وفضَّة، وتحت أرجلكم يجري نهر الأردُنِّ، وتتفجَّر العيون، تروون القمح وتسقون العصافير.

إسرائيل لم تعرف اليأس أبدًا، إنما يبعدنا الربُّ عنها زمنًا حتى يكثرَ لنا فيها العبيد، فنعودَ إليها سادة، ولأن الربَّ يريدكم دائمًا في تجدُّد لم يَعِدكم بأرضٍ غيرها، وإنما بها وحدَها، منها تخرجون وإليها تعودون، فإسرائيل تنتظر البنَّائين والنجَّارين، والفلَّاحين والحدَّادين، وتنتظر الأطفال والصَّبايا، لكن كيف ستذهبون؟

لن تذهبوا قبل أن تستعدُّوا، ويرسمَ كلٌّ واحد منكم أحلامه التي يأمُل أن يحقِّقَها فيها، فهناك كلُّ الأحلام مباحة، وهناك كلُّ الآمال مستطاعة، والأغنيَّات، والرقصات... في إسرائيل للخمر طعمٌ آخر، وللبكاء طعمٌ آخر، وفي إسرائيل للتَّوراة والمزامير هيئةٌ أخرى، أعِدُكم أننا سنُنشد هناك معًا نشيد الأنشاد».

حلمي

- «غزلان».

- أفندم.

- أوصل هذه إلى السيِّد ليون كاسترو في مقرِّ الاتحاد.

سلَّمته الورقة التي تحمل هذه الخاطرةَ الموقَّعة بـ«حلمي» كما يناديني كاسترو؛ لتنشرَ في العدد القادم من مجلَّة الاتحاد، لا بدَّ أن يكونَ في القاهرة نشاط صحفيٌّ أكثر ممَّا هو عليه؛ السِّنما،

الإذاعة، وكلُّ وسيلة لا بدَّ أن يكونَ لها دور في تحقيق الحلم بإسرائيل الوطن... كيف أكبح جِماحَ رغبتي في الكتابة؟ أريد أن أكتبَ وأكتب، لكنَّني مع الكتابة أريد أن أفعلَ أيَّ شيء آخر، أريد أن أهرُبَ من هذه الضُّغوط التي بدأت تتراكم على رأسي. القهوة اليوم لها مذاق لم أعتده، إنها أكثر مرارةً، ربما لأنني لم آكُل منذ الصَّباح، لا شهيَّةَ عندي، لا أريد أن آكل، ولا أريد أن أمشي، ولا أريد أن أقرأ، هل كلُّ الإسرائيليين تحاصرهم الأفكار التي تحاصرني؟

أشعر أنني شرِّير جدًّا حين أفكِّر في السَّيطرة على هذا الشَّعب، أشعر أنني كمن أكل من خبزة ثم بال عليها، أنا لست متأثِّرًا بما يجري من أحداث، على الرُّغم من متابعتي لكلِّ صغيرة وكبيرة، بل أرى الغد من خلال ما يجري حولي، ومن طبائع الناس الذين يسعَون إلى استقلال مصر، لكنَّ مصر وسعت كلَّ الجنسيَّات، بالضبط كما تفتح حدودها للطُّيور المهاجرة في كلِّ موسم لتتكاثرَ فيها، ثم ترحل عنها، نحن أيضًا طيورٌ مهاجرة، حكمت علينا الظُّروف أن نكونَ هنا لنرحل، إلى أين نرحل؟ هل سنرحل هذه المرَّة ليأتيَ يوم ونبعثر في بلاد الدُّنيا من جديد؟! ويحك! وهل كنت مبعثرًا؟ أنت ولدتَّ وما تزال تعيش هنا، عشت هنا في الفقر، ولولا الوطنُ لما جلست في مكاني هذا، ولا صارت معي هذه الأموال، ولا نظر إليَّ أحد، وبقيت

ابن يعقوب القمَّاش وراشيل الدلَّالة.

كنت سأستحي أن أذهبَ إلى بيت سارة بفقري، وكنت سأبقى نكرةً.. لن يعرِّفَني ديفيد إلى أحد، وربما عملت بيَّاعًا في وكالة الحاجِّ محمد محمود إلى آخر عمري، أو ربما كنت سأفتح دُكَّانًا يؤمُّه الفقراء والمحمديون يشترون خِرَقًا وأكفانًا...

لماذا لا تفارقني فكرة الفقر، وأنني ابن الدلَّالة، على الرغم من الجهد الذي أبذله للانفصال عن ذلك الماضي البغيض؟ كلُّ جلدي تبدَّل، وأعيش عِيشةَ الأغنياء، وحولي الخدم، والمتعة، واللذَّة، والأبواب المفتوحة، والنساء، والرجال، وأصحاب المناصب الذين يخطُبون وُدِّي... تنقصني الشُّهرة، وأن أستعدَّ لمنصب يليق بأفكاري وطموحاتي.

نعم، أنا أستحقُّ أن يكونَ لي ما ليس لغيري، لا من قبلي، ولا من بعدي، أنا الذي سأبني إسرائيل، ولن أتنازلَ عن مبادئي لتحقيق هذا، بل سأكون أستاذًا، أشهرَ أستاذ يعلِّم الإسرائيليين أن لبناء الوطن تضحيات، والأنسب لنا أن نضحِّيَ بغيرنا لنبقى نحن، ماذا ستكون إسرائيل التي تُبنى، والعرب من حولها، والبحر أمامها؟ إنها قشَّة على ظهر بحر لو هبَّ إعصار لتحطَّمت، وتناثرت مع الرَّذاذ البارد؛ لتلعبَ بأشلائها الرِّيح، حتى تُلقيَها في نار، فلا يبقى منها شيء.

الظَّلام حلَّ من حولي، والخادم ذهب، وأنوار فوانيس

الشَّوارع بدأت تطلُّ من النافذة، إلى أين أذهب؟ تشعَّبت طرقي كما تشعَّبت مذاهبي، لماذا تهجُم عليَّ قوافل الحزن تلفُّني هذا المساء؟ أين ذهبت «رحيل»؟ لماذا لم تعُد تطرق أفكاري كما كانت في السَّابق؟ لم تزل هي الأجملَ من بين كلٍّ من قابلتُهنَّ... كلهنَّ نساء، بل عاهرات، لكنَّ طيبة بنت، جميلة، أنيقة، ثرية.. هي أيضًا قلَّما تطرق أفكاري ملامحها الشرقيَّة، والسِّحر الخاصُّ في عينيها وإمساكها بالرِّيشة، وملابسها التي لا تلتزم طِرازًا خاصًّا، أشدُّ ما لفت انتباهي حبُّها للملابس المصمَّمة على طِراز مصري، إنها تحبُّ مصر، هذه الفكرة تُلحُّ عليَّ وأكرِّرها دائمًا، طيبة تحبُّ مصر جدًّا، لكنَّها في نفس الوقت تحبُّ إسرائيل، لم تؤكِّد لي حبَّها إسرائيل، ولم تُبد أيَّ إقبال على الأفكار الصِّهيَونيَّة، إنها انقطعت عن الحضور إلى بيت الخيَّاميَّة منذ آخر مرَّة بعد عودتنا من الإسكندرية، لا بدَّ أن أغادرَ المكتب، أشعر أن الليل هنا سيجلب عليَّ المتاعب، سأذهب إلى أمي.

لم يفهم الإنكليز طبيعة الشَّعب المصريِّ على الرُّغم من قِدَم الإقامة فيها، أو أنهم لم يتخلَّوا عن صَلَفهم وتعجرُفهم، فالقبضُ على «سعد زغلول» و«محمد محمود» و«إسماعيل صدقي» و«حمد الباسل» ونفيُهم إلى «مالطة» لم يمرَّ بخير، بل إنه أحدثَ

ظاهرةً أعتقد أن عمري كلَّه لا يكفي لدراستها، ويمكنني أن أختصرَها في عبارة واحدة: السَّبُع لا يفترس إلا إذا استبدَّ به الجوع، والإنسان لا يفترس نفسَه إلا إذا لم يجد طريقًا يسلكه إلا عبرَ روحه.

وبرغم أن الصِّحافة حاولت أن تقنعَ العالم كلَّه أنها حالاتُ شغب يقوم بها العاطلون والأوباش، رأينا أن أولَ من أشعل هذه الثورة كان طلاب مدرسة الحقوق، تبعهم طلابُ باقي المدارس، وانخرط فيها الشَّارع بأكمله.

فتنة أغلقت أبوابَ البيت بالمفاتيح، ونبَّهت ليشع ألا يسمحَ لي بالخروج من البيت نهائيًا، فالقاهرة تهتزُّ، والثورة استدعت حتى الفلاحين من حقولهم، إنها كالحُمَّى التي دبَّت في جسد مصرَ كلِّها، وما عاد النيل قادرًا على إطفائها.

الشتاء يُلملم بقاياه، والربيع متأهِّب، بدت علاماته في حديقة بيت الخيَّاميَّة، وأشجار البيوت المقابلة، هل هذه بشائر بعث جديد لهذا الشَّعب الذي انتفض غيرَ آبهٍ بأيِّ عواقب، يريد فرضَ سُلطته على الدُّنيا كلِّها؟

مرَّت المسيرات في كلِّ شوارع القاهرة وأحيائها، تمرُّ بمقارِّ مندوبي الدول جميعًا... المنشورات لسان الوفد والرَّافضين لنفي زعمائهم، تأتيني الصُّحف فلا أرى فيها إلا مقالات مشوَّهة، اليوم يمرُّ تلو اليوم، وفتنة تقصُّ عليَّ ما يجري في

القاهرة، الطنطاوي بك لا يأتي، فتنة تقول: إن أمر منعي من الخروج صادرٌ منه، لماذا يفعل بي هذا، ويحبسُني في هذا البيت؟ عجيب أمر هذا الرجل.

مقالاتي تُنشَر فقط في المجلَّة الصِّهيَونيَّة، فتنة هي التي تولَّت أمور مقالاتي، وصارت تناقشني في كثير مما أكتب، وصرت أقضي وقتي بين الكتب والشُّرفة والأفكار، كيف أبقى في هذا الأسر؟ أنا لا علاقةَ لي بما يجري في القاهرة، لم أنشُر أيَّ مقالات تحرِّض على الثورة، أو تعارض الإنكليز.

طلبت منِّي فتنة أن أكتبَ قصَّةً عن شابٍّ يهوديٍّ اشتعلت النيران في شقَّته المستأجَرة حين كان يقوم برحلة سياحيَّة في إسرائيل، ماذا تقصد؟ كتبتُ القصَّة التي انتهت بأن الشابَّ وجد كلَّ من حوله يُطفئون النِّيران من يهود ومسلمين ونصارى، فقرَّر أن يشتريَ الشقَّة، ويرمِّمَها لتكونَ أفضلَ مما كانت عليه... بعد يومين جاءتني تحمل مجلَّة الصِّهيَونيَّة، والقصَّة منشورة في صفحتها الأولى.

الوقت يمرُّ ببطء، فلماذا لا أستغلُّه مع فتنة؟ عرفت أنها من أصل مغربي، ولدت هناك وجاءت إلى مصرَ مع أهلها منذ ثلاثين سنة، أبوها كان يعمل صرَّافًا في إحدى شركات موصيري، وفيها تعرَّف السيِّدَ الطنطاوي بك، ونشأت بينهما صداقة، لم يكن رجلاً عاديًّا، وإنما من أشدِّ المؤمنين بالعودة

إلى «أورشليم»، أقنعه الطنطاوي بالبقاء في مصر إلى أن تتحسَّنَ الأحوال هناك، خصوصًا أنه لم ينجب غيرَ فتنة.

تعلَّمت في البيت على نفقة الطنطاوي، أوجد لها أبوها وظيفةً في الشَّركة التي يعمل فيها، وهناك بدأت تكوِّن علاقات واسعة، كان الطنطاوي معجبًا بهذا ويحثُّها عليه، كان يغذِّيها بأفكار تحرُّرية، ويقصُّ عليها قصصَ إسرائيل ورحلات الخروج منها. فتنة لا تمنحك الفرصة لتعرفَ كلَّ شيء عنها، بل تمتلك قدرةً عجيبة على أن تكوِّنَ مشاعرها في الوقت الذي تريد وبالطَّريقة التي تريد، الوظيفة لم تُشبع طموحها، خصوصًا أنها تعرَّفت بناتِ الأسر الرَّاقية، قرَّرت أن تكونَ سيِّدةَ كلِّ هؤلاء السيِّدات بأن يكنَّ دائمًا في حاجة إليها!

الحِرباء تُبهرك بألوانها، والعُصفور يُطربك بصوته، والتِّمساح يوهمك بدموعه، والقطَّة قادرة على نقل ألف عدوى إليك حين تحتمي بحِضْنك... فتنة التي لم تصرِّح لي باسمها الحقيقيِّ شخصيَّة جديرة بأن تكونَ فتنة، وأن تكونَ على هذا القدر من الثقة في نفسها، خمسة وثلاثون عامًا لم تزدها إلا نضارةً ورقَّةً ونعومة.

الجمعة الحادي عشر من (أبريل) توجَّه الوفد إلى «بورسعيد»، ومنها إلى «مالطة» كما قُرِّر له حيثُ يلتقون الجماعة المنفيَّة، ومن هناك إلى «باريس»، بريطانيا في حرَج أمام نفسها؛

شعب ضحَّى بمظاهر المدنية ليعيدَ رجلاً، تكاليف إصلاح (الترولي) والقطارات والشوارع باهظة.

سافر يوسف بتشوتو وليون كاسترو إلى باريس؛ ليكونا مع سعد زغلول، جاءني هذا الخبر ليكونَ بمنزلة شبكة تصيدني من البرِّية لتلقيَ بما فيها في قاع البحر، لماذا هما مع سعد؟ هل أنا هنا محبوسٌ والعالم كلُّه يتبدَّل حاله في الخارج؟ هل قرَّر الإسرائيليون التنازلَ عن كلِّ المبادئ، وأعلنوا مصريتهم الكاملة، ويناصبون بريطانيا العداء علنًا؟ لا بدَّ أن أخرجَ من هنا، ماذا أفعل وقد رتبتُ مع فتنة خطَّة دعائية تجري في بيوت المصريين؟ المصريَّات خرجنَ إلى الشَّارع يشاركن في الثورة، وكشَفنَ وجوههُنَّ، وانفتحت الأبوابُ والنوافذ، المرأة قامت بواجبها تجاه وطنها وتجاه قضيَّتها، ومن العيب أن تتخلَّى عن هذا الدور، ومن الظُّلم ألا تستمر، وألا يُعترفَ بما قدَّمت لبلادها، فلا فرقَ بينها وبين الرجل، مكان المرأة الآن مختلف، إنه الشَّارع الذي يناديها، فإلى متى تبقى محبوسةً خلف الجدران والمشربيَّات؟ أين حقوقها التي أقرَّها الإسلام؟ المرأة المسلمة كانت خلفَ الجنود لا تسقيهم فقط، بل تشدُّ من أزرهم، وإذا لزم الأمر حملت السِّلاح.

«الطهطاوي» و«محمد عبده» و«قاسم أمين» مفكِّرون، وهم أعلم بصالح المجتمع المصري، ما أروعَها من ثورة هذه التي

قامت لتخدُمَ إسرائيل! ما أبدعَها من أفكار تلك التي تنتظم في رأسي الآن! غباء أن نضيعَ هذه الفرصة من أيدينا، أين أنت الآن يا فتنة؟ المصريون الآن ينصهرون، فتعالَي نعدَّ القوالب التي نصبُّهم فيها، ليست فتنة وحدَها، بل يهوديت، نعم يهوديت وصاموئيل إسرائيل... أرى الدِّماء تسقط من أصابعه الناعمة، قد يأتي يوم وأكشفُ عن ساقيه؛ لأتيقَّنَ أنه أمرد.

الأشجار حافلة بالثمار، والعطور تملأ أجواء الحيِّ، المصريون خلفَ تلك البيوت في الميادين والشَّوارع، يتوقَّعون أن الربيع جاءهم بثماره اليانعة، أما أنا فأرى إسرائيل من خلف كلِّ الحُجُب تنبت أزهارها وأشجارها من بين أصابعي.

في المساء جاء الطنطاوي بك ومعه يوسف باشا قطاوي، والحاخام حاييم ناحوم، جاؤوا إلى بيت الخيَّاميَّة على غير العادة في هذا الوقت من الليل، توجَّست من هذا المجيء، لا بدَّ أن هناك أمرًا جللاً استدعى حضورَ الثلاثة، حين صَعِدَت فتنة إلى حُجرَة المكتبة، كنت لم أزل غارقًا في أفكاري وتكهُّناتي... همست لي بأسماء الحاضرين، فغرقتُ أكثر، لكن في منطقة أعمقَ من مجرَّد التفكير في إسرائيل، بل في هذا الثريِّ الأنيق، والسياسيِّ المحنَّك الذي أتى مع البك والحاخام الدَّاهية الذي لا تستطيع أن تنفِّذَ قرارًا بشأن تعاملك معه، كأنه كتابٌ له جلد سميك، تعاقدت عليه ملايين الشُّموس والأعاصير

والـرِّيـاح، وطـمـرتـه الـبـراكـيـن، واسـتـخـرجـتـه الـزَّلازل والتصدُّعات...

بينما أنا غارق في هذه التداعيات أخرجت لي فتنة حُلَّةً لأبدِّلَ ملابسي، وكان ردُّ فعلي غيرَ متوقَّع، فقد رفضت مبديًا اعتراضي على الاجتماع بهم؛ فليس لديَّ أيُّ علم، ولم يطلبني الطنطاوي لهذا الاجتماع! لكنَّها عقَّبت بأنه هو الذي أرسلها لتبلِّغَني رغبتَه في حضوري الاجتماع معهم، لا بأس؛ يجب ألا أُغضبَ الطنطاوي أو أردَّ له أمرًا.

إلى أن نزلت كان «مراد فرج ليشع» قد انضمَّ إلى الجمع، والطنطاوي بك يقدِّم لهم الكؤوس بنفسه، استقبلني الجميع بتَرحاب، مبدين إعجابًا بما ينشر لي في الصُّحف.

يوسف قطاوي ينظر إليَّ بصمته الهادئ المعتاد، وابتسامته الناعمة من فوق شاربه الكثِّ الأنيق، حين وجَّه إليَّ الحاخام سؤالاً عن رأيي فيما يجري من أحداث، عبَّرتُ عن إعجابي بهذه الانتفاضة التي هي ثورةٌ على الذات أكثر منها على الوضع العامِّ للبلد، وفي نفس الوقت أبدَيتُ احترازي من أن هذا يعني أن الشعبَ بدأ يفكِّر بعقليَّة جديدة، وإن كانت ما تزال في البواكير ولكن من الأفضل أن نتخذَ الحيطة، وأن نبذلَ جهودنا في كلِّ الاتجاهات التي تحوط هذا المدَّ الجديد، ليس لقمعه، وإنما لفهمه والتعامل معه على أنه واقعٌ. والتعلُّم من تجرِبة

الإنكليز مع المصريين واجب؛ فأيُّ محاولة إلى العبث بالانتفاضة مغامرةٌ غير محسوبة، والأفضل والأسهل توجيهها، فهي قابلةٌ للتوجيه بحكم الاندفاع، وقلّة الخبرة والتجارِب، وتشعُّب الأهداف والوسائل.

استوضح ليشع منّي أكثر، التيّار كلُّه الآن في ركب سعد زغلول، وهو رئيسُ حزب، هذا الحزب مسبوق بالحزب الوطني، وحزب الأمّة الذي نشأ فيه سعد، فلنُمهل الأمّة مؤقّتًا، ولننظُر للوطنيّ المقضيّ عليه، ننفخ فيه.

- خطر يا إيزاك.

بهذا علّق قطاوي.

- لا أقصد في ذات الحزب يا باشا، وإنما هي الدّعوة إلى تنشيط الحياة الحزبية في مصر؛ لدعم مشروع الاستقلال؛ اقتداءً بتجرِبة الوفد، ولا مانعَ من إعداد دراسات عن أثر تعدُّد الأحزاب في تحقيق آمال الشعوب في العالم في ظلٍّ مبدأ القومية والوطنية.

عَبِثَ ناحوم بلحيته متبسّمًا، يهزُّ سبّابته في اتجاهي قائلاً:

- هي هذه أيها الفذُّ، فعلاً القومية والوطنية ليست بالكلام، وإنما بالفعل، وإذا تباينت الفلسفات والمعتقدات وُضع أصحابها على مِحَكٍّ خطر، مهما كان الهدف واحدًا، خصوصًا مع سيادة

روح الزَّعامة وثورة الشَّعب، واقتراب طيف الاستقلال، فلا بدَّ أن يبحثَ كلُّ زعيم عن مكانه ومكانته.

«ليشع» الذي كان يستمع لكلِّ حرف كأنه يستعدُّ لكتابة قصيدة جديدة، مسحَ على وجهه قائلاً:

الحكومة مع الوفد.

دون أيِّ تردُّد رددتُ عليه قائلاً:

- ونحن في قصر السُّلطان، الباشا في القصر، وهناك من هي أقرب منَّا جميعًا إلى أوردة الحكم والقرار يا سيِّدي.

تبادل الجمع النظرات، لم أنزل عينيَّ من على الباشا الهادئ جدًّا، فهمت أنه فهمني، أو أنني لم آتِ بجديد، هذا طيِّب جدًّا، أقلُّ فائدة أحصِّلها أنهم عرفوا أنني أفكِّر كما يفكِّر الكبار، نعم، أقصد «أليس هانم» حرم الباشا، ووصيفة السُّلطانة «نازلي» زوجة السُّلطان، ولا تنسَوا أنها تعرف الكثير والكثير عنها، بل...

أخرج الطنطاوي بك (سيجارًا) أشعله، حاييم ناحوم وضع ساقًا على ساق، ما زال يعبَثُ بلحيته والابتسامة الماكرة مرتسمةٌ على وجهه، أشعر بفتنة من خلف الجدران تتراقص؛ لأنني قبضت على أفكار كلِّ هؤلاء، وقرَّبتها مسافة من أشياءَ تحلم بها، دخولها علينا تحمل القهوة كان فرصةً لا تتكرَّر؛ لتغيير

مجريات الحديث.

- «بتشوتو» غير مرتاح لما يجري بين الوفديِّين في أوربا، وغير مرتاح لما يجري بين سعد زغلول ورفاقه من الوفديِّين.

هذه هي العبارة التي نطق بها الباشا يغيِّر بها مجريات الحديث، فالوفد يواجه تحدِّيات صعبة، ويحاول بكلِّ الطرق أن يستميلَ الرأي العامَّ في أوروبا لصالحه، ولو بشراء الكتَّاب والصحفيِّين، لقد وجد الوفد أن الحماية آتيةٌ لا محالة، خابت آمالهم في «ويلسون» الذي رسمت مبادئه الأحلامَ للمصريين حتى عاشوا الاستقلالَ بكلٍّ تفاصيله.

أنهى الباشا قهوته بين الأفكار التي تدور في رؤوسنا جميعًا، علَّق على الأحداث بأنها تجري على عكس المتوقَّع، وأن الحركة الوطنية التي تعمُّ مصر قرَّبت جدًّا بين المسلمين والنصارى، ولا مانع من أن يشاركَ اليهود في هذه الحركة بالصُّورة التي تجعل لهم خطوطَ رجعة إذا ما حدثت في الأمور أمور، فالعقلاء يُدركون أن مصالحنا الآن كلها في مصر، ولن نضحِّيَ بهذه المصالح لأجل طموحات وأحلام إنكلترا، أو غير إنكلترا، ولا لأجل أحلام الذين صاروا زعماء للمصريين.

متفرِّسًا في وجهه علَّق ناحوم بأن الحكيمة «نظلة ليفي» ألقت محاضرةً احتفلت بها الصُّحف المصرية، مشيدةً بالطائفة اليهودية في مصر، لكنَّنا طبعًا يا باشا لن نقبلَ أن توضعَ النجمة مع

الهلال والصَّليب.

الدِّماء تدفَّقت إلى دماغي فجأةً حين سمعت الهلال مع الصَّليب، فأيُّ هلال وأيُّ صليب يتعانقان؟ ولماذا؟ كيف يتكلَّم هؤلاء الشُّيوخ بهذه السهولة، وكأنهم غافلون عن الرَّمز الذي يتحدَّثون عنه؟ أيعون أبعاد عناق الهلال مع الصَّليب؟ أنا لن أبقى حبيسًا هنا، يا طنطاوي بك، أنا لن أبقى حبيسًا هنا، لماذا أنا محبوس، وكلُّ هذه الأحداث تدور بالخارج؟

بطني يتقلَّص، ومعدتي آلمتني حين انفعلتُ بهذه العبارات، الكلُّ ينظر في وجهي، وإلى جسدي الذي لم أعُد أشعر به، لكنَّ الطنطاوي مبتسم، ينفُث في الهواء دُخانَ (سيجاره)، ما له ينظر إليَّ هكذا بهذا البله، كأنني قطَّة أراد أن يحتفظَ بها للزِّينة في بيته؟ أريد أن أرى هذا العناقَ بين الهلال والصَّليب وكيف اجتمعا، وعلى أيِّ أساس؟

- يا سادة، أنتم لا تزِنونَ الأمور كما يجب أن توزن.

الدَّهشة تفجَّرت على الوجوه، لم ينطِق أحد، كلُّهم ينظرون إلى الطنطاوي.

- يا سادة، أنتم هكذا أضررتم بإسرائيل، وسيأتي يومٌ تبكون لأنكم تركتم الهلالَ يجتمع بالصَّليب، وتتبادلون الكؤوس فيما بينكم، هل أنتم من الذين يسعدون بالاضطهاد والقلَّة؟ لا وقتَ الآن للبكاء الصَّامت، أو للهمس داخلَ البيوت والمعابد،

تقولون: إن المعابد ليست فقط للدِّيانة والتعبُّد، هيَّا كي تكونَ لما هو أكبر وأخطر؛ لتكونَ هي إسرائيل، وإيَّاكم أن يجتمعَ الهلال بالصَّليب، ولن أبقى حبيسًا هنا لتأتوني كما أراكم، أو تأتيَني الأخبار تحرقني أو أتسلَّى بها، وأنتم تتسلَّون بي.

وقفت، وقف الطنطاوي، اقترب، ضمَّني إليه ضمَّةً قوية، شعرت أن أفعى تعصرني؛ تمهيدًا لابتلاعي، ردَّني، صافحني بقوَّة قائلاً:

- لو لم تفعل هذا لكسب هؤلاء السَّادة الرِّهان يا عزيزي.

قام الجالسون يصافحونني، خرجت فتنة تحمل زجاجةَ نبيذ، أفرغت في الكؤوس منها، رفعنا الكؤوس، كلُّهم في فرحة، وأنا غارق في التعجُّب والدَّهشة، لكنَّ الجميع يشربون نخب إيزاك قمَّاش، والمفاجأة الكبرى كانت فتنة...

عيناي تصرَّان على الخروج من مَحْجِرَيهما، ودمي احتُبس، وأنفاسي تلاحقت تُسابق أفكاري وكلَّ ذكرياتي... بكلٍّ (بساطة) يشير إليها الطنطاوي بك:

- السيِّدة فتنة، عضو المنظَّمة الصِّهيَونيَّة لشؤون التوجيه المعنويِّ والدعائي، والكاتبة الصحفيَّة.

رفعت فتنة كأسًا قائلةً: نخب إسرائيل.

جلست في مقعدي، أشعر أنني طفلٌ لم يتعلَّم حروف

الأبجديَّة بعد، صفعة أبي تُلهب خدِّي، وخَفَقان قلبي أقوى من الطَّبل ومن مطارق النحَّاسين، أريد أن أسيرَ في الشَّوارع، وأختلطَ بالناس، أريد زحامًا شديدًا، أين عماد الآن أمارس عليه ذكائي؟

أنا غبيٌّ أمام كلِّ هؤلاء الذين يعرفون، وحدي بينهم لا أعرف! أريد أن أفترسَ كلَّ مفاتن فتنة التي كنت أريد أن أوظِّفَها لتنفيذ أفكاري، هل هي التي كانت تدرِّبني لأنفِّذَ مخطَّطاتهم؟ ألهذا الحدِّ كنت غافلاً، مغترًّا بأنني أجيد الاستنباطَ والقياس؟!

سحقًا لـ«أرسطو«! وسحقًا لـ«بورجياس» و«بروتاجوراس»، ولكلِّ القادرين على تشكيل الحقائق، وقلب الموازين، على من تعلَّم كلُّ هؤلاء؟ أنا لم أتعلَّم أيَّ شيء بعد، المرأة ساعدت أبي، ويقيني أنها ساعدت هؤلاء لقتل زوجها، يهوديت تعرف كلَّ من في الحارة، وأبوها... نعم، نعم، أبوها... من أبوها؟ هل عليَّ أن أنتظرَ مفاجأةً أخرى لأتعرَّفه؟ كيف اعتقدتُ أنني حلُم إسرائيل؟ لا، أنا حلُم كاسترو، لن أكونَ ورقةً يلعبون بها؛ لأنها تحمل الرَّقْم الرابح.

- أنت سيِّدُ فتنة المصرَّة أنك قادر على استعباد النساء.

- بل هي تستعبد الرجالَ والنساء!

- أليس هذا ما تريده أنت؟

- في مخطَّطي أنها إحدى أوراقي.

- أتتك جاهزةً بكلٍّ من معها.

- وماذا لديَّ لأقدِّمَه إذا كان هؤلاء لديهم كلُّ شيء حتى أفكاري؟

- عقلك، قلمك، علاقاتك، وحتى هؤلاء سيكونون أوراقًا في يديك.

- بل أتركهم وأعمل لأجل إسرائيل وحدي.

- تريد أن تفعلَ ما كنت تريد أن تفعلَ بالمصريين؟ الانقسام؟

- كفِّي عنِّي؛ فقد تعبت منك، تذهبين في الأحلام والأوهام، والآن تدَّعين الفضيلة؟

- الفضيلة داخلك، بل هي أنت، الفضيلة إسرائيل مهما كان الثمن، الفضيلة أن تنتظمَ في الحلقة، الفضيلة أن تنفِّذَ أفكارك في مصرَ وغير مصر؛ فإسرائيل قوَّتها في ألا يكونَ حولها قوَّة، أليس هذا كلامَك؟

- طنطاوي بك.

نظر إليَّ دون أن ينطِق، عيناه توحيان بأنه ينتظر منِّي أمرًا عظيمًا.

- أريد أن أشتريَ شقَّة خاصَّة.

تبادلوا النظرات جميعًا، أتحاشى النظر في وجه فتنة، لكنّي لمحت فيه علامات متداخلة، أهو الحزن؟ أهي الدَّهشة؟ المفاجأة؟ الصَّدمة؟ لا أعرف، ولا يهمُّني الآن أن أعرف، ولن أبقى أسوِّف، ما أريد لا بدَّ أن يكون.

- علمت أن أمَّكَ انتقلت إلى الشقَّة المجاورة للسيِّدة ماكلين.

- نعم يا بك، لكنَّني أريد شقَّة خاصَّة.

- ولماذا يا إيزاك؟

- هذا ما يجب.

يبدو أن النظرات المتبادلة بينهم كانت قد أقرَّت القرار.

- ما رأيك في العبَّاسيَّة؟ حيث الهدوء والبُعد عن الازدحام يا إيزاك.

علَّل لي ليشع سببَ اختيار العبَّاسيَّة، وأفاض في القول أنني سأجد فيها الراحة، وفي الوقت نفسه لا أكون بعيدًا عنهم، وأكون قريبًا من أختي سارة.

- موافق.

الطنطاوي صامت، يائسٌ من النقاش معي، ولماذا يناقشني أصلاً؟ أنا هنا ضيفٌ في بيته الذي صرت أراه وَكْرَ تدريب لي، أعترف أنه أعاد تكويني من جديد.

أعلن الحاضرون عن رغبتهم في المغادرة، صافحني الباشا

قطاوي بحرارة قائلاً:

- كنَّا نعلم أنك مستعدٌّ في أيِّ وقت أن تكونَ حاملَ راية إسرائيل، وأستاذك قدير، لا يُراهن رهانًا إلا يربحه، كثيرون ينخدعون في براءته البادية، وهدوء طبعه، وقلَّة كلامه، في حين يمتلك مقوِّمات شخصيَّة القائد، والمحارب الذي يملك كلَّ الأدوات ليجعلَ جيشًا بأكمله يموت إرضاء له، ولو أراد لصار أقربَ المقرَّبين من السُّلطان، بل لصار محرِّكًا للسِّياسات في مصر. وحين تعرَّفك أخبرني أنه وجد الطنطاوي في صباه، وها هو ذا بعثه من جديد، أنا سأُريحك مما أنت فيه الآن، أنت ثائرٌ لأنه منعك من الخروج طيلة المدَّة السابقة، وقد وافق منَّا كثيرون على فكرته هذه؛ لأننا عرفنا مَن هو إيزاك الذي خرج من بيت أخته هائمًا حين كانت ثائرةً بما علمت عن أبيك الذي كان بطلاً مؤمنًا، ويهوديًّا حقيقيًّا...

قاطعه الطنطاوي:

- كنَّا نعرفك يا إيزاك، لكن لم يكن إيزاك ابن القمَّاش هو إيزاك الذي حاور عقلي برغم حداثة سنِّه؛ لهذا قرَّرت أن أبعثَ الطنطاوي من إيزاك الذَّكيِّ الألمعي، وكان مما بقي أن أحبسَه! نعم أحبسك، ولا تدهش؛ لأنك لو كنتَ خرجت للشَّارع وعشت الرُّوح التي بُعثت في المصريين والتي حاولت الصُّحف أن تغبنَها لكنت تعاطفت معهم، ولما كنت هذا الثائرَ الآن الذي

ألقى علينا درسًا في عواقب ائتلاف الهلال والصَّليب، نحن نعرف ما تريد، وفي الوقت نفسه نريدك، نريد الرجلَ المفكِّرَ النَّابه، الذي يريد أن يغيِّرَ شعبًا بأكمله؛ لأجل حلمه بإسرائيل.

دبَّت الثقة في نفسي، أنا لست متردِّدًا، ولا أُطوى بالكلمات البرَّاقة، ليشع يتأمَّل تفاصيلَ الزَّهرية الإيطالية، تفكيره لم يكن معنا، أشعر أنه مصريٌّ برغم تعليق ديفيد على صحيفة مصر، لا يعنيني، حاييم استحسن كلَّ ما قيل، صافحني مقدِّمًا دعوةً لي أن أزورَه في «السيناجوج»؛ فلديه الكثير يريد أن يحدِّثَني به... همُّوا بالانصراف.

- وماذا عن الشقَّة؟

كان استفهامي أشبهَ بالنَّشاز في لحن مطرب متناغم، لكنَّهم ضحكوا، تعجبني ضحكة القطاوي الشَّامخة العميقة، أما ضحكة حاييم فهي ضحكة صِهيَونيَّة بكلِّ ما تعنيه الكلمة، إن هذا الرجلَ هو أكثر الحاضرين امتلاكًا لفُرَص الصُّعود، بل إنني موقنٌ أن لديه الكثيرَ الكثير مما يجب أن أتعلَّمَه، والأكثر مما أريد أن أعرفَه، وسأعرفه.

- الشقَّة ستكون جاهزةً قريبًا، لكن عليك تأثيثها يا حبيبي.

حين ردَّ عليٌّ الطنطاوي بهذا الردِّ أيقنت أنه بدأ يقرأ ما برأسي.

صافح الجميع فتنة، ولأول مرَّة أرى أحدًا يقبِّل يدها، مُبديًا إعجابه وتقديره، تبعتُهم إلى الباب مودِّعًا وشاكرًا لهم... علامَ أشكرهم؟!

فتنة لم تغادر، أغلقت البابَ بالمفتاح، لم تمنحني أيَّ فرصة للنقاش، لم تنطِق بكلمة، كنت كالرِّيشة الجافَّة التي حملتها الرِّيح، لا تملك إلا أن تعلوَ وتهبط، أو كالسَّفينة في الأمواج.

(٢١)

زارني ألبرت موصيري في مقرِّ الاتحاد، كنت أكتب مقالةً تحت عنوان: «لماذا لا يعرف كلُّ ذي حقٍّ حقَّه؟» شرب معي القهوة، وعرض عليَّ فكرة كان يناقشها مع ليون كاسترو، المجلَّة الصِّهيَونيَّة لم تعُد تفي بالغرض، لا في مصر ولا إسرائيل، والطائفة في حاجة ماسَّة الآن إلى مجلَّة بروح جديدة.

تضايقت جدًّا من طريقته في عرض الموضوع؛ لأنَّهم لا يريدون التخلُّصَ من طريقتهم في التفكير، هذا المشروع أُلحُّ عليهم به منذ زمن، والآن جاء يعرض عليَّ الفكرة بعد أن اقترحها كاسترو، لسنا في حاجة إلى مجلَّة واحدة، نحن في حاجة إلى عدَّة صحف منظَّمة ومنتظمة، وبحاجة إلى كتَّاب مهَرة؛ فلسنا مثل المصريين، لدينا قضيَّة واحدة نشعِّبها ونجمعها، ونفصِّلها وناقشها، وتختلف آراؤنا حولها... بل إن ما فيه المصريون ليس قضيَّة، إنها بالنسبة لهم حتميَّة، أما القضيَّة

فهي قضيَّتنا التي يجب أن تبقى قضيةً إلى الأبد، فإصدار حكم نهائيٍّ فيها معناه انتهاؤها، خصوصًا هنا، في مصر... ما زالت الأصوات تنادي بأن مصر هي قلبُ العروبة، ولا خطرَ منها تلك الأصوات التي تنادي بأنها معقلُ الإسلام، ومنارة الثقافة، ما زال المعمَّمون يَسُودن المشهدَ في القاهرة، ولو ارتدى صبيٌّ زِيَّ الأزهر لهمَّ الناس - حتى الشُّيوخ - بتقبيل يده، واليهود يتكلَّمون كلَّ اللغات عدا العبرية، إلى متى تبقى العبرية «للسيناجوج»؟ احتكرها الحاخامون، صار للعبادة لغةٌ خاصَّة؟ اللغة في حدِّ ذاتها جيش، إذا انهزم لن يقومَ بلد ولو اجتمعت له جيوش الأرض.

- سيِّد ألبرت؛ نحن لسنا في حاجة إلى ما تفكِّران فيه فحسب، نحن في حاجة إلى مؤسَّسة صحفيَّة لها برنامَج ثلاثيٌّ محكَم، وتنظيم يمكنه الإحاطة بكلِّ ما حولنا، وإيصال كلٍّ ما نريد بالطريقة التي نريد، وفي نفس الوقت يمكننا أن نعرفَ من خلاله نتائجَ ما ننشر.

كعادة موصيري حين تعرضُ عليه أمرًا يحتاج إلى التأمُّل والتفكير، تشعر أنه تركك ورحل، تاركًا جسده أمامك؛ كي لا تكفَّ عن الكلام، طلب قهوة.

- سيِّد موصيري، أنت عضو اللجنة المركزية للمنظَّمة في مصر، ومُحيط بكلِّ الأحداث في العالم، وتعرف كيف يتعامل

الأوربيون مع الصِّحافة، وكيف تتعامل معهم الصِّحافة، وتجرِبة سعد زغلول، ومحاولة استمالته للصُّحف الشيوعية في كلِّ الدول خير دليل، وليس من المَرضيِّ أبدًا أن نعتمدَ على لغة واحدة للخطاب، والوضع العامُّ الآن متيح لكلِّ المحاولات، ولا أعرف إلى متى سأردِّد هذا الكلام!

- بم تشير يا قمَّاش؟

- ثلاث لغات.

حملق الرجل في وجهي كأنه يسمع تنزيلاً من السَّماء.

- أيُّ لغات؟

- العبرية والفرنسية والعربية.

- الذين يقرؤون العبرية قلَّة، ثم إن هذا سيفتح علينا العيون، ويحرِّك المصريين الذين لا يعرفون عنَّا شيئًا إلى التساؤلات، ونحن في غنًى عن هذا.

- انتبه معي جيِّدًا من فضلك، أكرِّر عليك: ما دام المصريون مقتنعين بالمصرية الكاملة، وأن الدِّين لله والوطن للجميع، فلن تجدَ أيَّ معارض لصحيفة دينية تصدُر لطائفة قليلة العدد تريد دعمَ دينها ولغة كتابها التي يصلُّون ويتقرَّبون إلى الربِّ بها، بل إنك ستجد لها الدَّعمَ من المصريين جميعًا، وإلا فهم يخلُّون بالشُّروط التي فرضوها على أنفسهم للحصول على الاستقلال،

خصوصًا مع الحملة التي أشاعت الخلافَ بين النصارى والمسلمين، ومطالبة النصارى بحقوقهم التي حرمهم منها المسلمون... في الحقيقة أنا مُعجَب بهذه الحملة.

- ومقالات المصري التي تنشرها، صح؟

ابتسمتُ له موافقًا، وأردفت: لست وحدي.

- نرجع إلى الأهمّ، ما رأيك فيما عرضت عليك؟

- هذا يكلِّفنا كثيرًا يا قمَّاش، فمن أين ننفق عليها؟

- الإعلانات يا سيِّدي.. الإعلانات، حين نبدأ أعِدُك أن أعقدَ لك اتفاقيَّات مع الشَّركات والمعارض؛ لإمدادك بالإعلانات، لكن بشرط.

- ماذا؟

- أن أتولَّى أنا ومن أختار الإعلانات.

- ولماذا لا تكون نائبًا لرئيس التحرير؟ هل سنجد مثلك يا قمَّاش؟! بصراحة أنا فتحت معك الموضوع من البداية لأعرضَ عليك أن تكون نائبًا لرئاسة التحرير، وأصرُّ الآن بعد عرضك لهذه الأفكار.

- آسف، أعتقد أنك تعلم أن لديَّ الكثير، ووقتي صار مزدحمًا جدًّا.

- أنا أعجب لأمرك يا إيزاك، ترفض كلَّ المناصب؟!

- للمناصب من يجيدون العمل من خلالها، وعلينا أن نتركَها لهم يا سيِّدي، فكلُّ منصب يغري من يمتلكون الإمكانات والطاقة إلى الطَّمع فيه، وبهذا لا يرتاح الذي في المنصب، ولا الذي يبحث عن الطُّرق لطرده منه أو احتلاله.

- صدقت يا إيزاك، الطائفة تعاني منذ تنازع «سميخ أفيجدور» رئيس جمعيَّة النهضة اليهودية مع موسى قطاوي على رئاسة الطائفة، وكلُّ همِّه إقالته من هذا المنصب لولا ذكاء رئيس الحكومة ويوسف قطاوي باشا الذي أوحى إليه أن هذه مشكلةٌ داخليَّة خاصَّة لا ترتقي إلى أن تتدخَّلَ الحكومة لحلِّها.

- نعم، وقلَّ عدد دافعي (الأريخاه) والمعاناة قائمة، نترك هذا ونكمل كلامنا فيما عرضت عليك، ما رأيك؟

- دعني أشاور «ماتلدا» في الأمر يا إيزاك، ثم نرتِّب موعدًا نبحث فيه التفاصيل كلَّها.

شعرت أن الفكرة استقرَّت في ذهنه، فلا مانع من تلطيف الجوِّ بالمزاح الخفيف، وبعض المزاح يأتيك بما لم تكن تطمع إذا كنت خبيرًا في قراءة ما يُسطَّر على الوجوه وفي العيون.

- نعم، نعم، الحكومات لا تحكم الشُّعوب فقط، فلكلِّ رجل حكومة، ويبدو أن حكومتك مستبدَّة يا سيِّد ألبرت.

- تزوَّج لتعرف.

- الاستقلال التام، أو الموت الزؤام.

ضحكنا.. ودَّعته، وقرَّرت أن أذهبَ إلى مكتب السيِّد طنطاوي.

بعد خمسة أيام دعاني موصيري إلى اجتماع في «سميراميس» حضره موسى باشا قطاوي رئيس الطائفة في القاهرة، و«سعد يعقوب المالكي» و«ماتلدا موصيري»، وأكَّد سعد المالكي أن أفكاري طابقت أفكاره تمامًا فيما يخصُّ الجريدة، فاستبشرتُ حين نطق بكلمة «جريدة»، فهذا يعني أن ما طلبتُه من موصيري سيتحقَّق.

- أنا مُعجَب بك جدًّا يا ولد يا إيزاك، ومع أنك تدعو إلى المساواة بين اليهود إلا إنني واثقٌ أنك لو تولَّيت حكمَ إسرائيل في يوم من الأيام ستجعلني رئيسَ الحكومة.

تداخلت العبارات والضحكات، شعرت بتملُّق ماتلدا، وعباراتها التي تُرسلها إلى الباشا الذي يكاد يتفجَّر من الثراء ليُغرقَ كلَّ ما حولنا.

- يا معالي الباشا، نحن من رعاياك، ولا رئيسَ غيرك، إسرائيل هي الحلُم والهدف.

- (برافو)، (برافو) إيزاك، أحبُّك؛ لأنك تقول إسرائيل، ولا

تتشدَّق بكلمة الصِّهيَونيَّة التي تزعجنا كثيرًا، أنا لا أحبُّ مثل هذه الأفكار الهدَّامة التي تريد أن تنتزعَنا قسرًا من أطياننا وأملاكنا، نحن لا نمانع في أن تقومَ إسرائيل إرضاءً للرب، ولكنَّنا نحبُّ أن نبقى أيضًا ملوكًا على ممالكنا الخاصَّة التي أقمناها هنا، وأحذِّر الجميع من أن يؤثِّروا في علاقاتنا بالحكومة المصرية وبالسُّلطان، الأذكياء فقط - يا ولد - هم الذين يعرفون كيف يَرِثون حكَّام بلد يعيشون فيه مع ما يَرِثون من آبائهم، وطبعًا أنت تعرف...

قاطعته قائلاً:

- أكيد يا معالي الباشا، أعرف أن الباشا الأكبر ورَّثكم الأسرةَ العلوية منذ كان محطَّ ثقة «محمد علي».

- أحسنت يا ولد، أحسنت، أنت ذكيٌّ، لم أتصوَّر شابًّا في سنِّك يعرف أصولَ العائلة.

- بل أعرف يا باشا، وأعرف جهودكم من أجل الطائفة، ومن أجل اليهود جميعًا.

- اليهود لا يريدون أن يفهموا أننا في مجتمع طبقي، لا بدَّ أن يكونَ فيه الأغنياء جدًّا والفقراء جدًّا، هل من الخطأ أن نتوافقَ مع طبيعة الشَّعب الذي نعيش بينه؟

- لا طبعًا، يا باشا، والمصريون يحسدوننا على التعليم،

وعلى ترقِّينا في الوظائف، وتدرُّج اليهوديِّ النشيط من الفقر إلى الغنى.

يا لي من منافق! ركبت موجةَ التملُّق أنا أيضًا، وما المانع من هذا إذا كان سيحقِّق هدفي؟ فما دام هذا موجودًا في الاجتماع فلا بدَّ أن يكونَ له إسهام في الجريدة.

- ماتلدا، يعجبني تفكيرُ هذا الولد، يعجبني جدًّا.

- هو نابغة داهية يا باشا، كلُّنا نحبُّه ونعتمد عليه؛ لهذا هو معنا الآن.

- ممتاز، ممتاز، أكملوا ترتيباتكم للجريدة، وسأنجز لكم التراخيصَ في غضون أيام، ماذا تريدون أن يكون اسمها؟

سنحت الفرصة لي لأن أبدأَ بقوَّة كما أريد:

- إسرائيل.

ردَّ الباشا:

- ما بك يا إيزاك؟ نتحدَّث عن الجريدة.

- أعلم يا باشا، وأنا أقصد أن يكونَ اسمها: إسرائيل.

رأيت الانشراحَ في وجه المالكي، والتفكيرَ في عيني ألبرت، والتردُّدَ في ملامح ماتلدا، أما الباشا فكان يرتشف من قهوته، لم تمرَّ ثوان حتى انفرجت أساريرُهم جميعًا، وأبدَوا الموافقة على الاسم، على أن يكونَ الإصدار الأول متوافقًا مع أول

(يناير).

- ليكن في علمكم أنني سأستصدر الترخيص على أنها جريدةٌ دينيَّة لخدمة الطائفة، وسأعلِّل اسمها بأنه تيمُّن بالنبيِّ يعقوب الذي هو إسرائيل.

أبدينا الموافقة جميعًا، وطلبنا زجاجةَ نبيذ؛ لنشربَ؛ احتفالاً باتخاذ القرار.

لم أُضع وقتًا، لم أذهب إلى شقَّتي، ذهبت إلى بيت الخيَّاميَّة، النشاط يدبُّ في جسدي كلِّه، بل في حياتي، لم أنتظر طويلاً، فقد أمرتُ ليشع أن يأتيَني بفتنة بأسرع ما يمكن، لم تأتِ، لم أهتمَّ كثيرًا، المكتبة، الأوراق، والأقلام، مقالة موجَّهة إلى الطائفة اليهودية:

«إننا يهود، نحمل رسالة، وديانتنا تأمرنا أن نجتمعَ على كلمة واحدة، إننا نعيش كلَّ المعاناة التي يعيشها أهلنا في إسرائيل، ونعيش المعاناة التي يعيشها أهلنا في مصرَ التي تسعى بأبنائها المصريين إلى الاستقلال التام، نحن لا نُنكر كلَّ فضل أتانا من الربِّ الذي جعل لنا الأرضَ كلَّها، فاجتمع لنا الشُّرفاء في بلاد العالم يحقِّقون مساعيَ النبلاء؛ لنجدَ حقوقنا في كلِّ مكان، فجميع البلاد بلادنا، يا أهل إسرائيل من إخواني القرائين، هذه إسرائيل بين أيديكم تأتيكم بكلِّ جديد، وتنقلكم إلى عالم أفضل...».

دخلت فتنة، لم تمنحني فرصة، عانقتني عناقًا طويلاً.

- اجلسي.

- اشتقت إليك.

- وأنا أيضًا.

- لدينا أعمال كثيرة.

- البنات يبذُلن كلَّ ما يستطعن، أتعلم؟ انضمَّت لنا مسلمات ونصرانيات.

- أقدِّر وأعترف بمهاراتك يا أستاذة، ولكن لا أريدها هنا في مصر، فالأمور بدأت تسير أفضل.

- فأين تريد؟

- إسرائيل.

- نسافر؟

- لا، لا أريد أن نسافر، أريد مكتبًا للدِّعاية والتسويق هناك.

- يا قوَّاااااد.

قالتها، وهي لا تستطيع أن تكتمَ الضَّحك، لم أتحمَّل الكلمة، لا أعرف كيف قمت من مكاني لأصفعَها هذه الصَّفعة التي أوقعتها أرضًا؟ صرخة انطلقت، واحتبست في نفس الوقت، الذُّهول جمَّدها في مكانها.

- كيف فعلت هذا؟

بأيِّ لغة نطقت السؤال؟ لا أعرف. بأيِّ مشاعر أخرجته؟ لا أعرف. لماذا سألته؟ لا أعرف. ولكنَّ الذي أعرفه حقَّ المعرفة أنني لست قوَّادًا بل هي القوَّادة، هل أراجع نفسي؟

- لا، لا تراجعني، فهي قوَّادة.

- لكن...

- اثبت برغم كلِّ شيء، لو تراجعتَ ستجد الفرصةَ لتنتصرَ لنفسها، فلا تمنحها هذه الفرصة، واجلس وأكمل ما كنت ستُملي عليها.

- اسمعيني جيِّدًا، العدد الأول من «جريدة إسرائيل» سيصدر في الأول من (يناير)، وسيكون مجموعة من المقالات أقرب إلى الدِّين والتديُّن، والدعوة إلى الاتحاد حول اليهودية، لكن ما أردتُّك فيه، وطلبت المكتبَ في إسرائيل لأجله هو الحملة الإعلانيَّة عن الشَّركات هناك، خصوصًا التي تعمل في بيع الأراضي وشرائها.

اعتدلت، بدأت ترتِّب ملابسها، وتمسح الدُّموع التي انهمرت دون صوت على وجهها، تستمع لي مصغية، بيدَ أن الذُّهول لم يفارقها، أتمالك مشاعري نحوها؛ فأنا أشعر بالحرَج لما فعلت، لا بدَّ أن تفهمَ أن وقت العمل للعمل، ووقت غيره لغيره، ولكلٍّ كلامه.

- سأرتِّب الأمور، وأرسل إليهم في إسرائيل بما تريد، وسيُنجزونه بأسرعَ مما تتصوَّر، ولن أنسى أن أخبرَ المنظَّمة وكبراءها بجهودك، أتيت فرحةً لأبلغك أن السيِّد وايزمان في رسالته الأخيرة لي أبلغني بإعجابه بك، وأوصاني بك، مؤكِّدًا أن كثيرًا من الأحلام معلَّق بك وبجهودك.

- أشكركِ.

لم أزل في الجوِّ النفسيِّ الذي أتحاشى فيه أن أضعف، وأن أعتذرَ لها عمَّا فعلت.

- أتريد قهوة؟

- نعم، على أن نشربَها معًا.

عادت مرتديةً ملابس غير التي كانت فيها، معيدة تجميل وجهها، دخلت عليَّ أكثر فتنة، وضعت القهوة، وضمَّت رأسي إلى صدرها بحنان.

- أنت يا إيزاك ابني الذي تمنَّيته، وأخي الذي لم يولد، وحبيبي الذي رسمتُه في أحلامي، لم أكن أريد حتى أن تعرفَ حقيقة منصبي وعملي في المنظَّمة، رضيت بالنظرة العارضة منك التي قرأتُ فيها يقينك وإصرارك أنني عاهرة وقوَّادة، لكنَّك لا تعرف ما أنت بالنسبة لي، كلَّ من رأيت من الأكابر يقبِّلون يدي، ويخشَون نفوذي، أما أنت فرضيتُ منك حتى بالضَّرب؛ لأننا صرنا نحمل همًّا واحدًا، رعايتك مهمَّتي التي أحبَّتها

نفسي، وعشقها قلبي...

قرَّرت أن أعلِّمَك كلَّ شيء، حتى ما به تملك قلوبَ النساء؛ كي لا تقعَ تحت رحمتهن، فأنت لا تعرف أساليبَ النساء مع من يرتفع نجمُه، ولا تعرف أساليبَ الرِّجال في الحروب القذرة ضدَّ الناجحين والمشاهير، أنا حِصنُك يا إيزاك، وأنا التي أرضى منك بكلِّ شيء، وأهدي لك كلَّ ملكاتي لتوظِّفَني، ولتستغلَّ كلَّ ما حقَّقت لتنفِّذَ ما تريد، هيَّا يا إيزاك، هيَّا، اكتب وفكِّر، وأصدر لي كلَّ أوامرك لأنفِّذَها، بل فقط فكِّر، وأنا سأعرف ما تريد وأفعله دون تصريح منك.

لدينا الآن عشرون شخصيةً سياسية، ومئة وخمسون شخصيةً اقتصادية، وعشَرة آلاف أسرة بناتها ناقماتٌ على معيشة الكَبْت والحرمان، وشبابها تركوا الاعتقاد في أن الزَّواج هو الطريقة المُثلى لممارسة الجنس، والآن يعيشون تجارِبَ ملتهبة.

لم أزل صامتًا أتأمَّل ما تقوله، لا أريد أن أبديَ فرحي بالإحصائية، ولا بما تحقِّقه فتنة، ولا أريد أن أنظرَ إليها فأخضع، فتضيعَ الفرصة..

- نتائج جيِّدة، لكنَّني أتوقَّع أكثر.

- سيكون يا إيزاك، سيكون.

صدر العدد الأول من الجريدة بلغاته الثلاث، احتفلنا به في مقرِّ الجريدة ١٨ شارع المدابغ، الأحلام تحلِّق حولنا والتوقُّعات بالنجاح، والدعوة لأن تكونَ الجريدة موضعَ الثقة، وأن تكونَ إعلانات الشَّركات الكبرى لها، أشعر أنني الآن أخاطب كلَّ من أريد؛ لأنني أخاطبهم باللغات كلِّها، وسعيد أكثر لأن الجريدة هي الأولى الصادرة باللغة العربية بعد «وعد بلفور»؛ لنصلَ إلى من لا يعرفون اللغات الأجنبية.

- اركب.

- كنت أريد مقابلة الطنطاوي بك.

- وأنا أتيت للقائه أيضًا.

- فلماذا لا نصعد؟

- لا أعرف، لكنَّني حين رأيتكَ أحببت أن أتنزَّهَ معك.

- أين نتنزَّه يا يهوديت.

رأسي مملوء بالأفكار، صرت لا أرى ولا أسمع.

- أنا سأكون دليلك، اركب؛ كي ندركَ الغروب الذي لم ترَهُ من قبل.

رعناء في قيادتها يهوديت، لكنَّها تجيد الانطلاق، كما تجيد الكبح، الأهرام بدت شامخة، وتزداد شُموخًا كلما اقتربنا منها، حديث يهوديت يحمل في ثناياه الكثير، سألتني عمَّا كنت أريد

من الطنطاوي بك، فأخبرتها أنني أريد مناقشته في أمر يخصُّ جريدة «موصيري»، وحين سألتها عن سبب زيارتها كنَّا قد وصلنا، فتحت بابَ السيَّارة، نزلت، ونادتني:

- اقترب يا إيزاك.

اقتربت منها، الشمس مالت أكثر، وانكسرت حرارة نار (مايو)، أمسكت بيدي، وهي تملأ صدرها بالهواء الذي نفخته في شعري، لم أشعر بأيِّ شيء من هذه النفخة مما يجب أن توحيَ إليَّ به، ابتسمت في دهاء:

- كيف تكتب مقالاتك وخواطرَك يا إيزاك؟

- أكتبها بكلِّ ما أريد، وحين أكتب لا أرى ما أكتب، لكن ما أريد أن يتحقَّقَ من وراء ما أكتب.

- كما كتبتَ كلَّ مقالاتك عن ردود أفعال النصارى ورفضهم أن يتولَّى «يوسف باشا وهبة» رئاسةَ الحكومة؟ وكما كتبتَ مقالات عن ضرورة الالتزام بأن يمثِّلَ رئيس الحكومة الأغلبيَّة لا الأقليَّة؟

- ومثلما كتبت أنتِ عن روعة توقيعه على العُملة المصرية من قبل.

- واستشهدتَّ ببعض أقوالي أيها الماكر: «التوقيع البديع، للرجل الوديع، على العُملة الأنيقة؛ ليشهدَ التاريخ على أن

مفاهيم الوَحدة ناضجة لدى الشَّعب المصريِّ الذي احتفل بأن يكونَ أولَ من وقَّع على عُملته مسيحيٌّ، مع أن الدَّولة إسلاميَّة»، أنت تفوَّقت على كلِّ أعضاء الاتحاد والجمعيَّات في الدَّهاء يا «إيزاكي».

- إيزاكك؟

- نعم، وهل تعتقد أن يهوديت تفوِّت من يدها فرصة امتلاكِ أدهى الصَّهاينة؟

- وهل تقدرين على ثمني؟

- ثمنك؟ مثلك لا يُباع ولا يُشترى، وإنما يُستأثَر بك وتُكتَنز يا «إيزاكي».

- أنا لا أفكِّر إلا في إسرائيل.

- كلُّنا نفكِّر في إسرائيل، ونعمل لأجلها، ونضحِّي لتقوم.

- حتى ولو بالقتل؟!

- أبوكَ كان بطلاً صِهيَونيًّا حقيقيًّا، حتى إنني أحببته.

- أبكلِّ هذه الثقة تتكلَّمين؟

- ولمَ لا؟ كان حريصًا جدًّا، وغيورًا جدًّا.

- كان يهوديًّا يا يهوديت، ولم يكن صِهيَونيًّا.

- هذا كلام سارة وليس كلامَك، لماذا تعيد هذا الكلام،

وسارة قد اقتنعت وأخبرتك بهذا. وها هي ذي تبذل كلَّ ما تستطيع لأجل الاتحاد وجمعيَّات القرائين؟

- فيمَ كنت تريدين الطنطاوي بك؟

- فيما صرفتنا عنه.

- وما هو؟

- بلغني من القصر أن «فؤادًا» قرَّر إقالة يوسف وهبة؛ ليرتاحَ من انقلاب السِّحر عليه، مسكين من يحكم هذا البلد، مضطرٌّ أن يحتفظَ بقائمة طويلة لمن سيولِّيهم الحكومةَ الواحد تلوَ الآخر، أتعلم من سيتولَّى؟

- «محمد نسيم باشا».

- لن تستمرَّ وزارته طويلاً في ظلِّ هذه التطوُّرات الحادثة في مصر يا إيزاك، لا أقول: العيب فيه، لكنَّ العيب في السُّلطان الواقع تحت الضغوط، ولا يعرف أيَّ التيَّارات أنفع له.

- هذا فقط ما أردتِّ فيه الطنطاوي بك؟

- في الحقيقة لا، هناك أمر آخر؛ العرب في فلسطين غير مستقرِّين، وبدأت مشاغباتهم مع الإسرائيليين، وهذا لا يهزُّ الأمن كثيرًا، فالهاجاناه يسيطرون على الأمور، والإنكليز يبذلون ما في وسعهم لتهدئة الأوضاع كما تعلم، لكنَّ هناك ما بلغني ويقلقني، وكنت أريد أن نعقدَ اجتماعًا لنناقشَه:

أبناء اليهود الذين وُلدوا في إسرائيل يمثِّلون مشكلةً لم نكن نحسب حسابها؛ إنهم يرَون أنهم أحقُّ بإسرائيل من أيٍّ أحد من المهاجرين الجدُد من أوربا، يباهون بقوَّتهم وقدرتهم على التحمُّل، وأنهم عمَّال حقيقيون يتحمَّلون الصَّحراء، والفقر، والعيش في مستوطنات ومخيَّمات، أما هؤلاء الذين يفدون على إسرائيل بأموالهم، فهم ليسوا مثلَهُم؛ لأنهم منعَّمون، إنهم يا إيزاك رافضون لفكرة الشَّتات تمامًا، إذا سُئل الواحد عن اسمه لا يذكر لك غيرَ اسمه واسم أبيه، لا يعترفون بأجدادهم؛ لأنهم يذكِّرونهم بحياتهم في «الجيتو» والشَّتات، أما هم فمثل الصبَّار الذي نبت في الصَّحراء يتحدَّى الطبيعة، أتعلم؟ بلغني أنهم يعقدون مباريات بينهم وبين الوافدين في تقشير ثمار الصبَّار متحمِّلين أشواكها.

- يتحمَّلون من أجل الثمرة الحلوة، مجاهدون، أنا أيضًا نسيت نسبي وأصلي القديم، وأعيش فقط لإسرائيل.

- لكنَّك تعلم أن الشَّتات والمعاناة والاضطهاد أفكارٌ خدمتنا كثيرًا، ولم تزل يا إيزاك، ويجب ألا نتخلَّى عنها، وإلا زال عنَّا السبب الذي نتسرَّب من خلاله إلى عقول أصحاب القرار في كلِّ بلاد الأرض.

- تقصدين البلادَ العربية التي تعترف بسَماحة الأديان.

- لماذا تتكلَّم مثلهم؟

- لأستطيع أن أفهمَهُم، ولأستطيع أن أوصلَ إليهم ما أريد، ثم لماذا انزعجت هكذا؟

- لأني أشعر أنك تتكلَّم مثلَ المصريين، ومثل الغَوغاء في إسرائيل.

- غَوغاء؟! أنا من الغَوغاء يا سيِّدتي، انتشلني الطنطاوي من الحارة، أتعرفين الحارة؟ تلك التي كنتِ تجتمعين فيها مع كوهين وراؤول وسوليمون وسوسو، تلك الحارة التي لا ينظر إليها الأغنياء إلا من باب العطف والشَّفقة، وفي جُحورها تُعقَد الاجتماعات الدَّموية، واتفاقيات التهريب.

- كيف تكلِّمني هكذا؟ أنا لست عدوَّك يا إيزاك!

- كنت منذ قليل إيزاكَك يا سيِّدتي، إنكم لا تفهمون، وخططكم ناقصة مشوَّهة، الوطن لا يبنيه الأغنياء، الفقراء يبنون الأوطان، في الغَوغاء الذين تتكلَّمين عليهم عقولٌ لا بدَّ أن تُستغَل، وأفكار لا بدَّ أن يؤخَذَ بها، منزعجة من «الصباريم»؟

- صباريم؟

- نعم صباريم، أبناء اليهود ممَّن وُلد في إسرائيل.

- اسم غريب يا إيزاك.

- لأنهم كالصبَّار فعلاً بما يفعلون، كما حكيتِ عنهم.

- ويحك يا عبقري، وويحك حين تُستثار، كيف لم أصدِّق

الطنطاوي حين أخبرني أنك كالبُركان لا تعطي مكنونك إلا في الثَّورة؟!

غرَبت الشمس، ولم تغرُب الأهرام التي ترفع السَّماء على قممها، لكَم أريد أن أصعدَ قمَّة كبيرها لأمدَّ يدي عبر السَّماء التي يحملها، باحثًا عن قادمنا المجهول الذي لا يريد أن يسرعَ إلينا!

- يهوديت جميلة يا إيزاك، وتناديك «إيزاكي».

- عاهرة صاحبة نفوذ.

- عُدَّها سلَّة فضلات.

- لا أريد امرأةً مستعملة.

- فتنة مستعملة.

- أريد أن أكونَ مثل هذا الهرم.

- انقله.

- هل تهذي يا إيزاك؟

- انقله، فإن لم تستطع، فشارك فيه المصريين.

- كيف؟

- لنا حقوقٌ قديمة في مصر، ونحن أقدم فيها من المسلمين.

- ومن النصارى.

- لا عليك منهم؛ فهم يرَون أن لهم فيها حقًّا مسلوبًا ينتظرون عودته، هم يريدون مصر كلَّها، أما نحن فنريد إسرائيل، فلتكن لنا إسرائيل أرضًا ووجودًا، ولنا مصر فكرًا ونفوذًا، ألا تذكر ما روته لك فتنة؛ أن بعض المصريَّات حرَّمنَ دخول السَّمك بيوتهنَّ يوم السبت، ولا يكنسن البيوت بعد خروج أحد سيغيب مدَّة طويلة؟ أليست هذه عاداتنا يا إيزاك؟

- إيزاك، إيزاك، هل نمت؟

رأسي كان على صدر يهوديت، راكنة بظهرها إلى صخرة من صخور الهرم، غفوتُ أم كنت في حوار مع نفسي؟ لا شأن ليهوديت بما يدور بيني وبين نفسي.

- ماذا كنت أقول؟

- أنا التي كنت أعيد عليك قول الطنطاوي بأنك كالبُركان، وحين لم تردَّ اعتقدتُّ أنك نمت.

(٣٢)

حاييم ناحوم الذي قبلت دعوته سلفًا، قرَّرت أن ألبِّيَها في «السيناجوج»؛ لألتقيَ بشخصيَّة لا يمكن أن تمرَّ بذهني دون أن تتركَ فيه بذورًا تثمر سريعًا جدًّا، ذلك الإسرائيلي، ذلك الصِّهيَوني، ذلك الهادئ الطَّبع، المتودِّد إلى الجميع، لا أعتقد أنه يقبل بالقليل، وفي نفس الوقت، ليس بالرجل الذي يقبل أن يكونَ بين العوامِّ لأنه منهم، بل إنه ربما جاء إلى مصر ليكملَ رحلته في قطار التاريخ، لا ليصلَ إلى محطَّة يَنشُدها، وإنما ليُشرفَ على مسيرة القطار، يتخذ مقعده دائمًا في الموضع الذي تراه فيه العيون ولا تراه في نفس الوقت، هو غيمةٌ لا تستطيع أن تحسبَ كميَّة المطر التي تحملها، أو التي ستُسقطها، ولا تستطيع أن تتنبَّأ في أيِّ أرض ستُمطر، وأي ريح ستحملها، كان كلما التقينا يُلحُّ عليَّ أن أزورَه.

الخيوط التي ألقاها لي أشعرتني أنه يريد أن يمسكَني بها،

ويريد أن أتمكَّنَ منها، لم أرَ بأسًا في أن أتقرَّبَ إليه، أو بالأحرى أن أمنحَهُ الفرصة لأن يتقرَّبَ إليَّ، أنا متيقِّن أن طرقنا تتلاقى في مَيدان واحد، علاقته بوايزمان وطيدة، وبكاسترو أيضًا، لا تستطيع أن تبعدَ عن عقلك أنهم تجَّار ماهرون، ليسوا كسيكوريل أو موصيري أو هراري، فهؤلاء أصحابُ الشَّركات الكبرى.

استقبلني استقبالاً حافلاً جدًّا، ابتسامته المشرقة وراءها قرون تتخفَّى، رحَّب بي بأنني الابن الصالح الذي تتلبَّسه روح الأصفياء حملة الرسالات، الأضواء خافتة تبعث الرُّوحانية في المكان مع تلك العطور وروائح البَخُور، دائمًا في الغرف الخاصَّة في «السيناجوج» روحانيَّات تنبعث من اللفائف والدفاتر التي تنصهر انبعاثات ما اختُزن فيها من عقول مع ما ينبعث من لهيب الشُّموع، وعبَق البَخُور، بل إن ثياب الكهنوت تُضفي خيوطها في الأجواء هالات لا تُدركها أيُّ عين، لكنَّني أشعر أنني لست في حضرة رجل دين فقط، إنه يحدِّثني عن تاريخه في تركيا والحاخامخانة، يحدِّثني عن دوره في إلغاء جواز السفر الأحمر الذي فرضه السُّلطان «عبدالحميد» على اليهود. . .

ما هذا الرجل الذي قدَّم كلَّ هذه الخِدْمات للصَّهيَونية؟ حكاياته عن مفاوضاته، ورحلاته لا تخصُّ رجلَ دين أبدًا، إنما تخصُّ سياسيًّا مُحنَّكًا، كيف لم أفتِّش في تاريخه قبل أن آتيَ إليه

وأنا الذي لا تفارقني الكتب والمعارف؟ ربما هذا أفضل؛ لآخذَ منه الحكاية مشافهة، إنه يحكي كأنه يُزيح عن عينيه مرحلةً ليتأمَّلَ في قادم أيامه؛ يصف السُّلطان فؤادًا بأنه رجلٌ مسكين، اتفق معي في رأيي بأنه مسكين؛ بما تمرُّ به مصر، وبما يعانيه من انفلات الأوتار من ريشته، فصار المصريون هم العازفين على الأوتار أنغامَ الحرِّية والاستقلال.

حاييم يرى أن الانقسامات في الوفد، والخلافات بين سعد زغلول ورفاقه أمرٌ منطقي؛ لأنهم لم يحدِّدوا الأدوار كما يجب، لقد تركوا الأمور مَشاعًا، كلٌّ يبذل ما يستطيع، زعامة سعد ناتجةٌ عن براعته في الخطابة، لكنَّه حين يتشدَّد لا يتراجع، وهذا الصِّنف يضرُّ كما ينفع، لكنَّه يضيع ما نفع به بما يضرُّ به، أما «عدلي يكن» فسياسيٌّ عركته السِّياسة والترقِّي الوزاري، ويعرف كيف ومتى يمسك بعصاه من الوسط، يميلها في الوقت المناسب.

إن حاييم لا يريد أن أتكلَّم، هو مستمتعٌ بأنه يتكلَّم، أعرف أنه يعظني، لكنَّه أسلوب خاصٌّ جدًّا في الوعظ، أسلوب مبتكَر، لا يدعك تفكِّر في العِظَة التي يُزْجيها إليك، وإنما يُلقي إليك بالتجرِبة ونتيجتها، ومن بعدها تأتي العِظَة فيما يتوقَّع من أحداث تتبع النتائج؛ لتدخلَ في تجرِبة أخرى. أعيش مع ناحوم تجرِبةً ممتازة لدرجة الفرادة؛ إنه الحاخامُ السِّياسي، والسِّياسيُّ

الحاخام، بل هو حاخام السِّياسيين، هل سيكون له مكانٌ في حكومة قادمة؟ إنه سيحكم العالم، فهل يرضى أن يكونَ وزيرًا في حكومة لمصر؟ أنا لا أعتقد هذا أبدًا، الذي يفكِّر بمنطقه لا يرضى أن يعيَّنَ اليوم ويُعزَل غدًا، هذا الرجل فقط يكون في منابع النهر ينفُث فيه ما يريد أن يسقيَه للناس جميعًا.

- ولماذا لا؟ هو الأوجب، ونحتاج إليه أكثر.

- كنت أعرف أنك تريد هذا يا إيزاك؛ فجريدة واحدة، أو حتى عشر جرائد لا تحقِّق ما تريد.

- ولماذا طائفة القرائين؟

- لنبثَّ فيهم الرُّوح، ألا تتفق معي في أن نُصحَ أو حثَّ من عاش زمنًا تحت شعور قاهر بأنه منبوذ، وأنه مسلوب الدَّور والإرادة لا يُفيدان في أيِّ شيء، وربما النتيجة تكون عكسيَّة، فتزداد عُزلته؟

- أتفق معك؛ أي: إنك تقصد أن يُدفعوا دفعًا إلى المشاركة الحقيقيَّة؛ ليعوِّضوا ما أضاعوا بعُزلتهم؟

- بل أكثر؛ ليكونوا هم إسرائيل، روحَ التحدِّي يا إيزاك، وإسرائيل لا تقوم على أشكينازيم فقط، ولا سفارديم فقط، إنما تقوم بالتعصُّب الذي لا يفلُّه الحديد.

كأن ناحوم يعيد عليَّ نفسي، وفكرته دالَّة على أنه رجل دين

في مظهره وأقواله، سياسيٌّ بقوانينه وأفعاله، «مجلَّة الاتحاد الإسرائيلي» خطوة ممتازة، ونافذة جديدة على مصرَ بأكملها، لا أحتاج أن أحجزَ لي فيها دورًا؛ لأنَّه من الآن موجود، فنحن الذين نجيد العربية من الإسرائيليين قلَّة، وهذه المجلَّة ستصدر بالعربية.

لم يطُل الوقت الذي قضيته مع حاييم، وبرغم هذا أدركت بيقين أنه أراد أن يسمعَ منِّي؛ ليعرفَني أكثر؛ لذلك كان يُلقي لي رؤوسَ الموضوعات لأسأل، لكنَّني لم أسأل؛ كي لا أجيب، هو الذي سعى في طلبي فعليه أن يُلقي، وعليَّ أن أستقبل، هو محتاج للشابِّ المنطلق، وأنا لم أكن محتاجًا إلى أكثرَ مما عرفت؛ لأضمَّه إلى عقد الإسرائيليين البُناة بالفكر، أما الذين هناك في إسرائيل، فهم البُناة بالفعل، بالقوَّة، بالفأس والبندقيَّة.

مشهد السَّاقية والحقول يُخرجني من عالم الضُّغوط التي صارت تتسارع فوق ما كنت أعتقد مما لا يتحمَّله فرد واحد، وكيف يتحمَّله فرد، وأمَّة بأكملها لا تتحمَّله؟! العالم كلُّه خرج من حرب السِّلاح العُظمى منذ سنوات، والحروب الكلاميَّة والإجراءات لا نهاية لها، حتى إنني لم أعُد أستطيع أن أسترجعَ كلَّ أحداث حياتي التي هي حياةُ مصر وإسرائيل.

أجلس في شُرفة شقَّتي في عمارة الجمال؛ لأرى الدُّنيا من

فوق، المشهد يوحي لي بعالم جديد، يستقطب الناس رويدًا رويدًا، لكنَّه عالم ما إن تفارقه الخُضرَة حتى تأتيه خُضرَة، وحتى هذه الخضرة آخذةٌ في الأفول مقابلَ زحف الطُّوب والأسمنت، تذكَّرت «رحيل»، وما كان يربطني بها دون أن ننطِقَ بكلمة واحدة، الآن أكاد أراها هناك في «الخليل» مع زوجها وابنيها، آه يا «رحيل»! كيف لم أعُد أتحدَّث عنك، ولم أعُد أحلم بك؟ هل أنا ما عدتُّ أحلم، أم أنك أنت ما عدتِّ تأتينني في الأحلام؟ أنت كنت على علم بأنك سترحلين ذاتَ يوم، سارة أخبرتني أن زوجك يمتلك أرضًا، ويؤسِّس شركة هناك، ووافق هواه هوى أبيك، أنت يا «رحيل» الرحيل الذي لا يترك الزمنَ على حاله، أذكرك وأنوي أن أكتبَك حكايةً خاصَّة، فما أعيشه الآن لا يستوعب أيَّ شيء، غير أن أحقِّقَ ما أراه عبر الحجُب لأجلك.

أنتِ الآن في إسرائيل، وأنا مشغولٌ بإسرائيل.

حتى طيبة تقلَّصت أحاديثي معها في المرَّات التي تأتيني فيها إلى بيت الجمَّاليَّة، ومنذ كانت هنا آخر مرَّة لم أرها، أخبرني أبوها أنها تمرُّ بحالة نفسيَّة جعلتها منعزلةً في البيت، لا تكاد تفارق غرفتها إلا قليلاً، فرأى أنه من الأفضل أن يُرسلَها إلى (عزبته) في أجواء طنطا؛ لتغيُّرَ المناظر، ففضَّلت الإقامة هناك بين الفلاحين، حتى إنها تريد الاختلاطَ بهم أكثر، بعيدًا عن

المدنيَّة المؤذية، عجيبٌ أمر هذه الفتاة التي لا ينقصها شيء لتكونَ مليكةَ السَّعادة! ما الذي يجعلها تفعل هذا، وكلُّ شيء ميسَّر لها؟ أعجب أكثر لأنها ابنة الطنطاوي، وما يُضحك أنني أشعر أنها مجنونة، نعم، هي فنَّانة تملك أدوات الإبداع، ولو أنها عاقلة لوظَّفت هذا الجنون.

العصافير تأوي إلى الأعشاش، مشهدها آتيةً في جماعات مع أصواتها المتداخلة يحملني إلى الهيكل، وأفواجُ الإسرائيليِّين تدخل من أبواب أورشليم، متى يكون لأورشليم أبوابٌ تُغلَق عليها وعلى من فيها من الإسرائيليِّين الذين يحيون طقوسَ اليهودية؟ أراها بلا عربيٍّ واحد، أرى أدخنةَ البَخُور تتصاعد من الهيكل، راسمةً في الهواء نداءات تجدِّد العهد مع الربِّ الذي ينزل إلى هيكله الحجري، باسطًا يده لأحبَّائه بالخيرات، لكنَّه لا بدَّ أن يعرفَ أنهم لن يُفرِّطوا في إسرائيل الكبرى.

قرأت أن اليمَّ فرعٌ من النيل كان يصبُّ في خليج السُّوَيس، هذا لا يعنيني، إسرائيل حدودها غرب النيل، ونحن من نحدِّد، ألسنا نحن من ورث؟ فنحن الأعلم بما ورثنا، ألا يكفي أننا سمحنا لكلِّ هؤلاء أن يعيشوا في الأرض كلَّ هذا الزَّمن؟

مصر تمرُّ بأحلك الحِقَب التي مرَّت بها في كتب التاريخ، لا أشفق عليهم، كما يشفق من يدَّعون الموضوعية، نعم، لم

يؤذوني، لكنَّ قدَرَهم أنهم حدود إسرائيل، وأنهم حين يجتمعون يشمَخُون، ويفتحون دفاترهم القديمة، فليبقَوا على ما هم فيه، أين يهوديت الجارية لأقضيَ معها هذا الغروب، مذكِّرًا أنني تنبَّأت بأن حكومة «نسيم باشا» لن تستمرَّ طويلاً، السُّلطان يبدِّل الحكومات كما يبدِّل حُلَلَه الأنيقة.

خلافات عدلي يكن مع سعد زغلول انتقلت إلى صفَحات الجرائد، سعد لم يعُد يرى إلا الوفد، ولم يعُد يسمع إلا هُتافات الأمَّة بحياته، تولِّي يكن الوزارة غيَّر الكثيرَ من الثوابت التي وضعها سعد، لكنَّ الكثير من المثقَّفين ودعاة العلمانية القومية لم يعُد يعجبهم أسلوب سعد في التعامل، قدَرُه وقدَرُهم أنهم يستوردون فكرَ غيرهم ليعيشوا به، معذورون، فلم يترُك لهم أحدٌ فرصة لتستمرَّ سيادة الدِّين، صحيح أن الدِّين في الأقاليم وعند العامَّة هو الأساس، لكنَّ الذي يُدير السِّياسة الآن هو الفكر العلمانيُّ القومي.

مقالتي في العدد الأول من مجلَّة «الاتحاد الإسرائيلي» لفتت انتباه السُّلطان، لا أعتقد أنه قرأ غيرها؛ فلم يُرسَل إليه العدد الأول إلا لأن صورته كانت تتصدَّر الصفحة الأولى!

في اجتماع الليلة لا بدَّ أن نتفقَ على برنامج منظَّم للصُّحف

الإسرائيلية... الخادمة التي أرسلتها فتنة ترتِّب المكان لعقد الاجتماع هنا، شقَّتي ما عادت تفرُغ من المشاهير وغير المشاهير، صرت إيزاك الذي له حَضانة الوزراء، ومحبَّة الفقراء... بقيت في الشُّرفة وقتًا طويلاً، وكلَّما وصل واحد سلَّم وعاد إلى الثَّرثرات، الآن وصل ألبرت موصيري، وسعد المالكي، و«وجيه إسحاق» من مجلَّة «الاتحاد»، أشار موصيري أن نبدأ الاجتماع؛ كي لا يتأخرَ بنا الوقت، كنت أريد أن أسمعَ أكثر مما أتكلَّم.

ولمَّا كانت «الاتحاد» تُحقِّق المرجوَّ منها أحببنا أن نسمعَ من وجيه الذي ذكَّرنا بالأعداد الأولى وما نشرته من صور لسعد زغلول، وللورد «بالفور»، نعم إنه صاحبُ الوعد، كان ذلك العدد في ذكرى صدور الوعد، أنا شخصيًّا كتبت صفحةً كاملةً في هذا العدد، وكانت المرَّة الأولى التي أوقِّع باسمي الصَّريح، لا مانع من بعض الشُّهرة؛ لإنجاز الكثير من المصالح. بعد وجيه تكلَّم سعد المالكي الذي أشاد وأثنى على خطَّة الدِّعاية التي تخدُم الصُّحف الإسرائيلية جميعًا، والتي توفِّر لها دعمًا ماليًّا يسهم في تكاليف النشر.

ليت فتنة معنا لتسمعَ وتسعدَ بهذا! إننا لم نقصد من الإعلانات جلبَ المال فقط، وإنما الصُّورة، والعبارة القصيرة، والرَّبط بين مصرَ وإسرائيل، وحقًّا كلُّ شيء يبدو طبيعيًّا، فما

هي إلا إعلاناتٌ تدعم العلاقات بين فلسطين ومصر، وتقوِّي الرابطة التاريخية بينهما، موصيري كالعادة صمتُه أكثر من كلامه، وماتلدا ليست معنا، أشار سريعًا إلى الجهود التي يبذلها «موسى جرونشتين» من خلال جريدته «الأخبار الماسونيَّة»، جرونشتين لا يتَّبع منهجًا، وسيتعرَّض لمواقفَ محرجة، إنها ليست ناجحة.

شعر سعد المالكي أنني لست سعيدًا، فانتظر إلى أن انتهى الاجتماع الذي لم يجْرِ على ما توقَّعت، وبقي معي يسألني عن صحَّتي وأحوالي، فلم يعرف منِّي أيَّ جديد، تناقشنا في وضع القرائين، والتقدُّم الذي تحقِّقه جريدة «إسرائيل» فيهم، واتفاقنا على أن مصر هي الوطنُ الذي نعيش فيه، لكنَّنا لا ننصهر. سعد المالكي طموحه يسبقه، إنه ممثِّل حقيقيٌّ للصِّهيَونية، وكاتب وصحفيٌّ متمرِّس يجيد نسجَ العبارات في مقال آسرٍ سهل، يصل إلى كلِّ من يقرأ ظاهره، ويستوطن كلَّ من يقرأ أعماقه.. إنه يعيش بالطَّاقة التي تبثُّها فيه إسرائيل، وعقدة تدنِّي أعداد القرائين ومستوياتهم التعليمية قياسًا بالربانيين تُزعجه جدًّا، ومؤمن بأن الاعتقاد في الصِّهيَونيَّة أقوى من الاعتقاد الدِّيني. منذ أكثر من عام ونحن نتبادل الكتابةَ الموجَّهة للقرائين لتعديل أوضاعهم، ومسايرة الحياة؛ لأنهم ليسوا أقلَّ من الربانيين، ونتبادل أيضًا الكتابةَ للسفارديم بأن يحذوا حذوَ الأشكنازيم في التعلُّم

والخروج إلى ميادين الحياة كلِّها، وأن يعتزُّوا بأنفسهم، وبأنهم يؤمنون بأن الهيكل سوف يرجع بأيِّ ثمن، ولن نبقى في هذا الشَّتات.

المالكي رجل فاهم ونابه؛ فممَّا علَّق عليه صورُ الإعلانات، والعبارات التي تُكتَب بالمصرية موجَّهةً إلى المصريين، وأفادني بأن مُستطلعي الرأي من أتباعه أعلموه أن هذه الإعلانات ذاتُ أثر قويٍّ في توزيع الجريدة.

- لماذا لا نشكِّل لجنةً للقُصاصات؟

- ماذا تقصد يا إيزاك؟

- أقصد لجنةً مهمَّتها جمع القُصاصات من الجرائد المصرية، لجنةً لها تخصُّصات موزَّعة على موظَّفيها، بعضهم يجمع لنا صورَ الإعلانات، والبعض يجمع المقالات السِّياسية، والبعض يجمع العناوينَ ذاتَ الدَّلالة، نعدُّ هذه اللجنة نَواةً لمركز يقرأ ويحلِّل، ويستنبط النتائج، وعليها نضعُ برامجنا المستقبليَّة.

- فكرة لا يأتي بها إلا إيزاك القمَّاش، يا لك من داهية! كيف تفكِّر يا رجل؟ وأين تجد هذه الأفكار؟!

- لا تُكثر في المديح؛ فربما تجد غيري فكَّر فيها، فكلُّنا يكمِّل بعض بعضًا، وكلُّنا من إسرائيل، الجوُّ العامُّ مشجِّع، فابدأ، وستجد الكثير والكثير في القُصاصات مما نركن إليه، واهتمَّ بما يخصُّ الطائفة في الصُّحف المصرية.

- عدلي باشا بما فعل لإلغاء الرَّقابة أعاد بعض الصُّحف التي كانت أُغلقت.

لديَّ معلومات أن يوسف باشا قطاوي ضمن الهيئة الاستشارية للوفد الرسميّ الذي يتفاوض مع «كيرزون».

- أغلب أعضاء حزب الوفد مع عدلي، وأكثر حزب الأمَّة مع سعد، والخلاف مُحتدِم، سعد يزداد تشدُّدًا، ويكن يزداد حرفيَّةً في العمل السِّياسي.

- أما أنا فأعتقد أننا أبرعُ منهما في كلِّ أعمالنا.

(٢٣)

ابتعدتُ جدًّا عن أمي وعزرا، وكذلك عن سارة، بل حتى ديفيد الذي معي في نفس المكتب لم أعُد أراه كثيرًا! لا أعدُّ هذا عيبًا فيَّ؛ فإن فيَّ سمات من سمات الصباريم، لكنَّني حقيقةً كنت قد اشتقت أن أقضيَ معهم بعض الوقت، أرسلت إلى عزرا أخبره أنني أريد لقاءهم مساءً عند سارة. أتيا ومعهما مدام ماكلين، أمي كانت غاضبةً جدًّا، فمنذ شهور لم ترَني غير مرَّات لا تتجاوز التحيَّة، أما عزرا فلم أرَهُ منذ عام، كَبِرَ عزرا، أراه هادئَ الطَّبع عن ذي قبل، ضحكت في نفسي لأني رأيت عزرا يصمت مبتعدًا في أفكاره، سارة ازدادت جمالاً، بعد الثلاثين النساء يزدَدنَ جمالاً، وتتفجَّر أنوثةً من نوع مختلف عن ذي قبل!

بنيامين كَبِر، وصار يتكلَّم العبرية والفرنسية، وما أجملَه وهو يخلط اللغات أحيانًا، كأنه يمثِّل أصلَ الإنسان الأول، يقول كلَّ ما يريد أن يقولَ دون تحديد الطَّريقة التي بها يقول، قسَمات

الصِّبا تُنحت، عيناه فيهما ذكاء، أو ربما هذا ما أرجوه فيه، يبدو أنني أحبُّه جدًّا؛ لحبِّي سارة، ولكنِّي مشفقٌ عليه من ضغوط أمِّه؛ ليتعلَّم كلَّ شيء في وقت واحد! يسألني:

- متى أصبح مثلك يا خالي؟

نظر ديفيد إليَّ قائلاً:

- لا أحدَ مثل خالك يا بنيامين، النظرة التي في عين ديفيد غريبة، هل هي نظرة الحسد؟ لا أعتقد أن الحسد يأتيني من ديفيد أبدًا، ربما هو غاضبٌ لأنني لم أعُد أقضي معه وقتًا أو نقاشات مطوَّلة، اقتربت منه هامسًا:

- كيف تسير الأمور دوني؟

- أفكِّر في افتتاح مكتب خاصٍّ.

- يدي بيدك.

- والطنطاوي؟

- هل أنت مستعدٌّ أن تعتمدَ على نفسك؟

- منذ زمنٍ يا إيزاك، ثم إلى متى أعمل في مكتب ولديَّ زُبُني؟

- رتِّب أمورك، ودَع الطنطاوي لي.

- بلغني أنك تضغط على نفسك وتهمل طعامك، وتُفني صحَّتك.

- وماذا أفعل؟ ألا ترى الكلَّ يعمل كالنَّحل يا ديفيد؟! الوحيد الذي لم أتوقَّع أن يصيبَهُ الفتور هو أنت.

- لم أفتُر يا إيزاك، كلُّنا نعمل، لكنَّك ابتعدتَّ، أقصد انشغلت ببرنامجك، وأنا من المعجبين بما تفعل، حملة التشويهات المقنعة التي تقوم بها في مقالاتك بدأت تأخذ طريقها لتشكِّلَ مدرسةً في الكتابة والدِّعاية الإعلامية، كثيرٌ من المقالات صارت تُكتَب وتحتها توقيعات نكرة، أنت علَّمت الكثيرين النخرَ في العظام.

- هذا ما تُقام به إسرائيل يا صديقي، أن نعلِّمَ هذه الشُّعوبَ كيف تنخر عظامها بأظافرها؟ إنني لا آتي بشيء من عند نفسي، كلُّ ما في الأمر أن تجيدَ توظيفَ الموقف من مواقفهم، وتجيدَ صياغةَ ما قالته كتبُهم، وما قاله زعماؤهم، وتعرضه عليهم؛ طالبًا رأيهم. وأكثر من هذا يا ديفيد أن تقنعَهُم أن ما كانوا يعتقدونه من الثوابت الرَّاسخة هو في الأصل قابلٌ أن يخضعَ للعقل والنقاش، إذا أقنعناهم بهذا فاعلم أن من المتعلِّمين في مصر أو في خارج مصر مُتَفَيهقين، وهؤلاء آفةُ الأمم وهُدَّام الأديان، وأنا لا أريد أنْ أهدمَ دينهم أبدًا، بل أريده قابلاً للنقد والتشريح، ألا تلاحظ ظهورَ الباحثين عن حقيقة أقوال الأفغاني وعبده والكواكبي؟ يريدون إعادتها إلى حظيرة الدِّين بعد أن انتشرت الأخبار والمقالات عن أنها أخبارٌ مستورَدَة كافرة

استُعمِلَت لهدم البلاد والعباد.

- وعلمتُ أن هناك من يهاجمون الأزهر، ويتَّهمونه بدعم العلمانية، والقومية المصرية المشوَّهة؛ ليفصلَها عن الإسلام، وعن العروبة.

- ألم نناقش هذا من قبل؟ وقلنا: إن أقوى خطر على إنشاء إسرائيل هو عودةُ الأزهر إلى المناداة بعالميَّة الرابطة الإسلامية، ثم وَحدة اللغة، وإيجاد أُطُر تجمع الوطن العربيَّ على أساسه اللغويِّ؛ فهم جميعًا يتكلَّمون لغةً واحدة، وهي لغة الإسلام؟!

- بلى.

- فما رأيك لو دَعَونا أن تكونَ مصر إسلامية؟

- سيثور النصارى.

- أمَّا نحن فلن نحرِّكَ ساكنًا، وما رأيك لو دَعَونا أن تكونَ مصر مسيحية؟

- ستُهدَم السَّماء والأرض على رؤوسنا.

- وطبعًا القومية العربية خَبَت الآن، إلا ممَّن يرفعون أصواتهم ما بين الحين والحين، فماذا بقيَ لمصرَ يا إيزاك؟

- الهرم وأبو الهول والمعابد وآلاف السِّنين، وأنهم سيطروا على فلسطينَ وقهروا شعوبها، وقتل فيها «رمسيس الثالث» الآلافَ في حروبه التي لم تُجْدِ شيئًا.

- أنت تريد عجنَ كلِّ شيء!

- أحسنت، أعجنُه وأخلقُ منه مخلوقًا لا تستطيع فصل جزء منه عن الآخر، مخلوقًا من صُلب كلِّ مصري لا يستطيع قتله، هل تشكُّ في وطنيَّة سعد زغلول؟

- تريد الحقيقة؟ لا.

- وهل تثق أن لكلِّ الأنبياء خطايا ارتكبوها؛ لأنهم بشرٌ لا فرقَ بينهم وبين العوامِّ، وأن الربَّ أعطى موسى المقراة والمشناة؟

- أما الخطايا فهذه التَّوراة، وأما المشناة فأنا لا أومن بما يؤمن به الربانيون.

- وهل آمنت بأن الربَّ يجعل من يزني بامرأة ابنه نبيًّا؟ وأن يعقوب غافل أباه ليأخذَ البرَكَة ويحرمَ منها عيسوي؟

- إيزاك؛ أنت تخوض في التَّوراة، ألا يكفي أنك لا تصلِّي، ولا تحترم السبت؟

- ألم يُسقطه «بولس»؟

- لا، لا، لا، أنت تكفُر يا إيزاك، تريد أن تحتكمَ إلى شاؤول؟

- ألم يكن من أشدِّ أعداء عيسى؟

- ووقف موقفًا محيِّرًا، وها هم أولاء النصارى... إيزاك،

لن أكمل.

- بل أكمل.

انتبه الحاضرون لنا، لكنَّهم لم يقاطعونا بأيِّ كلمة، والعجب بادٍ على الوجوه.

- كنَّا ننتظر المسيح المخلِّص يا إيزاك.

- هل كنت هناك؟

- ما بك يا رجل؟

- وهل يأتي المسيح المخلِّص؟

- لا بدَّ أن يأتي.

- النصارى يقولون: إنه صُلِبَ ودُفِنَ وقام، ثم صَعِدَ إلى الربِّ، ألا تعرفُ من الذي قتله؟

- المخلِّص قادم ليُنجيَنا يا إيزاك، ولو أردتَّ لأتيتُك بالكتب، ولو شئتَ لأتيت بالتلمود، نعم أنا متحرِّر، لكن إيَّاكَ والمساسَ بالثوابت.

- أتعتقد أن نشيد الأنشاد صحيح وثابت؟

- هذا جنووون.

- التَّوراة من عند الرب، فلماذا مثلاً سِفْر القضاة؟ ناقشني.

سارة ومدام ماكلين تتبادلان النظر دون أن تتكلَّما، عيونهما تتكلَّم.

- اهدأ يا ديفيد.

- كيف أهدأ يا رجل، وأنت تبثُّ في عقلي رغبةً لأن أفنِّدَ التَّوراة، وأبحثَ فيما جاء فيها ممَّا نتعبَّد به.

- فما رأيك إن كان هذا حالُ المسلمين؟

هبَّ ديفيد واقفًا، رفع يديه، أراه يريد أن ينقضَّ على عنقي.

- يا لك من مجرم جاوزتَ كلَّ معاني الشَّيطانية! ويلٌ لهذه البلاد منك وممَّن يعملون معك!

- على الرغم من أنك تعمل معي، إن ما وضعتُك فيه تجرِبةٌ يسيرة، أما ما يصلني من نتائجَ فمشرِّفٌ لنا جميعًا، يكفي أن المسلمين يبذلون جهدَهُم في البحث عن صفات الدجَّال وخصائصه، وصفات المهديِّ المنتظَر الذي سيخرج ليخلِّصَهم.

- وعظمة الرب، أخشى الآن من علاقتي بك؛ فتفتنَني فيما تبقَّى من ديني.

- يا عزيزي أنا لا أتعرَّض للأديان، أنا أعمل لأجل إسرائيلَ فقط، أمر الأديان سهل، فلكلِّ دين من يقومون به وله، والأيام ستُريك ما لا تتوقَّع يا ديفيد.

لقائي بديفيد حرَّك فيَّ الكوامن، بتشوتو مع سعد زغلول، ويوسف قطاوي مع يكن، وبين يوسف وسعد صداقة متينة، لعبة السِّياسة تحمل في جوفها أطنانًا مما يجب ألا تتلفَّظ به، أين طيبة الآن لتتكلَّم على حكَّام المسلمين الأوائل؟ وأين هي لترى؟

كنَّا نسعى لتعليم اليهود، وهذه ليست مهمَّتي وإن كنت أنادي بها، فهناك مهمَّة أخرى أجلُّ من هذه: أن أعلِّمَ المصريين... الجوُّ حارٌّ اليوم، لا طاقةَ بي أن أقرأ الصُّحف، سأذهب إلى بيت الخيَّاميَّة، تُلحُّ عليَّ أفكار لن تُرتَّبَ إلا هناك، أحتاج أن أستمعَ إلى أخبار مبهجة، وأن أناقشَ فتنة في أمور عدَّة.

دخلت غرفتي لأبدِّلَ ملابسي فإذا بفتنة نائمةٌ في فراشي، بهدوء أيقظتها، فاستقبلتني بابتسامة حين فتحت عينيها، خرجتُ إلى الشُّرفة، حرُّ (أغسطس) ردَّني، صَعِدتُّ إلى المكتبة، بدأت (أشخبط) في ورقة، وقعت عيني على صحيفة، إنها «أهرام» الأمس، فيها مقالة للدكتور «هيكل» عن تأسيس الحزب الاشتراكيِّ لعدد من المصريين مع السيِّد «روزنتال»، دخلت فتنة تحمل فِنجانين من القهوة، ودون مقدِّمات أخبرتني أن الطنطاوي بك كان هنا ليلةَ البارحة مع حاييم أفندي وصاموئيل إسرائيل و«عزيز ميرهم».

- عضو الحزب الديموقراطي؟ إنه اشتراكيٌّ متطرِّف.

- نعم، وهذا ما جعل الطنطاوي وناحوم يستدعيانه عن طريق

صاموئيل.

- ولِمَ هذا الاهتمام؟

- المصالح يا حبيبي، الدَّعوة للاشتراكية تأتي في وقت غير مناسب، والاضطرابات تملأ البلاد، والدَّعوة إلى توزيع الثروة تضرُّ بمراكز أثرياء اليهود في مصر، وأنت تعرف حجمَ تعاملاتهم وأملاكهم هنا، فكيف يُسمَح بفكر اشتراكيٍّ يريد أن تُسلبَ الثروة من الأغنياء لتوزَّعَ على الفقراء؟ وميرهم متشدِّد أو متطرِّف كما تقول.

- أعطيني باقي الجرائد.

طالعت أعدادَ الأمس وقبله واليوم، مقالات لهيكل، و«أباظة»، وتصريحات لـ«موسى صبري»، بالفعل أخبار مبهجة، وتيَّار جديد يتفجَّر، اقتربت من فتنة أستنشق أرَجَ عطرها، همست في أذنها: هل سمعت بقول محمد: «تُوشكُ أن تتداعى عليكمُ الأمَمُ كما تتداعى الأكَلَةُ على قصعَتِها»، قالوا: وهل نحن قلَّة يومئذٍ؟ قال: «بل أنتم يومئذٍ كثير، ولكنَّكُم كغُثاء السَّيل»؟ سمعتِ بهذا يا فتنة؟

- وأين أكون قد سمعتُه؟!

- هم الآن وصلوا إلى هذه المرحلة، وعلينا أن نحرِّضَ الأكَلَة، ندعوهم إلى الوليمة الكُبرى، فأهلاً بالاشتراكيَّة وغير الاشتراكيَّة وكلِّ التيَّارات، لكن على أيِّ حال، ليس هذا ما

أردتُّك لأجله وإن كان متصلاً به... انتبهي لي يا فتنة؛ الذي يحدث بين عدلي وكيرزون لا بدَّ أنه سيصلُ إلى أحد طريقين: إما استقلالُ مصر، وإما بسطُ بريطانيا نفوذَها أكثر، وفي الحالين، لا بدَّ من تحقيق أكبر قدر من المكاسب، أما المكاسب كما أرى فهي في تعليم المصريين.

حملقت فتنة في وجهي حين قلت: «تعليم المصريين»؛ فإنها لم تتوقَّع هذا منِّي، ربما تشعر بالتناقض فيما أقول، لكنَّني بالفعل أريد تعليمَ المصريين، أريد أن يكونَ التعليم في كلِّ حياتهم، أريد أن يتعلَّمَ هذا الشَّعب كلُّه القراءة، حين يتعلَّم القراءة تحت نظام مرسوم، فهذا يعني أنه سيقرأ ما يُقدَّم له وَفق ذلك النظام، ويشاهد السِّنما التي تُعرَض له وَفق نفس النظام، فإذا أراد القائمون على التعليم البعثَ الحقيقيَّ للشَّعب قدَّموا للمتعلِّمين نظامًا تعليميًّا يحقِّق نتائج ملموسة، أو حتى غير ملموسة في وقتها، لكن أن يقومَ برنامج تعليميٌّ لا يمكن تحديد الهدف منه، مع إشاعة أن هذا البرنامج يحقِّق مطامعَ بريطانيا في مصر، فهذا يعني أن الطَّرفَين لن يتحقَّقا، فلن يتعلَّمَ المتعلِّمون، ولن يبقَوا على جهلهم، بهذا نكون قد أخرجناهم من بُوتَقَة الجهل الذكيِّ الذي يُغذِّيه الدِّين إلى التعلُّم القاتل؛ بأن نفتحَ لهم مساربَ الجدَل والنقاش في كلِّ شيء وأيِّ شيء، لا لشيء إلا لكي يجادلَ ويناقش.

أريد أن أكتبَ برنامجًا قابلاً للتنفيذ يا فتنة، برنامجًا لا يحتاج أن ننفِّذَه وإنما ينفِّذُ نفسه ذاتيًا، برنامج مثل الحشيش، يجري في الدَّم مشعرًا بالنشوة إلى حين، النشوة التي بانتهائها يبدأ النَّدَم الذي لا يمنع من العودة لتعاطيه، بهذا يقضي مُدخِّنه زمنًا طويلاً؛ إما في الصِّراع مع نفسه لتركه ولا يستطيع، وإما في الاستمرار معه لتكونَ هذه حياته، من نفس المنطلق ننظر إلى تعليم هذه الأمَّة، أرأيتِ كيف أريد تعليمَهُم، ولماذا؟

هزَّت المسكينة رأسها موافقةً دون أن تنطِق، فمها مفتوح، ولا تتكلَّم، الهواء يمرُّ منه ولا تتنفَّس، هل معجبة بما أقول؟ أم مذهولة ممَّا أريد تحقيقه؟

- أعجَبُ لك يا إيزاك، لا تتكلَّم كثيرًا عن إسرائيل، ولا تسأل عن أحوالها تقريبًا، ومُصرٌّ على أن ما تخطِّط لعمله في مصرَ هو الذي سيبني إسرائيل، أنا متَّفقةٌ معك في كثير ممَّا تقول، وأنفِّذ ما تريد ويحقِّق نتائجَ باتت تذهلني، بل لم أتوقَّع أن نصلَ إلى هذه الاستجابات، لكنَّ إسرائيل هناك...

- ألم تفهميني إلى الآن يا فتنة؟ ما نطمع أن يحدثَ في إسرائيل حادثٌ دون ريب في هذا، فالمهاجرون يعملون، وأصحابُ رؤوس الأموال يضخُّون ليتاجروا، والسِّياسيون يناورون لتحقيق إقامة الوطن؛ أي: إنه سيقوم، لكنَّ ما يعنيني هو مصر، ولا أخفي أن بقيَّة البلدان العربية تعنيني، لكن بيت

الدَّاء هنا في مصر يا فتنة، إذا قويَ هذا البلد وقامت إسرائيل فهذا معناه أن إسرائيل ستقفُ في وجه مَن فيها من عرب، وفي الوجه الآخر أمام مصرَ الدَّولة القوية، وهذا مستحيل.

- يا حبيبي، الحكومات المصرية المتتالية لا تُعير ما يحدث في فلسطين أيَّ اهتمام، بل كما ترى ينظرون إلى اليهود بعين الشَّفقة والعطف، هل سمعت بأيٍّ ردود أفعال نتيجةَ ما تفعله «الهجاناه» في أورشليم؟ وقتل العرب وإشاعة القلق فيهم؟ هل سمعت بأيٍّ ردود أفعال حكوميَّة هنا في مصر؟ مَن مِنَ المصريين ناقشَ اتفاقية «سان ريمو»؟ أو ناقش الأحداثَ قبلها؟ هل سمع أحدٌ في مصر أو تحرَّك نتيجة لثورة المسلمين في «يافا» منذ شهور؟ لا أنفي تمامًا، لكنِّي أقصد أن الأمور في مصر مواتيةٌ لتكثيف العمل في إسرائيل.

- من قال لكِ: إنهم لا يشعرون هنا بما يحدث هناك؟ إنهم ينتظرون الفرصة ليُلقوا بمن في إسرائيل في البحر، لكنَّ ما نقوم به هنا ممَّا تعرفينه يزيد في إلهائهم بمصيبتهم مع الإنكليز.

لا أعرف إلى متى أكرِّر أن التهاء المصريين بقضيَّتهم أو نزاعهم هو ما يجعل التحرُّكَ في إسرائيل أسرع، ومن ناحية أخرى لا يستطيعون نقضَ شعاراتهم عن الوَحدة الوطنية، وحرِّية العقيدة، وإلا رأوا رايات الاتهام باضطهاد الأديان والأقليَّات، ألا تذكرين ما حدث مع سعد زغلول الذي كان مضطرًّا أن ينفيَ

أيَّ دور دينيٍّ تعصُّبي للثورة التي انطلقت من الأزهر؟!

يا فتنة، هناك نوعٌ من الباطل يتحقَّق في عين الحق، فالرجل كان سيخسر لو أُشيع أن الثورة إسلاميَّة يدعمها الدِّين؛ لأنَّه كان سيُتَّهم بإكراه النصارى واليهود، والبدو وغيرهم ممَّن يعيشون في مصر، الذين أعلنوا أن الدَّولة لا تقوم بالدِّين ولا بالشَّريعة، إنما تقوم بالقانون.

أنا اتفقت مع سعد المالكي أن يشكِّلَ فريقًا أو لجنة للقُصاصات، سنحتاج إليها فيما بعد إذا سارت الأمور كما أراها، ما عليك الآن وفريقك إلا أن يتحمَّسَ هذا الشَّعب إلى المطالبة بالتعليم، وأن تدخلَ صحفنا إلى بيوتهم في هدوء، لا تُدخِلنها أنتُنَّ، ولكن حرِّضنَ البنات على شرائها، فلا نريد أن نذهبَ لهم بلا مقابل، والإعلانات، كلُّ البنات والنساء لا بدَّ أن تكون قِبلتَهُنَّ محالُّ اليهود في القاهرة، والمترتِّب عليه رواج التجارة، وهذا حاصلٌ لا مشكلةَ فيه، لكن ما سيحدث هو الأهم، الفتنة يا فتنة.

- وهل تعتقد يا حبيبي أن هؤلاء اللائي يلبَسنَ الخيام يلبَسنَ تحتها مثلها؟

- أعلم يا فتنة، أعلم أنهنَّ يلبَسنَ العباءات على ثياب كاشفة، إلى أن يذهبنَ إلى الأماكن المغلقة فينزعن العباءات.

- أحسنت يا شيطاني.

- فماذا لو تركنَ العباءة أيضًا؟ من تقتنع أن الدِّين يُسْر، ولم يقيِّد حرِّيتها ولم يفرض عليها هذه المعاناة نستمرُّ معها على هذا المنهج، ومن لا تقتنع به ندعوها إلى أنَّ ما نادى به قاسم أمين هو أن تنزعَ عنها الخيام، وأن محمد عبده ورفاعة الطهطاوي كانا يُناديان بمثل ما نريد لها من الخير، فالمرأة الأوروبيَّة محتشمة، والحشمة من داخلها لا من خارجها، والقراءة ستفتح مداركها، وتعلُّم الحب يا فتنة يزيل آلافَ الحواجز.

- صدقت يا إيزاك، صدقت، الحبُّ يزيل آلافَ الحواجز، ويبقى حاجزٌ لا يزيله لا حبٌّ ولا كره.

فهمتُ ما تقصده بهذه العبارة، لقد أصبحتُ أكثر سيطرةً على نفسي، لم أعُد أترك لها فرصة، فكيف أكون بيَّاع السمِّ وأتجرَّعه؟ ما للتِّجارة للتِّجارة، وما للسِّياسة للسِّياسة، ولا تخلو السِّياسة من قذارة، فإذا احتجنا إليها قُمنا بها، لكن لا يمكن أن تكونَ القذارة قانون السِّياسيِّ الحاذق.

ما أُعدُّ له يُنفَّذ بحذافيره، وصرت أراه في الشَّارع، في سيَّارات الأثرياء و(حناطير) الأقل ثراءً، وفي تتبُّع الشباب للفتيات خُلسةً... صرت بنفسي أزور بيوتَ الدَّعارة، والمقاهي و(الكازينوهات)، ما زالت بعض دور السِّنما تعرض أفلام: «بن هور»، و«شمشون ودليلة»، و«الوصايا العشر»، أما «السيناجوج»

فهو المسرح الكبير لكلِّ هذا... حاييم ناحوم يسيطر على أفكاري من حين إلى حين، أحيانًا أنظر لنفسي بعين مسلم متديِّن فأجدُني شيطانًا، ومرَّة بعين مسلم يريد التحرُّر فأجدُني باعثَ حرِّية، وأحيانًا بعين صِهيَوني فأجدُني زعيمَ الصَّهاينة، ومؤسِّسَ إسرائيل.

أكبر مشكلة تواجهني هي أنني في بعض الأحيان لا أكون منظَّمًا، وهذا يحدث حين أريد أن أفعلَ كلَّ شيء بنفسي في ذات الوقت الذي أنادي فيه بتوزيع الأدوار، فأنا مُدرك أن أفضل مجال أحقِّق فيه ما أريد هو الصِّحافة، وفي غير وقتها ها أنا ذا أدير فتنة التي تُدير عالمًا من العاهرات والمدَّعيات، إنهنَّ ممثِّلات بارعات.

- لا تقل ممثِّلات، إنهنَّ مؤمنات، أو مقهورات.

- لا شيء اسمه القهر في مثل هذه الأمور.

- الجوع قهر، الشَّهوة قهر، حبُّ المال قهر، حبُّ الجنس قهر، حتى العشق قهر، بل هو القهر الأعظم على اختلاف فلسفة الناظر في مفهوم العشق!

كان لإقرار عُصبة الأمم لوثيقة الانتداب على فلسطين أثرٌ عظيم في نفوس الإسرائيليِّين داخل إسرائيل وخارجها، في مقابل أحداث العُنف التي تجري هناك، أرسلت «إستير» تخبرني بأن الحكومة البريطانية عيَّنت «هربرت صموئيل» مندوبًا ساميًا

بريطانيًّا على فلسطين، هربرت يهوديٌّ صِهيَونيٌّ يستطيع إدارةَ الشَّأن اليهودي بحُنكة كما تقول إستير.

والمفاجأة أن يعيِّنَ المسؤول الأعلى للقضاء يهوديًّا أيضًا لا يختلف كثيرًا عن هربرت، إنه «نورمان بنتويش»، وهذا يعني أن الأحوالَ ستدخل مرحلة استقرار، أو على الأقل بدأت المقاليد تُلقى في أيدٍ يهودية، خصوصًا أن توجُّهات بريطانيا في فلسطين تميل إلى مصلحة اليهود، فلهم الوظائف والإدارت، ويشرفون على معارفهم، في الوقت الذي مُنع العرب من الإشراف على معارفهم، وارتضت المنظَّمة الصِّهيَونيَّة الاستفادةَ من بنود الانتداب وما يحقِّقه لليهود؛ للتوسُّع والسَّيطرة الكاملة على فلسطين، لكنَّ جابوتنسكي لا يرضيه هذا الحال من المنظَّمة الصِّهيَونيَّة، ويرى أن أسلوبها ليِّن، وهو يرى أن العُنفَ أفضلُ وسيلة لتحقيق الأهداف، أنا لست مع جابوتنسكي في وجهة نظره هذه، كلُّ شيء يمكن تنفيذه بالعنف، لكنَّ العنف يُفسد الكثيرَ من الخطط، ويستعدي عليك الآخرين، وحين لا تجد من يُناصرك، فأنت شرِّير ما دمت تمارس العنف..

في مصر نُفيَ سعد زغلول للمرَّة الثانية؛ تمهيدًا لصدور تصريح ٢٨ (فبراير) الذي صدر من طرف واحد يعترفُ بسيادة مشوَّهة للمصريين على بلدهم، ويتولَّى «عبدالخالق ثروت» الوزارة، ويعود العُنف إلى الشَّوارع، والثورات تتلاحق، أنا لا

أنظر إلى هذا كلّه إلا لكي أجدَ الثغرات التي نمسك بها زِمامَ الأمور، وصحافتنا ازدادت ثِقَلاً في مصر وإسرائيل، فلا مانع أبدًا من الترويج لمصر الليبرالية، مصر التي يجب أن تشكّلَ قرارها بما يتفق ورؤيتها، وترسم سياستها الحرَّة التي تتماشى مع واقع الأحوال في الغرب، فالمرحلة القادمة مرحلة تطوير وإعادة بناء الأمَّة، بعيدًا عن الأصوليَّة والجمود.

مرَّت أحداثٌ كثيرة متشابهة بي، شعرت بالملل؛ لأن الأيام تُمسي وتُصبح في ثوب واحد، عادت الأفكار تملأ رأسي، وكثيرًا ما أشعر أنها بلا هُويَّة ولا معنى، كلَّ يوم أكتب المقالات والخواطر وأتلقَّى الإعجاب، وتأتيني رسائل الثناء من كلِّ القرَّاء، كتبت مستنكِرًا عمليَّات الاغتيال للموظَّفين البريطانيين، وفي نفس المقالة أؤكّد أن من حقِّ كلِّ شعب أن يقرِّرَ مصيره بالطريقة التي يجدها مناسبة، ما دامت الطُّرق مسدودة، أنا لا أستطيع أن أستعديَ عليَّ الإنكليز، وفي نفس الوقت أستحضر ما يصل إليَّ من أخبار عن إسرائيل، فأحلُم باليوم الذي تتحوَّل الهاجاناه فيه إلى جيش نظاميٍّ، أنا أُدرك أن «هاشومير» لم تكن جديرةً بالحفاظ على أمن الإسرائيليين، وأن الهاجاناه في المدَّة الماضية شكَّلت خطرًا على العرب.

لا أعرف ماذا أفعل في هذا الفراغ! ربما هو ليس بالفراغ،

فأنا لا أومن بوجود ما يسمَّى الفراغ، بلغَني أن عمادًا تزوَّج وأنجب صبيًّا سمَّاه «عيسى»، وتبعه آخر اسمه «إسحاق»، أعجَبُ لهذا الرجل الذي يريد أن يعبِّرَ للعالم كلِّه أن هناك شيئًا اسمه تجانس الأديان في بلد واحد، حتى لو سمح دينٌ لبقيَّة الأديان أن تعيشَ معه في مكانه، فلا بدَّ أن تكونَ له هو السُّلطة، مهما قيل عن حرِّية العبادة أو حرِّية العقيدة، الناس تتبدَّل وجهات نظرها للأشياء، وتتبدَّل المنافع العائدة.

لماذا صارت كلُّ الأحداث تمثِّل لي أمورًا عارضة؟ هل لأنني صرتُ أرى أن هناك ما هو أهمُّ من عماد الذي انخرط في قضاياهم القومية، وأنا لا أريد المساسَ به؛ تقديرًا له ولأبيه وأمِّه؟ أنا لا أقدِّره، بل إنني كلَّما تذكَّرت أمَّه وأمِّي تذكَّرت أنني ابن الدلَّالة! إن كان هذا عماد، فلماذا لم يمثِّل لي معرِضُ الجواهر الذي افتتحه أخي عزرا أيَّ شيء، مع علمي أنه حقَّق شُهرة جيِّدة، وزُبُنه من عِليَة القوم؟ حتى هذا أيضًا بفضلي؛ فلولا ما أقدِّم للإسرائيليين، ولولا مكانتي عندهم لما تحقَّق هذا، أيضًا أنا السَّبب في نجاح عزرا الذي يمتدحون لي أخلاقه وأمانته، وأن معرِضَه مُكتظٌّ بالمسلمين أكثرَ من اليهود، وأنه يتعامل مع المسلمين بأمانة تجعلهم يَدينون له بالفضل.

حكت لي يهوديت أنها كانت عنده ذات مرَّة تستعرض بضائعه الجديدة، فرأت في المعرِض إحدى الثريات المسلمات، وقد

أعجبها خاتَمٌ ثمين، لكنَّها لم تجد معها ما يكفي لأن تدفعَ ثمنه، وكانت هي المرَّة الأولى التي تزور فيها «إيزاك وعزرا للجواهر»، وما كان من عزرا إلا أن سألَهَا عن اسمها واسم والدها، ثم دوَّنه في دفتر، وأعطاها الخاتَم على أن ترسلَ له باقي المبلغ في موعد ترك لها تحديدَه، بعد أن رفضَ أخذ خاتَم قديم لها تُكمل به ثمنَ الجديد!

ربما يكون هذا أمرًا عاديًّا؛ فهي ثرية بنتُ ثري، لكنَّ الأغرب ما فعل مع خاطبَين مسلمين كانا يشتريان (مِحبَسَي) خِطبة، ولا يملكان غير ثمنهما، فما كان منه إلا أن قدَّمَ للعروس سِوارًا يليق بجمالها ووسامة الخاطب الذي أبى ذلك بحزم، ولكنَّه لم يلبث أن وافقَ بعد أن أقنعَهُ عزرا بأنه لن يطالبَ بثمنه قبل عام كامل، ويمكنه أن يسدِّدَ من ثمنه كلَّما توفَّر له المال، من علَّم عزرا هذا الأسلوب؟!

- ومن علَّمك يا إيزاك؟

- أهي طبيعة اليهود؟

- اليهود بالدِّين أم اليهود بما يفعلون؟

- تقصد الإسرائيليين؟

- الصَّهاينة، نعم، صِهيَونيٌّ إسرائيلي، ولا فرقَ بين اليهودية والصِّهيَونيَّة، نحن أصحاب حقٍّ في كلِّ مكان تصله أقدامنا، وما يحدث في مصرَ الآن ما هو إلا لأنهم لم يتَّبعوا موسى، وعاداه

فرعون.

- لو استجاب له فرعونُ لما كان لكم أورشليم ولا غير أورشليم، ربما كنتم مشرَّدين الآن في شرق أفريقيا، أو أن تكونوا مغبونين في الأرض من مشارقها إلى مغاربها.

- وماذا نحن الآن؟ المصريون يناضلون لأجل أرضهم، ونحن نريد أرضًا لندافعَ عنها ونحميَها ونعمُرَها.

- يوسف أحيا مصرَ يا إيزاك، وكان سيِّدَها.

- لا أريد أن أسمعَ هذا.

- الآن لا تريد أن تسمعَ يا إيزاك!

- نعم، أنا لا أريد أن أسمعَ أيَّ شيء، غير أنني أحكم هذا البلد - بل كلَّ البلاد - بطريقتي التي هي طريقة إسرائيل.

- من قال: إنها طريقة إسرائيل؟

- ما تفعله يهوديت، وما تفعله فتنة، وما يفعله زوج «رحيل» التي رحلت إلى الخليل؛ لتكونَ إلى جوار «إبراهيم» و«يعقوب»، وما تفعله إستير، وما تفعله «سيبيل»، وما يفعله بن جوريون في أمريكا وإسرائيل.

- هل أنت بخير؟

- أنا بإسرائيل.

(٢٤)

القلعة منتصبة فوق الجبل كأنها ما زالت تحرُس القاهرة، الملوك منذ «صلاح الدِّين» يعتقدون أنهم يحرُسون هذا البلدَ من هنا، أيعتقدون أن اتخاذهم الأبراجَ العالية يحمي بلدًا؟ البلاد لا تنهدم من قِمَمها، وإنما تُهدَم من تحت، من القاعدة، الرأس دائمًا جبان، يختبئ في الكتفَين لمجرَّد صوت مفاجئ، الأرجل هي التي تحملُ الجسد الذي يعلوه الرأس، لو أن إنسانًا أتى بإبرة، وظلَّ يحفر بها قاعدةَ المقطَّم لانهارت القلعة، سيتطلَّب ذلك بلا ريب زمنًا طويلاً، لكنَّها في النهاية ستنهار، الآن حرَّاسها ينظرون فيها ومنها، ويتابعون حدودَها مراقبين، لكنَّهم يغفُلون عن القاع، عن قاعدة الجبل.

أصوات المؤذِّنين وقت الغروب تقتحم رأسي، لماذا هذا النِّداء ينبعث في وقتٍ واحد من كلِّ مكان؟ لماذا مع الغروب؟ أيتحدَّون الزمنَ الذي يمرُّ؟ أم أنهم يتحدَّون الليلَ الذي سيقتحم

العالَم؟ أيُنادَون ليجتمعوا، أم يتنادَون لتتحوَّلَ المنارات إلى أبراج عسكرية، أو فيالقَ تستعدُّ للحرب؟ أيُّ حرب يعلنها بلدٌ انقسمت طوائفه على أنفسها؟

غادرَني الملل أم اقتحمه الغلُّ؟ هل فارقتني الحَيرة لأوقنَ الآن بطريقي وهدفي، وأنا هنا أمام القلعة التي تغيظني، حيث لا قلاعَ لنا؟

- هل تهذي يا إيزاك؟

قلاعكم غيرُ هذه القلاع، لكنَّ المحمديين يعرفونها حقَّ المعرفة، يعلمون أنكم لا تُقاتلون إلا في قرًى محصَّنة أو من وراء جُدُر، لكن شُيِّدت لكم قلاعٌ أخرى، والفضل للصّهيَونية، أنتم بمخطَّط الصّهيَونيَّة تملكون حتى هذه القلعةَ التي أمامك، فتنة قلعةٌ يا إيزاك! فليست القلعة حاميةً فقط، وإنما من أبراجها يمكن التصويب، ألا تصوِّب سهامك من خلال فتنة تلك؟

- أريد ما هو أقوى.

- التَّوَّةَ تقول: مع الصبر تنهار القلعة، أم أنك تُناقض نفسك؟

- وما يجري من مؤتمرات إسلاميَّة في القدس؟

- كما يحدث لمؤتمراتهم في باقي الدُّول.

- و«عزُّ الدِّين القسَّام» الذي ينفُخ في العرب روحَ الجهاد، ويصعِّد وتيرة القتال والجهاد ضدَّ بناء المستعمرات؟

- ويح إيزاك! أأنت الذي يأبه لهذا؟ أين الدَّهاء يا بطل؟ ألا تعلم أن هذا في صالح الدَّعوة الصِّهيَونيَّة؟ ألا تعلم أنه يقدِّم لكم وثائقَ جديدة تُثبتِ حقَّكم وأنكم مُضطهَدون؟

- لا أحبُّ هذه اللغةَ وهذه الطريقة.

- أنت غير متَّزن، لا تعجبك القوَّة واستعمالها، ولا يعجبك البكاء والاستعطاف، ماذا تريد؟

- يهوديت، أريد يهوديت.

- لن تجدَها، لديها ما تقوم به، يهوديت اختصَّت بشؤون القصر، تتابع أمورَه من بعيد، وتمدُّه بالخدَم، وتساعد في تنظيم الحفَلات والسَّهَرات للملكة والأميرات، والحاشية أيضًا.

- لا أريد شيئًا، لا أريد.

في (الكلوب) كان ليون كاسترو ساهرًا مع عدد من الصَّحفيِّين الإسرائيليين، حين دخلت عليهم باغتني سائلاً: أين أنت؟ أرسلتُ إليك، لم أرَك منذ ثلاثة أيام، فقط مقالاتك! ما بك يا إيزاك؟

- أستعدُّ لتأليف كتاب.

ابتهج جدًّا، وتساءل الجالسون:

- عن ماذا يا سيِّد إيزاك؟ طبعًا سيكون انطلاقةً جديدة في عالم الكتابة، بالعبرية يا سيِّد؟

- بل بالعربية.

دهش الجميع، أشعر أن رأسي أثقلُ من الكرة الأرضيَّة، همس لي كاسترو الذي أراه الآنَ وكأنَّني لم أرَه منذ سنوات فصلت بيننا، أراه وعلاماتُ الشَّيب دبَّت في وجهه ورأسه أكثر وأكثر، أراه الآن يودِّع الدُّنيا بهذا الجسد المتهالك، الذي يحاول جاهدًا أن يتحدَّى عواملَ الزمن وكأن اليهود عُجنوا على تحدِّي الموت الذي يقضي بأن تبقى آثارُهم فقط بعد ذهاب بلا إياب، وفراق بلا لقاء، لا أكاد أسمع كاسترو، بل أسمع الحاخامين في «القدس» و«الخليل» و«جنين» و«يافا» و«حيفا»، وفي أوربا كلِّها، والمغرب والعراق واليمن. . .

أسمع الحاخامين منذ سكنوا سَبخَة يثرب ينتظرون أن يولدَ فيهم مسيحهم المخلِّص، ويحهم! كيف يرتحلون في الأرض وراء بِشاراتهم؟! أكان خلقُ المسيح مرتبطًا بالمكان أم النُّطفة؟ جميع الحاخامين ينادونني من كلِّ مكان؛ كي أكونَ لإسرائيل، سُحقًا لهم جميعًا! كيف أكون لإسرائيلَ أكثر من ذلك؟ إنني أبنيها في كلِّ مكان، في كلِّ قلب، في كلِّ عقل. . عزرا أخي يبنيها في معرِض الجواهر، إستير وسيبيل تبنيان في أرض إسرائيل جيلاً من المتشرِّدين القتَلَة، وجيلاً من الخانعين عبيد الملذَّات.

صوت كاسترو يأتيني من بعيد جدًّا مكرِّرًا عليَّ السؤال:

- هل أنت بخير؟

- نعم بخير، وسأكتبه بالعربية، سأوجِّهه للعرب جميعًا، كتاب ما هو إلا دعوةٌ لتجديد فكرهم، وتجديد دينهم، والبحث عن قضاياهم الحياتيَّة في القرآن الذي لم يفارق صغيرةً ولا كبيرة، ألا تسمع كتابَهُم المنادي بقتل اليهود؟ ألا يحقُّ لمن يطلبون الحرِّيةَ والمدنية والبحث عن ذات الإنسان أن ينظروا إلى الإنسان الذي يعيش معهم في نفس الأرض، وأن ينظروا له كيف يصوِّره كتابهم، ويعلِّمهم قتله ومعاداته أينما وُجد، أليس هذا الإنسان هو النصرانيَّ أيضًا؟ ألا يحقُّ لنا أن نعرضَ عليهم كلامَ محمد الذي أُوتيَ جوامعَ الكلم؟ ألا تحتاج هذه المجامع إلى التفسير؟

- أنت تلعب بالنَّار يا إيزاك.

- السيِّد كاسترو هو الذي يقول هذا؟ لماذا لا أرى المالكي؟

- سيأتي بعد قليل، ومعه إستير.

- هل وصلت من أورشليم؟

- تقول: إن الأوضاع هناك شبهُ مستقرَّة، لكن لماذا تصرُّ على تأليف هذا الكتاب؟

- ألم تصِل إليك مؤلَّفات «مرجليوث»؟ ألم تقرأ كتابه «محمد وظهور الإسلام»؟ ألم تقرأ تعليقات المسلمين عليه وعلى آرائه بأن محمدًا أضاف إلى الإسلام من تعاليم اليهودية؟

- هذا ما يقولونه هم أنفسُهم يا إيزاك، معتمدين على تفسير قوله: «إنما بُعثت لأتمِّمَ مكارمَ الأخلاق».

- بالضَّبط، هذا ما أرمي إليه، وأريد في هذه المرحلة أن يفعلوه، فكلُّ مكتوب يخضع للنقد حسبَ ظروف عصره، ألا يقولون: إن دينهم صالحٌ لكلِّ زمان ومكان؟ فلنُخرج لهم ما يستوجب الدِّراسة، وصدِّقني: لن نُتعبَ أنفسنا بكثير دراسة، وإنما نفتح لهم البابَ فقط، وندلُّهم على الطريق، ولعلمك سأكتب مقالات في الأيام القادمة عن علاقات القُربى والنَّسَب بيننا وبين العرب.

دخل علينا سعد المالكي ومعه إستير بجمالها المعتاد، أشعر أن عينيَّ مشوَّشتان، لكنِّي أحسُّ جيِّدًا بجمالها، أنا مهتمٌّ بسعد أكثر من اهتمامي بها، لكنَّني لا أرغب في إعادة ما قلت.

اختارت إستير أن تجلسَ إلى جواري، مالت عليَّ قليلاً: هل السيِّدة فتنة تبلِّغك سلامي؟

- نعم، ما الأخبار هناك؟

- أنت تعرف أن الفساد يصاحبه فساد يا عزيزي، وكما يحدث هنا يحدث هناك، مع اختلاف المستوى طبعًا.

- والأراضي؟

- بدأت تنشَب عليها منازعات، لكنَّهم هناك يبيعون البِرَك والمستنقعات، والإسرائيليُّون يعملون، البِرَك والمستنقعات

ضمن الأراضي المزروعة والبكر، كلُّ الأرض لإسرائيل، أتعلم! موضوع بيع الأراضي هذا يستحقُّ التوثيق يا إيزاك، فأنا أعتقد أننا وضعنا قانونًا يجب أن يُدرَّسَ في المدراس عن كيفيَّة البيع والشِّراء السِّلمي في حالة الحرب، نحن لا نشتري من المتأزِّمين ماليًّا فقط كما نُشيع في الأوساط جميعًا، نحن نشتري من شخصيَّات عامَّة ذات نفوذ وتأثير في فلسطين، لكن وَفق آليَّة صِهيَونية...

كنت أنظر إليها وهي تتكلَّم منتشيةً، كلُّ خليَّة في جسدها تعبِّر بشُموخ وعظمة عن السِّياسة التي تخبرني بها، وكأنَّني لستُ على علم بما تقصُّ عليَّ، لكنَّني مع إستير أو غيرها ممَّن يأتون من فلسطين أحبُّ أن أسمعَ منهم أكثر ممَّا يأتيني من أخبار، لم أقاطعها وتركتها تُكمل:

- لقد اتبعنا أسلوبَ الرَّهن، وهذا أمر سهل جدًّا: يتفق المشتري مع البائع أن يرهنَ البائع له أرضَهُ مقابل مبلغ معيَّن مدة ثلاثين يومًا، بعد انقضاء المدَّة يطالب الدَّائن بدَينه، ويرفع دعوى في المحكمة، وبكلِّ يُسر يَمْثُل المَدين ليُقرَّ بعجزه عن السَّداد، فتنتقل ملكيَّة الأرض من هؤلاء العرب إلى صاحبها الحقيقيِّ، أليس من الظُّلم أن ندفعَ ثمن أرضنا يا إيزاك؟!

قالتها وهي تميل عليَّ وعلامات التهكُّم ترقص في وجهها، ثم مالت أكثر، وبهسيس منها تلفحني سائلةً: ألا تريد أن تعرفَ عن السَّهَرات؟

- أعرف أنك محترفة يا إستير.

- أنا مديرة يا سيِّد قمَّاش، لا أعمل بنفسي.

- واثقة؟

- إلا في الحالات النادرة طبعًا؛ مما يستدعي أن تكونَ الشخصية مناسبةً للشخصيَّة.. بالمناسبة، بلغني أن فتنة تدير مجموعةً من الممثِّلات الجميلات الآن، والرَّاقصات.

تقلَّصت معدتي حين ذكرت فتنة وعملها، كأنها تُشير إلى أنها مثل فتنة، بل إنني لمحت أنها ترمي إلى شيء آخرَ أعرفه، وما يثير الغرابة أن إستير ربانية، وأنا قرائي سفاردي، ألم أقل: إن للسِّياسة قذارةً تحكم بها المواقفَ التي تستدعي وقفةً لتصفية الحسابات؟

دخلت يهوديت تعلِّق يدها في يد رجل لم أرَهُ من قبل، غمزت من بعيد محيِّية، أمسكت إستير بيدي، ومالت هامسةً: إنكليزي من أصل عربي، تقنعه يهوديت ببيع بيته وقطعة أرض في إسرائيل، وهذا ليس الأهمَّ عندها، بل هي مهتمَّة أن تشاركه في مصرِف يُقام في أورشليم.

نظرت خُلسةً نحو يهوديت، فرأيت أفعى تفتح فمها استعدادًا لالتهام الفريسة المخدَّرة:

- أين ستذهبين بعد الخروج من هنا يا إستير؟

- مجموعة من البنات ينتظرنني ويهوديت وهذا الخنزير في (فيلا) يهوديت.

ضحكت من عُمق صدري موجِّهًا الكلام إلى المالكي:

- اشتقت إليك يا أستاذ، وسألت عنك حين وصلت.

- والدَّليل طبعًا انشغالك بإستير، لا ألومك، فمَن لا تأخذه إستير من محيطه إنسانٌ غير متَّزن نفسيًّا، في صحَّتك يا حلُم إسرائيل.

قامت إستير خارجة، وقد دسَّت في جيبي ورقة، أكملنا السَّهرة، وناقشنا بنودَ الدُّستور، وأثنينا على براعة يوسف باشا قطاوي الذي عُيِّن وزيرًا للمالية في وزارة سعد زغلول الذي تولَّى الحكومة، وصرنا لا نهتمُّ باسم رئيس الوزارة؛ لأننا نؤمن أننا قد ننامُ في عهد رئيس حكومة لنستيقظَ في عهد رئيس آخر، كأنهم مجهَّزون لأدوار يؤدُّونها، ثم ينحنون أو ينتظرون دورهم.

لو أن هذا حدث في إسرائيل ذات يوم ستكون كارثتها الكبرى، بل يجب ألا يحكمَ اليهودَ ملك أو رئيس، إلا كمن تُعلَّق صورته على الجدار افتخارًا بأنه كبيرُ العائلة، لكن لا زِمامَ في يده، إعجابي بيوسف باشا يزداد يومًا بعد يوم، هذا الرجل يعدُّ ظهرًا قويًّا لليهود، يعتمد عليه موسى باشا فيبقى رئيسًا للطائفة، يعيَّن عضوًا في الجمعيَّة التشريعيَّة، ثم مستشارًا لوفد الحكومة للمفاوضات، وعضو اللجنة الواضعة لدستور مصر،

برغم أنه وعائلته ينتقدون الصِّهيَونيَّة، فلا أنكر أن زعماء الصِّهيَونيَّة يجيدون توظيفَ منتقديها باسم اليهودية، لا لا لا، بل إن الصَّهاينة يمسكون على كلِّ يهودي ورقةً يضغطون بها وقتما يتعارض في توجُّهه مع رؤيتهم.

وأصدق مثال ما فعل مع جابوتنسكي، يُحكَم عليه بالسَّجن في إسرائيل، وبالضَّغط يعيَّن في المنظَّمة، والآن يناقشهم في فلسفاتهم وتوجُّهاتهم، ستبقى إسرائيل - إلى الأبد - لا تعتمد على من يديرونها في الدَّاخل، وإنما هناك المخطِّطون العِظام خارجها، كما الأذرُع الطويلة لا تكون إلا خارجها، وهذا ما سيثبته الزَّمن.

في شقَّتي تذكَّرت الورقة التي دسَّتها إستير في جيبي، وأخرجتها، فلم أجد غيرَ عبارة واحدة: «انتظرني عند الغروب»، لم تكتب أين أنتظرها، ولا ماذا تريد؟ المعروف أن التعامل معها يكون عن طريق فتنة، وهذا الغالب، فماذا تريد منِّي؟!

بدأت في تأليف الكتاب الذي أنوي تأليفه بمجرَّد أن وصلت إلى البيت، القلم كان يجري على الصَّفحات كأنه وجد طريقه الذي كان يبحث عنه منذ أزمنة، قضَيتُ الليل كلَّه أكتب مسترجعًا تاريخَ العرب والمسلمين، وباحثًا في كلِّ تفاصيله، وعن نِقاط القوَّة التي يمكن تطويعها، وعن نِقاط الضَّعف

والسَّقَطات التي يمكن تحفيزها وتنميتها.

استيقظت شاعرًا برأسي كأنه أفرغ أثقالاً في الأوراق، وبدأت أشجار جديدة تنمو فيه، عدتُّ إلى الأوراق أكتب عدَّة مقالات لـ«الأهرام»، و«الاتحاد الإسرائيلي»، و«إسرائيل».

كتبت للأهرام مقالةً عن تجديد الدِّين، وضرورة النظر في العلاقات الأصليَّة التي ربطت بين اليهود والمسلمين، والأصل الواحد الذي نخرج منه؛ فإبراهيم هو أبو إسماعيل وإسحاق، ونحن أبناء إسحاق لن نعاديَ أبناء عمِّنا أبدًا، ولا نقبل بأيِّ دخيل يُفسد العلاقات بيننا، تلك العلاقة التي توطَّدت بين النبيِّ محمد واليهود، وأفسدها بعض الغُلاة الذين خرجوا من المدينة، وبقي فيها الشُّرَفاء الذين تعايشوا مع المسلمين، حتى إن علماء المسلمين يعترفون بأن النبيَّ محمدًا رَهَنَ درعه عند تاجر يهوديٍّ مقابل ثلاثين صاعًا من الشَّعير، ما أعظمَ هذا النبيَّ الذي تقشَّف في حياته ولم يطلب من أصحابه الأثرياء شعيرًا، وأخذها عن طيب خاطر من يهوديٍّ صاحب كتاب سماوي! ولأنه نبيٌّ لم يُرد أن يكونَ مَدينًا، فرَهَنَ درعه، ومات وهي مرهونةٌ عند هذا اليهوديِّ الذي نضرب به المثل في حُسن المعاملة.

أما للاتحاد، فكتبت إشادةً بالحاخام حاييم ناحوم الذي حاز ثقةَ الملك «أحمد فؤاد الأول»، فعُيِّن حاخامًا أكبرَ للطائفة اليهودية، فلا بدَّ أن نعدَّ يوم الثاني من (مارس) للعام ١٩٢٥

مناسبةً سعيدة؛ لأنَّه ارتبط برجل عظيم، ودعَوتُ في المقالة إلى إحياء الطُّقوس الدينية وضرورة العمل على رفع قدر الطائفة، والالتفاف حول زعمائها؛ لأنَّ هذا من أهمِّ الأشياء التي تُرضي الرب، وتجعله يرزقنا ويُحسن إلينا...

ولإسرائيل كتبت مقالةً باللغات الثلاث، ما هي إلا عرضٌ لقضايا الوطن، وتهيئة لهم لأن يكونوا هنا بأجسامهم، وهناك بقلوبهم، كما أن المسلمين هنا بأجسامهم، وقلوبهم وعقولهم معلَّقة بالكعبة في مكَّة، ولو سألت أيَّ مسلم: أتفضِّل أن تعيشَ في مصرَ أم في مكَّة؟ سيجيبك بأنه يتمنَّى أن يعيشَ بجوار الحرَم، وأن يُدفنَ في البَقيع، فلا بدَّ أن نتعلَّمَ من المسلمين حبَّ الأرض التي فيها مقدَّساتنا...

خرجت إلى مكتب الطنطاوي بك، ولم يكن أحدٌ في المكتب غيرُ غزلان السَّاعي، فطلبت القهوة، وطلبت منه أن يذهبَ بالأوراق إلى مكتب الاتحاد، أما هذه الأوراق فسيأتيه مندوبٌ من كلِّ جريدة ليتسلَّمها... فكرة الكتاب كانت تُلحُّ عليَّ جدًّا، فعدتُّ إلى شقَّتي، أعدَّت لي الخادم الغداء، وبينما أتناوله وصلت إستير، وجلست تتناول الطَّعام معي، وقالت إنها سعيدة أنها التقتني مُصادفة، وأنها تشعر أنها ستراني على كلِّ حال، وستصل إليَّ في أيِّ مكان.

دون مقدِّمات سألتني إستير:

- لماذا لا تأتي للإقامة في إسرائيل؟

نظرتُ إليها دهشًا وسألتها:

- وأين إسرائيل؟

- إسرائيل هي إسرائيل يا إيزاك، وأنا منذ رأيتك أتساءل: لماذا لا يأتي هذا البطل؟

- وكيف ترَينني هنا يا إستير؟

- أراك ملكًا ينصاع له الجميع.

- ليس من اليهود فقط يا إستير، بل ومن المحمَّديِّين أيضًا! أنا هنا أبني إسرائيل.

- تبني إسرائيل فقط؟

- بل أبني حتى مشاريعك التي هناك، ومشاريعك في أمريكا.

كانت العبارة الأخيرة مفاجأة لها.

- من أين عرفتَ بما في أمريكا؟

- أنا أعرف كلَّ شيء؛ لأني أُدير كلَّ شيء، ولمَّا كنت أُدير كلَّ شيء أودُّ أن أعرفَ لماذا أنت هنا الآن.

- في الحقيقة جئت لأدعوَك إلى رحلة إلى إسرائيل، وحدثٍ تاريخيٍّ لا ينبغي أن تفوِّتَه.

- افتتاح الجامعة العبرية؟

- نعم يا إيزاك، أنا هنا في القاهرة أرتِّب للذين سيُشاركون في الافتتاح، وعلى رأسهم «أحمد زيوار باشا»، وحاييم ناحوم أفندي، و«طه حسين»، وغيرهم كثيرون.

- أعرف، كاسترو أخبرني نقلاً عن وايزمان، وأعرف أن بلفور هو الذي سيفتتحُها، لكن هل رتَّبتم الأمور هناك؟

- نعم، كلٌّ شيء معدٌّ لهذا الحدث التاريخي، لكنَّني آمُل أن تكونَ هناك، وأن تكونَ معي تحديدًا.

ضحكت مقدِّمًا لها كأسَ نبيذ.

- ستُتاجرين بي يا إستير، وليس بيننا علاقة؟

- من قال لا علاقة بيننا؟ أنا أتابع كلَّ أخبارك هنا وفي إسرائيل، ويكاد يكون الجميع هناك يتحدَّثون عن إيزاك القمَّاش الذي وُلد بطلاً ومفكِّرًا عملاقًا، فلماذا لا أنال شرفَ أن أصطحبَكَ إلى هناك وتقيمَ في ضيافتي، وأمشي معك أمام الجميع في إسرائيل؟

- تتركين بلفور ووايزمان وكلَّ الشخصيَّات الكبيرة، وتختارين إيزاك القمَّاش؟

- كلٌّ هؤلاء سيكونون تاريخًا، أما أنت فواقعٌ ومستقبل يا إيزاك.

بدأت علامات أعرفها تظهرُ على وجهها، إنني أحفظ هذه العلامات جيدًا، أعلِّمها لأمثال هذه لنحقِّقَ ما نريد، وأعتقد أنها لا تعرف علاتي فتثيرها، فأعطيها ما تريد.

- لديَّ هنا أعمال كثيرة يا إستير، وإسرائيل لا تحتاج إليَّ الآن، بل تحتاج إليَّ هنا، من هنا أبنيها.

الغضب والامتعاض سيطرا على وجهها، فطلبت أن تنصرف، عرضتُ عليها أن تقضيَ الليلة عندي، لكنَّها أخبرتني أنها مرتبطةٌ بمواعيد، مع أنني رأيت في عينيها أنها جاءت وفي نيَّتها المبيت!

حين خرجت من عندي تناولتُ الأوراق من جديد، وكان الليل قد خيَّم على المباني والحقول البعيدة، والخادم قد غادرت بناءً على طلبي، وعدتُّ أسرُد ما اجتمع في بُوتَقَة رأسي عن الأديان والإنسان، ومكانة الإنسان عند الرب، قرَّرت أن أتناولَ مقولة المسلمين: «إن الإسلام صالحٌ لكلِّ زمان ومكان»؛ لأحلِّلَها، مُثبتًا أن هذه المقولة كفيلةٌ بأن ينسجمَ الإسلام مع الأعراف، ومع ما تقتضيه أحوال الدَّولة والناس، ومن الواجب أن يحقِّقَ هذا الدِّين السَّماويُّ المجيد المساواةَ بين الناس في كلِّ شيء؛ فهو دينٌ لم ينزل على أحد من بني إسرائيل الذين اعتادوا أن تنزلَ فيهم الرِّسالات، وقد تعلَّموا نشر هذه الرِّسالات في الأرض كلِّها، حتى إنهم وإن اختلفوا مع النصارى

فهذا خلاف تاريخيٌّ قد أزاله الزَّمن، وجُمع الكتابان في كتاب واحد مقدَّس، وهذا دليلٌ على وَحدة الدِّين الذي بدأ باليهودية في العهد القديم، واستُكمل بالمسيحية في العهد الجديد، ولا غرابةَ في هذا؛ فالربُّ دائمًا يحبُّ الإنسان، ويهديه برسل يأتون مُصلحين. ولمَّا كنت إنسانًا متحضِّرًا أحكِّم العقل، أرى أن الإسلام جاء ليحتويَ الدِّينَين السابقين، ويحتويَ الأعراف والقيم التي تسود البلادَ التي يدخلها، فهو كما تضمَّن تعاليم وأخلاقًا كانت في الجاهلية، تضمَّن آدابًا وأحكامًا مشمولة بالاحترام في اليهودية والمسيحية، وعلى هذا لا يحسُن بقلَّة من الدَّارسين الوقوف في وجه الإسلام الحضاريِّ المنفتح على العالم الجديد، هذا الدِّين المرِن السَّمْح الذي يستطيع التنازلَ عن بعض ما كان فيه مناسبًا لزمن سابق، في سبيل أن يستوعبَ الجديدَ المناسب للزَّمن الحاضر، وبهذا يُثبت المسلمون أنهم جديرون بالاحترام والزَّعامة، هذه الزَّعامة التي صارت لهم حقًّا تاريخيًّا، اكتسبوه بفتوحاتهم وسيطرتهم على الدُّنيا كلِّها.

(٢٥)

قم يا إيزاك، ليس الكلُّ تجارًا، وليس كلُّ امرأة عاهرةً، قدَرُك أنك قابلت هؤلاء، إنهم نشطاء لأنهم يملكون هدفًا مزدوجًا، أما أنت فمختار، أنت الذي ستبعثُ إسرائيل يا ابن القمَّاش، أبوك بطل، وأنت بطل، الكلُّ من عِلْيَة القوم يحبُّونك.

- كلُّهم لهم مصالحهم التي يديرونها.

- وأنت مستفيد من كلِّ هذا، والدَّليل أرصدتُك في المصارف، كلٌّ منهم فتح لك حسابًا يضخُّ فيه مبالغَ ليست قليلة، أنت نفسك لا تحصيها.

- أنا لا أحبُّ المال، ولا أريد أن أعرف، وأكتفي بما أنفق، ونفقاتي ليست مرتفعة.

- لأنك بطل، ألم أقل لك؟ أنت المختار الذي يعرفُ كيف تُقام إسرائيل، أنا أتيتك من الهيكل؛ لأعيدَ فيك إيزاك الذي يعرفه الربُّ.

- الربُّ؟ وهل يعرفني الربُّ؟

- إن لم يكن يعرفك فلماذا أخرجك من الجهل إلى كلِّ هذا العلم، وجعلك تسيطر على كلِّ من يعرفك؟

- أنا؟ ابن الدلَّالة يعرفني الربُّ ويختارني؟ ماذا تقولين؟ وأين جسدك إن كنتِ حقيقة؟ وأين عيناكِ التي ترينني بها؟

- أنا هناك يا ابن راشيل الطاهرة، والقمَّاش الطيِّب، أنا في عُمق الزَّمن الآتي، الزَّمن الذي ستكون الدُّنيا كلُّها عارفةً بك، وتحكي حكايتك، ويختلف بشأنك الناس، وتعيش للأبد؛ لأنك حقيقة، والناس يبحثون عن الحقيقة، إنهم لا يريدون أن يجدوها وهي بين أيديهم؛ لأنهم طمَّاعون، أما أنت يا إيزاك فعالم صادق، تعرف أن إسرائيل ستقوم، وستبقى؛ لأنَّ أزمنة الطُّوفان ذهبت، وذهبت الصواعق والزلزلات، وليس في الأرض «نبوخذنصر»، ولا «فرعون».

- نحن في أرض الفرعون.

- أعد ذكرَ الفرعون؛ كي تبقى سيرةً يا إيزاك ولا يخرج لكم من جديد، الفرعون لا بدَّ أن يبقى ذكرى، اصنع منه قناعًا ألبِسهُ للمصريين؛ حتى يظنَّ كلُّ واحد أنه فرعون، وأبقِ العصا بيدك أنت يا حلُم إسرائيل.

- انتظري، من أنتِ؟ من أرسلكِ؟ أين عيناكِ؟ من أين

أتيتِ؟

- من هناك يا إيزاك، ابقَ هنا، وأنا سآتيك، قم، استيقظ؛ كي لا تركضَ ورائي، فلن تلحقَ بي، البنَّاؤون لا يسكنون البيوتَ التي بنَوها يا إيزاااااك.

- انتظري، انتظري، انتظري.

انتفضتُ من نومي، لا أعرف من كانت تكلِّمني، ولا أين كنت، من هي؟ ولماذا أتتني؟ وأيُّ ربٍّ يعرفني؟ أنا تعبت، والزَّمن يجري، إنها تؤكِّد أنني حلم إسرائيل، لا بدَّ أن أقومَ من هذا الفراش اللعين، فتنة، فتنة، أين أنا؟ أنا في شقَّتي أم في بيت الخيَّاميَّة؟ ما هذا الظَّلام؟ أكلُّ هذا ولم ينزح الليل عن الدُّنيا؟ أضأت المصباح، لم تزل الثانية بعد منتصف الليل.

قضيت ساعةً أحاول استرجاعَ الحلم، فلا أستطيع؛ لأنني صرتُ الحلمَ نفسه، إن الربَّ اختارني لإسرائيل، لكنَّها قالت: الذين يبنون البيوتَ لا يسكنونها، أنا بنَّاء؟ هل كانت توجِّهني إلى الماسونية؟ ليس وقتها، فماذا كانت تريد منِّي؟ ولماذا تأتيني هذه الأحلام؟ ولماذا تركت إستير تذهب وصرفت الخادم؟ هل أنا مسيَّر لا أملك من أمري أيَّ شيء؟ هل سأكفر بمبادئي أم ماذا؟ إيزاك الذي خرج من بؤرة حارة اليهود ليلتهمَ الكتب والصُّحف، ويُخرجَ المارد الكامن بداخله، سيقف عاجزًا أمام أحلامه التي هي من وحي الضُّغوط والشَّحن النفسي... لا

بأس، لا بأس، حلم كأيِّ حلم، تأتيني من الهيكل، أم من تحت عرش سليمان، هذا لا يُجدي الآن، ما يُجدي أن نبعثَ داود وسليمان والهيكل من جديد.

تخطيطي في مصر يسير على أكمل وجه، ما يُتعبني قلته، الأحداث متشابهة، والوزارات متشابهة، والشَّعب غرق في الفقر، والجهل، والمتناقضات، والأحزاب، والزَّعامات، موت سعد زغلول أثَّر كثيرًا في المصريين، لقد شيَّعوه وكأن كل واحد منهم يشيِّع أباه! أبعد كلِّ ما حدث، وكلِّ ما عاشه هذا الشَّعب من انقسام حول سعد، وما سعَت به الصُّحف، وما خاضت فيه، انتهى حين مات ليجتمعوا عليه كما اجتمعوا حين عاد من منفاه؟ ما هذا الشَّعب المعقَّد؟ إنها قالت لي: ابعث الفرعون.

الآن أنهيت كتابي: «جدِّد دينك لتلحقَ بالحضارة»، ماذا تريد ببعث الفرعون؟ أن أبحثَ عن الفرعون؟ أن أعيدَه لذاكرة اليهود أم لذاكرة المصريين؟ مَن تلك التي كانت تكلِّمُني لأعرفَ ماذا أرادت؟ إنها ليست أمي، قالت عن أمي: إنها طاهرة، هل إسرائيل تعرف أمي؟ يبدو أن هذا الحلم سيعود ليخرجَ من الذاكرة بعد كلِّ هذه الشُّهور التي مرَّت، لن يستحوذَ عليَّ، لكنَّني أنهيت الكتاب، لماذا حين أتممته خرج الحلم من الذاكرة؟ لماذا خرجت سيرة الفرعون؟ وأيُّ فرعون هذا الذي

يجب أن أبعثه؟ مؤكَّد أنه لن يكونَ فرعون موسى، ففرعون موسى مَذمومٌ عند المحمَّديين أيضًا، إنهم يجدون في كتابهم ما يُقنعون به النصارى بقصصه عن مريم وعيسى، ويريدون أن يقنعونا بأن كتابهم ذمَّ فرعون موسى الذي نكرهه، لا بدَّ أن الفرعون الذي يُناديني فرعونٌ من نوع آخر، تطلب منِّي أن أبعثَ الفرعون؛ ليكونَ سيرة فلا يطردنا مرَّة أخرى، «فلا يطردنا مرة أخرى»، يطردنا، إذا خرج الفرعون فكلُّ حاكم فرعون، وكلُّ إسرائيليٍّ مُستضعَف، ومن يستضعف الإسرائيليَّ فرعون، والإسرائيليون حين خرجوا خلَّفوا حقوقهم وأملاكهم، فيجب على الفرعون ردُّ ما اغتصبه الفرعون، أو تعويضه. . .

حاييم ناحوم لم أزُره منذ زمن، سأذهب إليه اليوم.. لا، لن أذهب، سأطلبُه إلى اجتماع في مقرِّ الاتحاد، لا أعرف، المهمُّ أن أراه، أنا لست مقتنعًا بعدد الجرائد والمجلات الإسرائيلية برغم زيادة عددها، أكتب فيها كلِّها عدا «التليفون»، «إيلي عزرا كوهيلا» صاحبها لا يفهم، ولا يسمع للتعليمات، سأطالب بمعاقبته، وإلا فلتغلق مجلَّته.

«الحياة اليهودية» جيِّدة، أجد فيها الفرصةَ لأخاطبَ الأسرة الإسرائيلية، وأعيدَ تشكيلها، وبلغني استجابةُ الكثيرين لأفكاري. جريدة «جمعيَّة الاتحاد للإسرائيليين القرائين» نشطة، مقالاتي

فيها منذ سنين. «الحرِّية» كتبت فيها، لكنِّي مع كلِّ ما يبذله كاسترو لأجلي، لا أجد في نفسي له التقديرَ والحبَّ القديم، فهو مع كلِّ شيء متعجرف. أما «لوسيان سكيوتو» صاحب «الفجر» فيجب أن أجلسَ معه؛ لنناقشَ الكثير، فبرغم قِدَم صحيفته تحتاج إلى كثير من التطوير. ولا بدَّ اليوم أن أجتمعَ أيضًا بـ«إيلي عزرا»، ولا بدَّ أن تحضرَ فتنة الاجتماع، لا بدَّ.

كنت في ذلك اليوم في أعنف حالاتي، الحلم الذي لا أستطيع تفسيرَه إلى الآن كان يشغَلُني ويحمِّسُني في نفس الوقت، ناحوم وعد يومئذٍ بأن يحضُرَ في اليوم التالي، أما إيلي فقد استضافتنا فتنة في سميراميس لنتشاورَ بشأن مجلّته «التليفون» التي من المفترض أن تتبعَ تعليمات فتنة، فالمجلَّة صدرت لتتابعَ أخبار الرَّذيلة أو فضائح (الصَّالات)، وتُعنى بالانحطاط الأخلاقيِّ في مصر.

اعترض إيلي على كلامي، أوضحتُ له أن الكاتب الجيِّد يستطيع أن يجذبَ القرَّاء إلى موضوعاته بنهيهم عن مادَّة الموضوع بأسلوب مبطَّن جميل، والصُّوَر في حدِّ ذاتها تنفِّذ ما نريد، إلا أنه كان يعتقد أن بإمكانه أن يستعملَ أسلوب الفضيحة دون تعليق أو تحليل، وهذا لا يُجدي أبدًا، ولا يحقِّق النتائجَ التي نريدها... فتنة تعبت جدًّا حتى وصلت الأحوال إلى ما هي عليه، ولا نريد أن يضيعَ أحدُ جهودنا هباءً، المجتمع الآن صار

يهتمُّ بالفضائح، ويهتمُّ بالمشاهير، والمراقص التي صار لها وجودٌ يتفق وما أُشيعَ عن الحرِّية والخروج إلى قضاء أوقات الفراغ، ولن أكلِّمَكم طبعًا عن السِّنما.

انتهينا من لقائنا مع الحمل الشَّارد الذي لا يفهم إلا بصعوبة، ثم انطلقنا إلى بيت الخيَّاميَّة، لا أجد سببًا لهذا الشَّوق العارم إلى فتنة حتى إنني لم أناقشها حين دعتني للذهاب معها، لكنَّ الحلم كان ما زال يشغلني... وصلنا إلى البيت، أصرَّت فتنة أن تعدَّ لي الحمَّام؛ لأستعيدَ نشاطي، وكالعادة مع عطورها والعطور الأخرى، أمضيت نصف ساعة في الماء لأخرجَ فأجدَها قد تبدَّلت، تأتيني مشرقةً باسمة، كلُّها شوق هي الأخرى، جلسنا لشرب الشَّاي وتناول أطعمة خفيفة، قصصتُ عليها الحلم، غرقت في التفكير، ومثلي لم تجد تفسيرًا غير أن قدَري أن أحملَ أمانة إسرائيل، وأن الربَّ راضٍ عن كلِّ ما أفعل، فأنا مُختارٌ، وهو يقبل كلَّ شيء من مختاره كما قبل الأنبياء بخطاياهم، برقت عيناها وهي تقترب منِّي مؤكِّدةً أن الربَّ قبِلَ الأنبياء بخطاياهم.

غيَّرت مجرى الحديث إلى تعيين «يوسف باشا قطاوي» في مجلس الشُّيوخ، ضحكت بغُنج معلِّقة:

- «أليس سوارس» يا حبيبي؟ أليس... ألا تعرف أن الرجال يُديرون الشُّعوب، وبعض النساء يقُدنَ كلَّ الرجال؟ وأليس هانم

يا حبيبي أستاذة الجميع، وتعرف كيف تُدير الدَّفَّة إلى حيثُ تريد «يوسف باشا» يستحقُّ أن يكونَ في أرفع المناصب، ولولا رسالتُه المشؤومة التي كان أرسلها إلى سعد زغلول في عيدهم لما كان طُرد من الوزارة من قبل، الحقيقة أن «يوسف باشا» يقدِّم الكثير لليهود، ويرفعهم إلى المناصب.

قامت معي إلى غرفتي حيث استرخيت، وجلست بالقرب تستمع إليَّ وأنا أمتدح تطوُّر إنشاء النوادي والجمعيات العبرية، فردَّت بسعادة مثنيةً على محاضراتي في النادي العبري، وجمعيَّة أصدقاء الجامعة العبرية، ونوَّهت بالمقالات التي كُتبت عن إتقاني للغات عدة، وثروتي المعلوماتية، وقدرتي على استدعاء التاريخ وتقديمه في ثوب جديد مشوِّق، يثبت المعلومة في العقل، ويحفِّز المستمع إلى البحث، واستكمال النِّقاط التي أتركها لهم مفتوحة.

وأعادت عليَّ مقالةً تكاد تكون حفظتها عن أن العديد من الأدباء المصريين والكتَّاب يتعجَّبون أن مفكرًا مثل إيزاك القمَّاش المصري يملك هذا المقدارَ من الثقافة واللغة والدأب، لا يُصدر كتبًا تكون ذخيرةً للمكتبة المصرية التي هي في أمسِّ الحاجة إلى الفكر الواعي المستنير الذي يؤصِّل لمبادئ القوميَّة من منظور باعث للفخر والدِّراسة. ولم تكتفِ فتنة بهذا، وإنما امتدحت مقالاتي المتعاقبة عن جمعية «بريت عبريت عولاميت» في

فلسطين، من حيثُ فكرتها، والجهود التي تُبذَل في مصر لإنشاء الفصول في الأندية والجمعيَّات لتعليم العبرية، اعتدلتُ لأعلِّقَ على مقالاتي بهذا الخصوص، وأن الوقت قد حان لأن نبثَّ الرُّعبَ في قلوب الإسرائيليين والخوفَ من أن الثقافة العبرية التي اكتسبوها في السنوات الماضية معرَّضة لأخطار شديدة مُحدِقة؛ بسبب تعدُّد اللغات التي يتكلَّم بها اليهود، مع أن العبرية هي لغة الوطن العبريِّ لأنها لغة الدِّين، نعم أنا من خلال مقالاتي أشنُّ حملة تخويف، بل وإفزاع لكلٍّ من آمن بالوطن القوميِّ، ولا تقتصر محاولاتي هذه على الصُّحف الإسرائيلية، وإنما في الصُّحف المصرية أيضًا.

- أنت يا إيزاك تملك قدرةً لا يملكها طه حسين ولا «أحمد لطفي السيِّد»، ولا مشايخ المسلمين على الجمع بين المتناقضات، وتُقنع المتخاصمين بنفس المقال مؤصِّلاً لخصومتهما، ويبقى كلٌّ منهما معتنقًا لأفكارك! مقالاتك في الصُّحف المصرية التي تتكلَّم على العبرية والعربية تملأ عقولَ المحمَّديين، أنا سمعت من إحدى البنات المسلمات أنك تمتدح العربيةَ لغة القرآن، ولغة محمد، ولغة المسلمين في كلِّ مكان، أما مقالتك عن أنهم أبناء عمومتنا فلا يُقال فيها إلا أنها جيشٌ مجنَّد يحوِّل كلَّ فكرة عدائية إلى فكرة حب! ويحك يا حبيبي، كيف تدسُّ السمَّ في العسل بكلِّ هذه البراعة؟

- لأنني أستطيع قراءة التاريخ، أنا قرأت قرآنهم، هم يخافون من التَّوراة، ولا بدَّ أن نوَصِّلَ فيهم هذا الخوف؛ كي لا يفهموا ما نفهم أنا وأنت، والذي يساعدني أيضًا بُعد الكثيرين من اليهود عن تفحُّص التَّوراة، والاكتفاء بما يقوله الحاخامون والحزانيم من عظات، وما يتلونه من نصوص؛ لهذا لن يعترضَ يهوديٌّ على أن ابن الجارية يعترف به يهوديٌّ في الوقت الذي لم تعترف به التَّوراة، أتعلمين؟ أنا لست مقتنعًا بحكاية إسماعيل وإسحاق التي وردت في التَّوراة، فالقرآن حكاها بطريقة مقنعة، لم أملك إلا أن أصدِّقَها، في حين لم أصدِّق ما ورد في التَّوراة؛ لأنَّ القرآن لم يُسِئ إلى أيِّ نبي، في الوقت الذي أساءت فيه التَّوراة إلى كلِّ الأنبياء.

- لا تقل هذا الكلام يا إيزاك.

- هل أنت منهم يا فتنة؟ أنت فاهمة ومقتنعة بما أقول.

- نحن مقتنعون يا إيزاك، لكن لو قلنا هذا لأعلنَّا كفرنا، وعلينا أن نختارَ دينًا غير اليهودية.

- نعم يا فتنة، نعم، ولا بدَّ أن يبقى هذا الدُّستور إلى الأبد، أتعلمين؟ أتمنَّى أن أعودَ طفلاً صافيَ الذِّهن.

قلت لها هذه العبارة وأنا أسترجع أيام طفولتي حين لم أفكِّر في شيء، كما الآن تمامًا، أريد أن يرجعَ بي الزَّمن لأرتاحَ من كلِّ أفكاري التي أفرغتُها في الأوراق، وستبقى في الأوراق؛

لأنَّ صورتها الحقيقيَّة سَرَت في دماء المصريين قبل دماء الإسرائيليين.

استرجعت مع فتنة نشاطات جابوتنسكي في فرنسا، وتكوينه لمنظَّمة صِهيَونيَّة تحت اسم «التصحيحية» أثارت غضبَ الجميع، وعلى رأسهم وايزمان، إنه يُعلن صراحةً وبكلٍّ جرأة رغبته في إنشاء وطن يهوديٍّ يمتدُّ بين النهرين، علَّقت «فتنة» في حزن:

- جابوتنسكي صِهيَونيٌّ نشِط وحقيقي، لولا اندفاعُه وطموحُه الجامح، أنت قابلته وتعرفه يا إيزاك، وكلُّ ما تخشاه المنظَّمة أن يؤثِّرَ نشاطه في سمعتها ويفتح الأعينَ علينا وعلى خططنا، أنا راسلته كثيرًا، لكنه لا يريد أن يقتنع، وعلمت أنه يلتقي بأحد الطلاب اليهود المصريين في باريس اسمه «ألبير ستراسلسكي»، وهو مقتنع جدًّا بأفكاره ومؤمنٌ به، وجابوتنسكي يحبُّه ويضع فيه ثقته، وأخشى من الأيام الآتية وما تحمل لنا في مصرَ إذا عاد هذا الشاب.

- ألا تحبُّ أن تشربَ شيئًا يا إيزاك؟

- كأسين من نبيذ معتَّق، نشربهما معًا في الشُّرفة.

في اليوم التالي كان لقائي بالحاخام الأكبر الذي اعتذر عن غيابه بالأمس؛ لانشغاله بأمور متداخلة، في الحقيقة كنت قد نسيت لماذا أردتُّ أن أقابلَه، وحين سألني عن السبب الذي

أريد عقد اجتماع لأجله، طرأت في عقلي فكرة، وأراها رائعةً في هذا الوقت، لماذا لا نشكِّل هيئةً باسم «سيناجوج»؟ هذه الهيئة تجمع رموزَ اليهود في مصر، ليس على شاكلة المنظَّمة، وإنما هي كِيانٌ فكري، تأمَّلني وأنا أتكلَّم، كان مستغرقًا فيما أقول كعادته، ثم عقَّب سائلاً بدهاء:

- أتريد أن تقيمَ معبدًا أم اجتماعًا يا إيزاك؟

- وهل الكنيس غير اجتماع؟

- أتعلم خطرَ ما تنوي؟

- أيُّ خطر؟ أنا أريد جماعةً منظَّمة تحت اسم مقدَّس يكون لها صلاحيَّات مستمدَّة من صلاحيَّاتك بصفتك كبيرنا جميعًا.

- أدخلت الدِّين في السِّياسة!

- أنت حاخام السَّاسة، ولا ينكر أحدٌ هذا.

- الانتقادات ستُلاحقك؛ لأن العالم يُنادي بفصل الدِّين عن السِّياسة.

- وأيُّ كِيان استطاع أن يفصلَ الدِّين عن السِّياسة؟

- إذا تحقَّق هذا سيكون من حقِّ أصحاب الأديان أن يقوموا بما لا يُرضي الدَّولة بالمرَّة.

- وهذا يحدث بالفعل، وتتصدَّى له الدَّولة.

- نحن أردنا هذا، وسعَينا إليه منذ قرون يا إيزاك، منذ سيطرت الكنيسة على كلِّ شيء، ثم ابتدع الإسلام بتعاليمه، والحكَّام كانوا يحمون الدِّين كما يحمون أصولَ الحكم، يحكمون بما في كتابهم، ولم يكن من سبيل لمناهضة الاتجاهين إلا أن يُفصلَ الدِّين عن السِّياسة، فلا يُحكَم البلد بدين حكَّامه، وإنما بالقانون الذي يصطلح عليه المشرِّعون، لكنَّك الآن تريد إعلانَ جماعة باسم مقدَّس لن يُفهَمَ منه إلا أنه اتجاه ديني، لا تجعلها جماعةً أو مؤسَّسة يا إيزاك، الأصوب يا ولدي أن نؤصِّلَ دور «السيناجوج» في قلوب الإسرائيليين، فترتبط به حياتهم، والنتائج هكذا تكون أسهلَ في التحقق، وأعمَّ في الفائدة.

لمعت عيناه حين شعر أن رأيه انتصر، إنه لا يعلم أنني موقنٌ أن الكنيس ليس للعبادة فقط، وإنما همُّه السِّياسة.

- موافق، وموافق بشدَّة، ويدي بيدك لنضعَ برنامجًا شاملاً لمعابد الإسرائيليين، يؤصِّل دورَ المعبد في تأصيل الصِّهيَونيَّة، والتعصُّب لها ولإسرائيل، المعبد قائم على الشَّريعة، والشَّريعة فيها أرض الميعاد، ووعد الله لبني إسرائيل، لا أريد يهوديًّا بالدِّين، ولا أريد صِهيَونيًّا بالفعل، أريد يهوديًّا يؤمن بأحقيَّته في الحياة، وأنه يجاهد هنا من أجل وطنه هناك، وأنه مستعدٌّ للتخلِّي عن كلِّ المبادئ التي تعلَّمها في حياته في سبيل المبدأ الأعظم، أريد أن تتحوَّلَ المحافل بالكامل إلى معاهدَ تعتمد

على إعادة بناء الشَّخصية اليهودية، حتى تجعلَ الوطن دينَهُم الأوفى، والذي لن تكتملَ أصوله إلا إذا أقيمت «دولة إسرائيل» التي لن تقومَ إلا بأن تكونَ وحدَها القوية بين كلِّ ما حولها. أنت ترى، وكنت هناك تعرف ما يقوم به أتباع عزِّ الدِّين القسَّام من إشعال لنيران الإسلام في أرض إسرائيل، ويعيد على الناس تاريخَ اليهود، وحركته الجهادية يزداد نشاطها، صحيح أنني كنت أعدُّ هذه الحركات الطفولية مفيدةً في إظهار العرب والمسلمين همجًا وأعداءً للحرِّيات، ورافضين فكرةَ الحلول السِّلميَّة مع بريطانيا أيضًا، لكنَّ ما يبلغني عن تأسيس جمعيَّة الشبَّان المسلمين، واختيارهم للقسَّام رئيسًا، وما يعلنونه صراحةً عن نيَّتهم ورفضهم للكِيان اليهودي، وأن الحلول السِّلمية لن تؤدِّيَ أيَّ نتائج- منذرٌ بالخطر برغم مساعي مفتي القدس «أمين الحسيني»، وحتى هذه المساعي مرفوضة، فعقد سبعة مؤتمرات إسلاميَّة متتالية يحرِّك العواطف، ويعيد إلى العرب نزعةَ الجهاد التي نحاربها، والتي يجب أن تُحارَبَ في الصُّحف، والكتب، بل على منابر المساجد.

كنت أشعر أنني أُملي على ناحوم بيانًا عسكريًّا، وكان مُستجيبًا لي، يستمع بكلِّ جوارحه، وحين لم يستوقفني أو يعلِّق، أكملتُ بأن الجمعيَّات الإسرائيلية في مصرَ لا بدَّ أن تعقدَ النَّدوات والمحاضرات العامَّة، ويُدعى إليها المثقَّفون

والمتعلِّمون من فئات المصريين كافَّةً، على تباين اتجاهاتهم، ونتكلَّم معهم بلغة العلم والتحليل والنقد، نفنِّد معهم فكرةَ القتال، ونُشيد بأن قتالهم في الماضي كان سائغًا، وكانوا يحاربون في غير بلادهم، وأن «صلاح الدِّين» كان بطلاً حفظ فلسطين للأديان كلِّها، ومن قبله «عمر بن الخطَّاب» الذي ضرب المثلَ في المصالحة الدينية والعدالة، فلماذا الآن يقاتلُ المسلم أخاه اليهوديَّ في بلد واحد؟ بهذه اللغة يمكننا أن نحميَ إسرائيل.

- صدق وايزمان حين قال: إن القمَّاش هو صوت إسرائيل وقلبها، أنت معروفٌ بين الكبار يا إيزاك، وأنت مفضَّل عندي، ولولا ذلك ما أتيت، فمثلي يأتي إليه من يريدونه، ولا يذهب هو إليهم.

شعرت أنه يوجِّه إليَّ تنبيهًا، فليوجِّه، شهد قبلها أنني المفضَّل عند من هم أكبرُ منه، فما هو إلا صنعة الجالسين على العروش بدهائه، ولؤمه، ومجاراته لمصالح غيره، أيوجِّهُني أنا وهو الذي طمع في المناصب في تركيا فطردوه إلى مصر؟ أيعتقد أنني لا أعرفُ من تاريخه إلا الذي حكاه لي؟ فليفعل ما يفعل.

- ما بك يا إيزاك تنفعل؟

- هو الذي يثيرني.

- هو حيَّة فانتبه.

- أنا إسرائيل، وأنا حلُم الكبار الذين يريدون إسرائيل، وكلُّنا نبنيها على الأسس والأصول، لا بهذا الذي ينبِّهني، وهو يتمرَّغ في تراب أصحاب المناصب.

- ربما الغَيرة يا إيزاك.

- إن كانت فلا بدَّ أن تُقتلَ في مهدها، أنا متيقِّن أنه يُدرك أن مصالحه في المستقبل ستكون معي.

- انتبه، فالصِّهيَونيَّة مهما كانت - وأنت تعرف - لن تنفصلَ عن اليهودية المعجونة في نفس اليهوديِّ، وهذا ما تُنادي به، وهو الآن الحاخامُ الأكبر، فأنت تحتاج إليه.

- قل لي يا سيِّدي، كيف تسير الأمور مع الملك؟ وماذا ينتظر بخصوص الإنكليز؟

- علاقتي بالملك محدودة يا عزيزي، أنا لا أتحدَّث معه إلا فيما يخصُّ الطائفة، وهو يحبُّ اللطائف، وأنت تعرف أن في حكاياتنا لطائفَ لا تنتهي، هناك أمرٌ أريد أن أناقشَهُ معك يا إيزاك، وعلى درجة عالية من الأهميَّة.

- تفضَّل.

- التمصير، نريد حملةً لدعوة اليهود الذين يحملون جنسيَّات لدول أخرى أن يحصلوا على الجنسيَّة المصرية في أسرع وقت، وهذا في صالح الجميع للحفاظ على الملكيَّات والوظائف،

وأنت طبعًا خيرُ من يدعو إلى هذا، وسأشاركك أنا وألبرت وكاسترو.

- أردتُ أن أسألَ جنابك عن مشروع المستشفى.

- بشَّرني قطاوي باشا بأنه حصل على تبرُّع قيمته مئة ألف جنيه من «الدمرداش باشا»، وسنبدأ العمل.

قضيت هذه المدَّة أتنقَّل ببين شقَّتي وبيت الخيَّاميَّة والمكتب، أتابع الأخبار، وتأتيني أخبار «مؤتمر زيورخ» الذي كان مشتعلاً كأيام (أغسطس) وقد انتهى في الحادي عشر منه، كنت سعيدًا؛ لأن المؤتمر يطالب بريطانيا بقوَّة أن تسحبَ كتابها الذي يعترف بحقوق المحمَّديين في الأماكن المقدَّسة، أيُّ أماكنَ مقدَّسة لهؤلاء يريدونها؟! وأجمل من هذا ضغط المؤتمر لتُفتحَ فلسطين أمام يهود العالم دونَ قيد أو شرط، لقد بدأت رؤاي تتحقَّق، وما رتَّبته مع يهوديت يُظهر أنيابه، لكن يبدو أن حواراتي القديمة مع كاسترو وموصيري بلغت المؤتمرين، فشدَّدوا على حقِّ اليهود في الحائط الغربيِّ.

دخلت عليَّ فتنة منتشيةً تتهادى، في حين كنت منهمكًا في القراءة، اقتربت منِّي حتى حكَّت جسدها بكتفي قائلة:

- ألا تريد أن تعرفَ أخبارًا سعيدة؟

كانت ابتسامتها تملأ وجهها، وجسدُها يفوح سحرًا، نظرت في وجهها أتفرَّس، أمعنت أكثر، سألتها:

- أهي الوكالة؟

احتوتني بذراعيها تقطع كلامها قائلة:

- انعقد... الاجتماع... الأول... يا حبيبي... قبل يومين... يعني... في ١٤ (أغسطس).

عانقتها بشدَّة، وددتُّ أن أصيح، أن أصرخ: أخيرًا، بعد كلِّ هذه السنين يُعقَد اجتماع رسميٌّ للوكالة، منذ المؤتمر الأول ١٨٩٧ يا فتنة والفكرة مقدَّمة، بل الوكالة موجودة، موجودة، لكن بأفكار غير التي يجب أن تكون، تمارس أعمالها، تنشط، يقرُّها صكُّ الانتداب...

- وخذ المفاجأة يا حلُم إسرائيل: الوكالة تتكوَّن من كلِّ اليهود، أحلامك يا إيزاك، يهود بلا حدود، وبلا فواصل، وطن متكامل يجمع كلَّ يهود الأرض، ينمو كشجرة واحدة تُثمر كلَّ أصناف الفواكه، أليس هذا كلامك يا حلم إسرائيل القادم؟!

- سأضيف إلى قائمة أيامي الأثيرة: ١٤ (أغسطس) ١٩٢٩.

دخل عليَّ الطنطاوي بك مسرورًا، كنت أكتب بعضَ الخواطر

التي سأنشُرها في جريدة «إسرائيل»، متحدِّثًا فيها عن مشاعر يهوديٍّ ينبت في أرض أورشليم في يوم كان الربيع يُداعب الأزهار، ويغنّي لها أناشيد النَّماء، وبينما يبزُغ رأسه من الأرض احتكَّ بياسمينة، فمنحته من عطرها ما ينتشر في الأرض من أنفاسه، ونفخت فيه الشمسُ من حرارتها ما جعله الأقوى، فلم يقتنع بطوله الطبيعيِّ، وإنما استطال حتى وصل إلى الشمس فقبَّلها قُبلةً حارَّة، ردَّت عليه قائلةً: ليس هنا مكانُ رأسك، إنما مكانه في الأعلى...

توقَّفت عن الكتابة لأسمعَ الخبر الذي يلقيه عليَّ الطنطاوي، لقد حصل على رتبة «باشا»، وينوي أن يحتفلَ بهذه المناسبة، هو يريد احتفالاً مصغَّرًا لا يدعو إليه الكثيرين، وأول المدعوِّين أنا وفتنة، وسارة وديفيد، اختصر كلامه قائلاً:

- ادعُ المقرَّبين يا إيزاك نيابةً عنّي، وأنا ذاهبٌ إلى (العزبة) في طنطا؛ لعلّي أستطيع أن أقنعَ طيبة بالعودة إلى القاهرة.

ألقى على مسمعي ما أراد وغادر مكتبي.

عدتُ إلى إكمال خواطري، استغرقت فيها، أو استغرقت فيَّ، أو استغرقتنا معًا الأحلامُ التي نبثُّها في نفوس الإسرائيليين ليعيشوا بها في الحلُم الذي يجب أن يكونَ حقيقة الحقائق.

أنهيت كتاباتي، شعرت بالجوع، فقرَّرت أن أسرعَ إلى بيت الخيَّاميَّة، وفي نفس الوقت أُخبر فتنة بالحفل الذي يريد الباشا

إقامته.

بينما كنت في المكتبة وصلت فتنة، الانزعاج بادٍ عليها، تكلِّمني على غير العادة، حاولت أن أتحاشى هذا الشُّعور، لكنَّني لم أستطع.

- ما بك اليوم؟ هناك ما يُزعجك؟

- لا عليك، لا تهتم.

- بل أخبريني.

- ولماذا لم تخبرني أنت؟

- بمَ؟

- لماذا لم تخبرني أنك كنت ترتِّب مع يهوديت لعمليَّات في القدس؟

وقفت مبهوتًا، لا أعرف بمَ وكيف أجيب، وهي كالقطَّة المتربِّصة بفأر حاصرته بنظراتها، فبقي معلَّقًا في السَّقف لا يقوى على الحركة، إنها واقفة تنتظر نفادَ صبره ليقعَ بين يديها، تُرى ما الذي في جَعْبتها؟ ومن أخبرها؟

- ماذا حدث؟

- تسأل عمَّ حدث أيها الزعيم؟ تسألني أنا أم تتذكَّر ليلتك مع تلك العاهرة؟ كنت تستشيرها؟ أشارت عليك يا إيزاك؟ وأين أنا؟ أين التي لا تخطو دون أن تأخذَ رأيها؟ أم تراني شِخت،

وتلك فيها بقيَّة، فاستحسنتَ أخذ رأيها؟

الآن فهمت، إنها الغَيرة دبَّت في قلب فتنة، ولولا ذلك ما تكلَّمت بهذا الأسلوب، ويحَ هذا الوسط الذي أحيا فيه! كلُّهم يتجسَّسون على كلِّهم، لقد اعتقدتُّ أن تلك الليلة دُفنت في مقابر الزمن.

- اهدئي.

- أهدأ؟ كيف أهدأ والأخبار تأتيني مع التوبيخ؟ أترضى لي التوبيخَ يا إيزاك؟ أترضى أن يُقال لي: أنتِ لم تعودي تصلحين للعمل؟ أنا يا إيزاك؟ أنا!

لم تكمل الكلمةَ الأخيرة حتى أسقطت ثيابها، وقفزت على السَّرير تقف نفس الوقفة التي وقفتها يهوديت تلك الليلة، ما أقبحَ النساء!

- وقفت لك هكذا، صح؟ أتريد أن أعيدَ عليك كلَّ كلمة قالتها لك أيها الصبيُّ الفاقد عقله؟ أنت مغرور بذكائك، ولا تهتمُّ إلا بما مقدِّماته في عقلك، ولو أنك تفهم لعلمت أن يهوديت وأبا يهوديت، ومن في بيت يهوديت ما هم إلا عرائسُ في يدي، أنا من أُدير كلَّ هؤلاء (كالتروس) في ساعة الحائط التي أمامك هذه، ولأول مرَّة يخفى عليَّ شيء!

نزلت مقتربة حتى ضمَّتني برقَّة الأفاعي، وفحيحُها في أذني

كالجحيم المتَّقد.

- يبدو أن توقُّعاتي في محلِّها، فيهوديت القطَّة اللطيفة التي درَّبتها وعلَّمتها وقعت في غرامك يا حبيبي، لكن كيف تحبُّك هذه العاهرة على عين أبيها والخنزير زوجها؟ كنت ذكيًّا يا إيزاك حين ألحَحتَ أنه مخنَّث، أنت الرجل الوحيد يا إيزاكي، ألم تُنادك هكذا؟

انتفضت بكلٍّ عنف كأنها صخرةٌ تنحدر من الجبل، وأنا شاخصٌ في مكاني لا أعرف كيف أتَّقي انحطاطها عليَّ.

- أنت إيزاكي أنا وحدي، أنت ملكي أنا وحدي، وأنا أملك أعناقَ كلِّ هؤلاء، ولو أردتُّ علَّقتُهم كلَّهم على المشانق، أتفهم؟

- اهدئي.

- لن أهدأ.

كنت أحاول تهدئتها وصورةُ لقائي بيهوديت في (فيلتها) الخاصَّة يدور أمام عينيَّ كأنه يحدث الآن.

- لماذا لا نبدأ التحرُّك الفعليَّ داخل القدس؟

- ماذا تقصد؟ وإلامَ ترمي؟

- أقصد أن المشكلات التي لا يمكن اتخاذُ قرار حاسم فيها تكون مفيدةً لفتح ثُغرَة تبقى، وما علينا إلا أن نوسِّعَ الثُّغرَة فيما

بعد.

- يبدو أن في هذا الرأس فكرة، يا لك من ساحر يا إيزاك.

- الإنشاد الدِّيني، المسلمون تستهويهم الأناشيد ولا سيَّما الدِّينية، والهُتافات ولا سيَّما الوطنية، والاستنهاضات ولا سيَّما ما كانت لغرض مقدَّس، ألم تسمعي بقصَّة معتصمهم الذي بلغه استنجاد امرأة في عَمُّورية به، فأرسل الجيوشَ الجرَّارة انتصارًا لها من الرُّوم؟

- لا، دعني من تاريخهم وأساطيرهم.

- لا تقولي أساطير، ولا تسخري؛ فبهذه الرِّوايات يمكن أن يُستحَثَّ رضيع فيقومَ حاملاً سلاحه، ولو أنني أملك لفتحتُ لهم ألفَ باب من الرِّوايات يتعاركون حول صحَّتها أو كذبها، فبهذا نسود نحن.

- هل تقصد حكايات حول نبيِّهم؟

- لو فتحنا هذا البابَ الآن لاستفزَّ كلَّ العرب، ولنسُوا أفكار القومية الخاصَّة، وعادوا إلى الجهاد الدِّيني، لا بدَّ أن نُعنى بموضوع واحد ما دمنا لا نريد غيرَ هزَّة في مكان واحد.

- القدس، صح؟ هل هو الهدم؟

- لم أعتد انغلاقَ عقلك بهذه الدَّرجة!

- وهل تركت لي عقلاً؟ هات وإلا افترستك.

- مستعدَّة؟

- هاااات.

- كلُّ ما هنالك أن تجتمعَ الجماعة عند الحائط يهتفون بإسرائيل، ويرفعون العلَمَ منشدين: «هتكفاه».

انتصبت، سقطت المُلاءة التي تسترها.

- هذا ما نريده، أن نعرِّيَ كلَّ شيء ليأتيَ من يسترون ما تعرَّى.

- مقتنعة بالفكرة؟

- مقتنعة تمامًا ويجب التنفيذ.

- بعض الأمور من الأفضل أن تبقى سرِّية؛ لأنها خطرة، والاجتماعات تعني عرضَ آراء، والآراء تعني موافق، ومعارض.. اسمعيني، كلُّ ما في الأمر هو أن ترسلي إلى «عزرا بن كوهين» تطلبين إليه أن يبثَّ في القرائين المقرَّبين منه فكرةَ أن يخرجوا لقراءة التَّوراة عند الحائط، حتى إذا اندمجوا رفع صوته بالهُتاف لإسرائيل وربِّ إسرائيل، فيخرج لهم القراؤون من كلِّ مكان، فإذا بلغوا المئة نادَوا: لنا الأرض ولنا الهيكل والمذبح، يا كلَّ إسرائيلي، حينها سيغار الربَّانيُّون من القرائين، فيخرجون معهم، فيُرفَع علم إسرائيل، ويرفع ابنُ كوهين صوته بـ«هتكفاه»، حينها سينسى كلُّ إسرائيليٍّ كلَّ شيء إلا أنه إسرائيلي.

- أيها الشَّيطان الرائع! تُذيع بين الناس الهدوء، وأنت في قرارة نفسك موقنٌ أنْ لا وطنَ بغير دماء، ولا ثمرَ دون غصون تموت.

كنت أستحضر تلك الليلة بكلِّ ما فيها من عقل وجنون كأنني فيها، كأنني بنشوتي وتفجُّري والغَواية... نفضت يهوديت عن عيني وليلتها وفراشها ومُلاءتها واحتويت فتنة بكلِّ ما أوتيتُ من قوَّة، أريد أن أعصرَها، أن أحطِّمَ عظامها، بكت كالطِّفل الصغير الذي فقد أغلى ممتلكاته، لانت حتى صارت كالعجينة الطريَّة، السنون لم تؤثِّر في نضارة فتنة إلا ببعض تجاعيدَ تزول حين تتقد عواطفها، بهمس شديد في أذني:

- تفجَّرت النيران في حائط المبكى يا إيزاك.

لا أعرف، أأبتسم أم أقفز، أم أثور، أم أسأل عن الأخبار، ماذا أفعل؟ بل أعرفُ ما أفعل، أعرفُ جيِّدًا.

هدأت فتنة قليلاً، تركتُها متوجِّهًا إلى المطبخ، حملت لها القهوة، استقبلتني بابتسامة كلُّها انكسار:

- يا إيزاك، يا حبيبي، أنت لا تخفي عنِّي شيئًا، وأنا أُطلعك على كلِّ جديد، ومن الصعب عليَّ بعد كلِّ هذه التطوُّرات التي حدثت في القدس والخليل أن أجدَ من يخبرُني بأن إيزاك كان يرتِّب مع يهوديت! المنظَّمة تُدرك من إيزاك، وتدَّخره لما هو أكبر وأعظم، ولكلِّ حدث أهله يا إيزاكي أنا، وكلُّنا نريدك بعيدًا

عن أيِّ أحداث تجعل منك دمويًّا، صحيح أنك رتَّبت مع يهوديت ما نفَّذه عزرا بن كوهين، لكنَّنا أيضًا رتَّبنا لنشر الصُّوَر والخريطة الجديدة التي وُزِّعت في القدس، وبها المناطق اليهودية التي يجب استعادتها والسَّيطرة عليها، نحن نعمل هنا في مصر، وكلُّنا نتفق معك، لكن أيضًا في أوربا وفي فلسطين من يعملون، وهم الذين حدَّدوا مكان الهيكل الذي يشمل مساحةَ مسجدهم، وما يدَّعون أنه المكان الذي ربط فيه محمَّد البُراق، والخليل ومكان مقابر أجدادنا فيها، وصفد.

- صدِّقيني يا فتنة، أنا...

- لا تكمل يا حبيبي، أنا قلت: إنك تملك ما تسود به على الدُّنيا بأسرها، وعلى النساء خصوصًا، لكنَّ يهوديت تنفِّذ ما يُملى عليها، وأرادت أن يكونَ لها دور كبير عن طريقك، نحن نستخدمها وأباها في أمور أخرى أنت أكبرُ من أن تكونَ ضالعًا فيها، ولكلٍّ بطل مكانه الذي يكون فيه، صحيح أن مظاهرات اليهود يومي ١٤ و١٥ (سبتمبر) نُفِّذت كما كنتَ تريد، لكنَّ هناك ما هو أكبر من تلك الترتيبات، منها تعليق السِّتار على الحائط في (سبتمبر) من العام الماضي في الغفران، هل تذكر أنك ليلتها ألمحت إلى أن هذا مدخلٌ لتأكيد الحقِّ اليهوديِّ في الحائط، وأنه تجرِبة واقعيَّة لاختبار ردود فعل العرب والإنكليز معًا؟

- نعم أذكر، وأذكر ذلك الضعيفَ المتراخيَ «كيث روش»

الحاكم البريطاني في فلسطين الذي أصدر الأوامر بنزع السِّتار عن الحائط، ومنحَ العرب الفرصةَ لأن يكونَ لهم كلمة.

- ولا تنسَ يا حبيبي نصبَ الكراسيِّ في باحة الحائط، ووضعَ لفائف «الاسترحامات» في الشُّقوق، لكسر حاجز بقاء ما قبل وعد بلفور على ما هو عليه، أنتَ إسرائيل الحلُم يا «إيزاكي»، ويجب أن تكونَ ترتيباتك مع من هم في مستواك، لا مع من هم دونك، سواء من الرِّجال أو النساء.

- أعرف يا فتنة، أعرف، وأعرف أنك تستوعبين كلَّ شيء، وتتحمَّلينني وتُثبتين مكانتي، أنت التي قمت على خدمتي وتوجيهي، ولم تفكِّري في نفسك، بل مثلي تفكِّرين أبدًا في إسرائيل.

(٢٦)

دعانا الحاخام إلى بوَّابة السَّماء، الجمع هناك غفير، الشخصيَّات اليهودية البارزة مجتمعة، الأمر جَلَل، وقف فينا حاييم خطيبًا ذاكرًا أن ما رتَّبَ له السيِّدُ القمَّاش قد بدأ في هدوء شديد كما أراد، فمنذ الخامس عشر من (أغسطس) انفجرت المظاهرات، يتبادل الفريقان من الإسرائيليين والعرب الليالي هُتافًا وحديثًا عن الحقِّ في الحائط الغربي، إلا أن الحادث الذي وقع في «البخارية»؛ حيث قتل عربيٌّ شابًّا يهوديًّا بالأمس- يؤزِّم الأمور، ولا نعرف إلى أيِّ مدًى ستصل هذه الاشتباكات، غير أنها ستكون مؤشِّرًا نعرف به مستوى تنظيم العرب في إسرائيل، وما يمتلكونه من أسلحة، ومن سيقود انتفاضتهم، وأيَّ شعار سيرفعون، أهو العروبة أم الإسلام أم القومية.

قام ليون كاسترو بعد حاييم للكلام موضحًا أن هذه التجرِبةَ تختلف عمَّا سبق من تجارِب الاحتكاك، وليست اختبارًا للعرب

أو الإسرائيليين فحسب، ولكنَّها أيضًا اختبار لإنكلترا التي حتى الآن تساعد اليهود، لكن؛ أيها السَّادة، إن الاختبار الحقيقيَّ هو لنا نحن، ولمخطَّطنا وقدراتنا هنا في مصر، هو اختبارٌ لواقع الشَّعب المصريِّ كلِّه أيضًا، وهذا يتطلَّب منَّا أن ننفِّذَ البرامج الدِّعائية بأسلوب متطوِّر؛ لنرى إن كنَّا نملك القرار فعلاً، أم أنها أوهامٌ نعيشها، كان ينظر في وجه «جوزيف سيكوريل» والحاخام، متسائلاً عن دور كبار الطائفة ممَّن يملكون القدرةَ على التأثير في القرار السِّياسي، وأصحاب الأموال الذين يجب عليهم دعمُ الإسرائيليين في هذا الموقف الصَّعب.

انتهى الاجتماع، وأكثر ما لفت انتباهي فيه أن أحدًا لم يدعُني للكلام، وكان كلام حاييم ناحوم هو نفس كلامي الذي قلتُه حين عرضت عليه الموضوع، وكان حينئذ متردِّدًا، وأشار بأنه سيعرضه على الكبار، لم أهتمَّ كثيرًا بالموقف منِّي، إنما اهتممت جدًّا بما سنكتب، وكيف نتعرَّض للموضوع بناءً على ما ستتناوله الصُّحف المصرية، والثابت لديَّ الآن أنني لم أكن وحدي الذي أفكِّر في هذا الموضوع، وإحداث حالة من القلق في أورشليم، فقد كان التخطيط في أكثر من اتجاه، أيضًا لا يهمُّني هذا، المهمُّ أن الذي تحقَّق هو في صالح إسرائيل، وليس المهم من فعل، المهمُّ حقًّا الفعل نفسه.

هل هو في صالح إسرائيل، أم في صالحي أنا؟ هل أسعى لإسرائيلَ حقيقةً أم أسعى لمجدي أنا، وللتخلُّص من العُقدة الراسخة التي لم يصنعها موقف، أو مصري؟ بتُّ أبحث عن نفسي في نفسي وقد صارت تنظر لكلِّ صغيرة وكبيرة على أنها تخصُّني وتتصل بي، هل لا أهتمُّ بكلِّ ما قلت: إنني لا أهتمُّ به أو له، أم صرت ناقمًا على كلِّ شيء، وما إسرائيلُ إلا ذريعة أنتقم بها من عالمي الذي نشأت فيه هملاً لا قيمة له؟ أنا يهوديٌّ لأن أبي وأمي يهوديان، نشأت في جُحر، سارة تقول: إنني كنت أتعلَّم دون أن أشعر، والكهَنة حين يلقَونني يقولون: إنك تلقَّيت المعبد كلَّه في قلبك، والقليل الذي كنت تستمعه ربَّاه الربُّ فيك لأنك تحمل الحقيقةَ في قلبك، وإسرائيل الوطن يسكنك، فأنت به ولأجلك هو... مرَّة أخرى أعيد على نفسي أن الوطن فكرةٌ نبدعها، والوطن نبنيه ليسكننا... الآن بدأت الدِّماء تسيل في أورشليم، ودماء أخرى تسيل في مصر، وطاقات تُهدَر على أقدامنا سيندم كلُّ مصريٍّ حفيدًا بعد حفيد لأن الأجداد اقترفوا ما سيَّلوا به العقول على أقدام تعرف كيف تدعسُ كلَّ ما يتعارض مع رغباتها وفي هدوء وتُؤَدة... اليهود يرَونني كما يريدون لا كما أنا، إنها طبيعتهم، إنهم يبدعون في كلِّ شيء ولا شيء غير استغلال كلِّ ما يعنُّ لهم، إنهم يروِّجون للوَضاعة والخلاعة والتهويم، كيف يوازنون بين كلِّ هذا؟ بل كيف أوازن أنا بين كلِّ شيء لو لم تكن هذه طبيعة، طبيعة لم

تُخلَق فيَّ وإنما صنعها محيطي ورغباتي؟ لن أقولَ كما يقول المسلمون: هذه هي المشيئة والقدَر، لأن القدَر لا يمكن أن يكونَ راضيًا لهم هذا التشتُّتَ وهذا الضَّياع والانصياع... أنا ابن هذه الأرض، بيدَ أنني ابن الدلالة والقمَّاش الذي كان خانعًا، ضعيفًا، عليلاً، أتحاشى اللعبَ مع الصِّبية لضعفي وثيابي الرثَّة، صحيح أنني كنت أسبقهم في إدراك الأشياء لكنَّني بيني وبين نفسي كرهتُهم في صمت منذ جرَّتني قدماي وراءهم إلى كتَّاب الشيخ «محبوب» الذي لم ينتبه لوجودي في بادئ الأمر... ردَّدتُّ مع الصِّبيان... حفظت أسرعَ منهم... لقراءة قرآنهم نغَمٌ يهزُّ الجَوَّانيَّة والبَرَّانيَّة من الإنسان، إنه نُقش في صدري دون أن أقصد... حين أراد الشيخ «محبوب» أن يكرِّرَ عليه الصِّبية ما حفظوا كانوا يتلعثمون، وحين بلغني الدَّور أعدتُّ عليه: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ ۝١ مَلِكِ ٱلنَّاسِ ۝٢ إِلَـٰهِ ٱلنَّاسِ ۝٣ مِن شَرِّ ٱلْوَسْوَاسِ ٱلْخَنَّاسِ ۝٤ ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝٥ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ ۝٦﴾، هذا كلامٌ من قرآنهم له نغَمٌ أحببته... أعدتُّه تمامًا كما كان يقرأ الشيخ، تهلَّل وجهه وهو يقول: الله الله، ابن من أنت يا ولد؟ ولماذا لم تخبرني حين أتيت؟ هذه المرَّة الأولى لك هنا؟ وقفت متردِّدًا وقلت له: أنا إيزاك بن يعقوب القمَّاش. لم يكد الرجلُ يسمع اسمي حتى قام منتفضًا، شاتمًا، طاردًا: (اطلع برًّا يا يهودي يا نجس يا ابن الكلب) فررت تاركًا ورائي مصر كلَّها وأنا أسمعه

يسبُّ ويلعن ويرشُّ الماء في المكان الذي كنت أجلس فيه وفي مكان خطوي، ناهرًا كلَّ الصِّبية لأنهم سمحوا لي بالدخول، فكذبوا جميعًا أمام العصا المشهَرة في وجوههم... منذ ذلك اليوم والشيخ مكروهٌ عندي هو وأمثاله... ماذا لو كان عاملني كما عاملني عماد وأهله؟! ماذا كان سيحدُث؟ كانت تجرِبةً واحدة ولو أردتُ إصلاحها لحاولت، لكن يبدو أننا هكذا وسنبقى هكذا نستبقي ما نريد ونرمي ما نريد... بل أنا هكذا، أنا هكذا: إيزاك... إيزاك الذي بموت أبيه خرج من أسماله مبعوثًا بعثه الخالد.

يجب ألا أبقى هكذا، لا يمكن أن تؤثِّرَ فيَّ خيالات الدِّماء فالإنسان الباقي هو اليهودي، هو الصِّهيَوني، هو الإسرائيلي، هو الذي أصنعه أنا ومن يخلفُني ليس لإسرائيل فقط، وإنما لمصرَ التي يجب ألا تحيا أو تموت.

استمرَّت الاشتباكات أسبوعين، ليس في القدس فقط، وإنما في فلسطينَ كلِّها، لكنَّ التجرِبة الحقيقية والاشتباكات نَشِبَت يوم الثالث والعشرين، ويبدو أن في إسرائيل مهَرةً في ترويج الشائعات التي على إثرها انتفضَ العرب، وفي المقابل هجم اليهود عليهم في «حيفا» و«يافا» و«الخليل» و«صفد».

دخلت عليَّ فتنة المكتبةَ تصرخ في وجهي، قائلة:

- هل أنتم سعداء بما يحدث؟ مذبحة لليهود في الخليل يا

سادةَ السِّياسة والتخطيط! كيف تراجعتَ عن توجُّهاتك يا إيزاك؟ كيف كنت تقول: إن اليهود في إسرائيل ليسوا مؤهَّلين بعدُ للصِّدام مع العرب، ووافقتَ على ما يحدث؟ أنا أيضًا غبيَّة حين لُذْت بالصَّمت أمام تحرُّك اليهود ومناوشة العرب.

أُسقط في يدي وأنا أسمع هذا الكلامَ منها، لقد رأيت كلَّ الأحلام تنهار أمامي، هل بعد كلِّ هذه الجهود، وتطويع كلِّ الظروف، وتطويع الإنكليز أنفسهم يمكن للعرب أن يتَّحدوا ويهزموا اليهود؟ والأسلحة الإنكليزية! لم أُظهر ارتباكي، وتمالكت نفسي سائلاً فتنة:

- ألم نُشع أن المظاهرات اليهودية ناتجةٌ عن استفزاز العرب لليهود؟ وأن العرب أشاعوا أن اليهود ينوون الهجومَ على قبَّة الصخرة، والحقيقة أن اليهود لا ينوون هذا أبدًا، وأنهم يريدون فقط حقَّهم وأن يتعايشَ معهم العرب دون مشاحنات؟

- حدث هذا، حدث يا إيزاك، والنتيجة لا شيء!

- فلنتعقَّل يا فتنة، نتعقَّل لنستطيعَ احتواء المواقف، وفي كلِّ الأحوال هي تجرِبة وامتحان عمليٌّ للإسرائيليين على أرض الواقع.

استمرَّت هذه الأحداث التي لم تنسجم مع ما كنت أريد يوم التاسع والعشرين من الشهر، خلَّفت مئات القتلى من اليهود، لقد تجاوز عددُ القتلى والجرحى الألف، الحزن سيطر علينا

جميعًا، لكنَّنا في نفس الوقت اعتبرناها مرحلةً انتهت هناك، لتبدأَ مراحلُ جديدة، تحتاج أن نعيدَ النظر في الترتيبات، وأن نستعملَ لغة قادرة على قلب الموازين، فلم تكفَّ أقلامنا عن الكتابة في الصُّحف في مصرَ كلِّها، إننا لا نتحدَّث عن مسلم يحارب كافرًا، وإنما عن شعب واحد حدثت بين أهله فتنة، كانت هذه افتتاحيَّة المقالة التي نشرتها في «المقتطف»، وممَّا ذكرتُ فيها: «إن مصر بخير؛ لأن طوائفها تعيش في سلام، يحترم كلُّ فرد فيها حُرمةَ الآخر، وأن المعبد بين المسجد والكنيسة، فلماذا لا يكون لليهود حقٌّ كالمسلمين في الحائط الغربي، وأن يعيشوا معهم في سلام ما داموا لا يؤذونهم في شيء؟ ألم يتحالف الرسولُ محمد مع اليهود، وناصروه ضدَّ أهل مكة يوم الخندق؟ أليس هؤلاء يهودًا، وأولئك هم أهلُ الرسول محمد؟! وعلى الرغم من هذا كان اليهود يصنعون له السُّيوف والدُّروع، ولم يشاركوا في الحرب ضدَّه.

ألم يقف يهود مصر مع المسلمين والمسيحيِّين وقفة المحبِّ طَوالَ هذا الزَّمن؟ أليس يهود مصر هم زعماء الاقتصاد والتطوير في مصر؟ بل في العالم كلِّه؟ إننا في مصر نعيش في أمان؛ لأن حكومات مصر تقدِّر الأديان، وتقدِّر وضعَ الطوائف فيها؛ لذلك نناشد الحكومةَ المصرية أن تتدخَّل بحكمتها لتهدئة الأوضاع في فلسطين التي هي من حقِّ أهل الأديان جميعًا بلا أيِّ تفضيل

لإسرائيليٍّ على عربيٍّ، ولا عربيٍّ على إسرائيليٍّ؛ فالأرض أرضنا، ولا بدَّ أن نبذُلَ لأجلها كلَّ الجهد، وأن تشغلَ تفكيرنا كي لا تتدهورَ الأوضاع هناك، فيؤثِّر هذا في مصر».

توالت مقالاتي في الصُّحف المصرية، ومقالات ليون كاسترو، وكتب حاييم ناحوم عددًا من المقالات عن التسامح في العبادة، والحقِّ المشروع لأقلِّية لا تُذكَر بين بحر من المسلمين لو ثار لأغرق الأرض كلَّها.

لقد عشنا استعراضًا كلاميًّا بلغ به المستوى إلى استعمال كلِّ فنون البلاغة التي يعرفها العرب، حتى رأينا ردودَ الأفعال على جميع المستويات، صحيح أن العيون فاضت بالشَّفقَة، وصحيح أننا كنَّا نكتم اللومَ والعتاب في صدورنا، حتى إن الطنطاوي بك لم يعُد يبتسم في وجهي، وأخي عزرا مُنهمك في تهريب الأموال، ومنها ما أعطيتُه ليُرسلَه لإغاثة الإسرائيليين، لكن ما أردناه هو أن يثبتَ لنا الحقُّ بأننا أصحابُ أرض كالمسلمين الذين يريدون طردنا، ويُعدُّونِ العدَّة لهذا، ويكوِّنون (الميليشيات).

استمرَّت المباحثات والمشاورات بشأن الحائط، وهذا لم يمنع من المُضيِّ في الأنشطة الأخرى، لقد اهتممنا بالبحث في اللغة العربية، فهو الطريق إلى قلوب العرب وعقولهم، ومن المدهش أن يتواكبَ هذا مع أصوات تُرفَع لتمصير اللغة لتكونَ

أقرب للفهم؛ لأنَّ لغة الكتب معقَّدة ومتعبة للدَّارسين، وفيها تراكيبُ لم يعُد لها فائدة! في مقالاتنا كنَّا ننادي بالاستجابة لآراء المستنيرين المطالبة بالتدخُّل في نظام الأزهر التعليميِّ، ونظام المدارس، فالمتعلِّمون يعانون... أما في المسرح والسِّنما فالأمر كان لطيفًا جدًّا حين تُعرَض شخصيَّة شيخ المسجد، وشخصيَّة معلِّم اللغة العربية الذي صار الناس يتندَّرون به لمجرَّد أنهم عرفوا أنه يعلِّم اللغة العربية! كان لا بدَّ من أن تسيرَ الأمور هنا في مصرَ على ما هي عليه، ويجب ألا ننشغلَ بما حدث في فلسطين، فهذا مَيدان وذاك مَيدان آخر، وهما يلتقيان في تأسيس إسرائيل...

بدأت بذوري تُثمر في المجتمع، وبدأ التهكُّم يأخذ شكلاً فعليًّا على لغة المعلِّم المصري وهيئته، في مقابل صورة المعلِّم الإسرائيليِّ الأنيق الوسيم، والشابِّ اليهوديِّ الذي يختار ثيابه من أرقى المحالِّ، وفساتين الآنسات اليهوديات الأنيقة التي تُساير أحدث الطُّرُز العالميَّة، كلُّ صحف الإسرائيليين في مصر اهتمَّت بشأن أحداث الحائط الغربي، واللغة التي نمتدح اليهودَ الذين يتكلَّمونها، والأساتذةَ من المسلمين الذين يسعَون لتيسيرها؛ ليفهمَها المسلم وغير المسلم؛ لأنها لغة مصر، ولغة عامَّة الشعب.

في التاسع عشر من (يونيو) عام ١٩٣٠ وصلت «لجنة شو» التي شُكِّلت بقرار من عُصبة الأمم للفصل في مشكلة الحائط الغربيِّ، كانت الشُّهور السابقة على وصول اللجنة تشهد نشاطًا للمنظَّمة في بريطانيا وفرنسا وأمريكا لإيفاد لجنة لتقصِّي الحقائق، والبتِّ في الخلاف بين العرب والإسرائيليين، ومع بداية انعقاد الجلسات، طلبت اللجنة الاستماعَ إلى الشَّهادات، واختير ألبرت موصيري ليسافرَ للإدلاء بشهادته أمام اللجنة.

كانت المفاجأة حين عُرض عليَّ أن أكونَ معه في هذه الرحلة، ولأن الجميع وافقوا لم أستطع الرَّفض، علمت إستير أنني سأزور القُدسَ مع موصيري، فرتَّبت لنا إقامتنا هناك، هذه هي المرَّة الأولى التي أرى فيها القُدسَ في غير الأحلام، حاولت إستير أن تمتِّعَني، في حين كانت متعتي في أن تحفظَ عيناي كلَّ مشهد تقعا عليه وكلَّ جبل، وكلَّ شجرة، وكلَّ درب وحارة... ذهبت إلى الحائط، ووقفت عنده ساعة غروب، وأخذتني إلى «الخليل» حيثُ القبور، هناك الحلُم الذي رأيت فيه أبي يستقبله الأنبياء، وهناك (البوجروم) الكبرى، هل كان الذين التفُّوا حول أبي هناك هم القتلى على يد العرب! أيُعقَل أن يكونَ النِّداء بقتل الأنبياء يتحقَّق الآن! أمسكت إستير بذراعي، سألتها إن كانت تعرف أحد مَن قُتلوا من اليهود، تنهَّدت ثم قالت:

- نعم أعرف، أعرف الحاخام «إبراهام يعقوب أورلنسكي»

وزوجته.

نعم، مات معهما «أليعازر دان سلونيم» زوج ابنتهما، أعرفه جيِّدًا، مدير مصرف «أنجلو- فلسطين» ومسؤول الحركة الصِّهيَونيَّة في الخليل، كان إسرائيليًّا حقيقيًّا، وبذل الكثيرَ من أجل التوسُّع. و«حنّه» زوجته ماتت في إثر أزمة قلبية أصابتها لمقتل زوجها، كانت شابَّةً جميلة لم تتجاوز السابعة والعشرين.

وقُتل أيضًا الحاخام «يتسلال سماريك»، وهو أحد الذين قاموا على بناء المعهد الدينيِّ في الخليل، وكان يعمل معلِّمًا فيه، والحاخام «حنون حسون»، و«بنيامين هاليفي هورفيتس»، و«حاييم أليعازر دوبنيكوف»، كان مدرِّسًا في تل أبيب، والحاخام «موشيه جولدشميت»، و«يتسحاق إلياهو أبو شديد»، و«شلومو أونجر»، كان شابًّا في السادسة والعشرين، وكان ناشطًا يؤدِّي أيَّ عمل يكلَّفه في سبيل بناء إسرائيل... وغيرهم كثير يا إيزاك.

لاحظتُ أن أكثر القتلى من الآتين الجدُد إلى إسرائيل، وأقلقني هذا جدًّا فقد يؤثِّر في حديثي العهد، فيفرُّوا إلى بلادهم، أو يتأثَّر اليهود في دول العالم بهذا، فيُعْرضوا عن الهجرة!

لم أُرد أن أبحثَ عن «رحيل»، مع علمي أنها في الخليل، فكيف وإستير ترافقني؟! اكتفيت بزيارة المكان الذي تعيش

فيه. . . لم نقضِ في إسرائيل غير ثلاثة أيام، أدلى فيها موصيري بشهادته ضمن اثنين وخمسين شاهدًا إسرائيليًّا، وثلاثين من العرب، وبريطانيٍّ واحد، ومن العرب الذين أدلَوا بشهادتهم «محمد علوبة باشا»، إنه رجل متشدِّد جدًّا ضد الصِّهيَونيَّة وإسرائيل، ولو استطاع أن يقتلعَ إسرائيل من جذورها لفعل. . .

في الليلة التي سبقت عودتنا إلى مصر كنت أرى الحزنَ في عيني إستير وموصيري، لكنَّ إستير قضت الليلة تحدِّثنا عن التطوُّرات الاقتصادية في إسرائيل وعمليَّات شراء الأراضي، وطمأنتنا أن «البيكا» التي أسَّسها رجل الأعمال «البارون أدموند دي روتشيلد» عام ١٨٨٣ وضخَّ لها أموالاً طائلة، هي الآن تمتلك قرابة ٥٢٠ ألف (دونم)، ما يعادل ١٢٤ ألف فدَّان. أما «الكيرن كايمت» (الصندوق القوميُّ اليهودي) الذي أُسِّسَ خصِّيصى بهدف استملاك الأراضي، فإنه يسعى لاستعادة نشاطه، وزيادة ممتلكاته من الأراضي، والصُّندوق يسلك سياسةً إسرائيلية حقيقية، فالأراضي التي يشتريها ملك أبديٌّ للشَّعب اليهودي، يُمنَع بيعه أو تأجيره أو تشغيل غير اليهوديِّ فيه. وأما «الكيرين هايسود» (الصندوق التأسيسي) الذي أُسِّسَ عام ١٩٢٠ لشراء الأراضي اللازمة للاستيطان في فلسطين، والذي كان خاضعًا للمنظَّمة الصِّهيَونيَّة العالمية، فقد تحوَّل في العام الماضي إلى

الوكالة اليهودية، وأصبح جهازَها الماليَّ، وعمل هذا الصُّندوق هو عمل مكمل لعمل «الكيرن كايمت»، فالهايسود مطالَب بتوفير الأموال التي يحتاج إليها الكايمت لإتمام عمليات الشِّراء. وهناك مصرف «أنجلو- فلسطين» الذي يمنح القروضَ طويلة الأجل، وبفوائدَ قليلة في مجالي الزِّراعة والصِّناعة، وهناك شركةُ تطوير الأراضي الفلسطينية التي تعمل وسيطًا تجاريًّا لتوزيع الأراضي، وشركة المغارس الفلسطينية التي اشتُهرت بزراعة البرتقال وتسويقه في السُّوق الفلسطينية.

همستُ في أذن إستير:

- تَدُرُّ عليك أرباحًا جيِّدة يا إستير؟

فردَّت هامسة:

- أنا شريكٌ صغير يا إيزاك، ودون عقد أيضًا.

كان موصيري في أثناء هذه الأحاديث صامتًا، تبدو عليه علاماتُ الإرهاق والتعب؛ لذلك استأذن لينام، في حين أكملت الليل مع إستير...

حين وصلنا إلى مصر كانت المفاجأة الحزينة، لقد ماتت أمي بعد سفري بساعات قليلة، لم أحضُر دفنها، عزرا وديفيد حملا كلَّ الهم، ولم يخبرني أحد، عرفت أن إستير وموصيري علما

بالأمر ولم يُخبراني؛ كي لا يُنغِّصا عليَّ الرحلة، لم أتلقَّ خبرَ موت أمي بالحزن الذي حزنتُه على أبي، ربما لأنني لم أعُد أشعر بأيِّ عاطفة إلا عاطفتي نحو إسرائيل، حتى إن سارة علَّقت على تقبُّلي للخبر بهدوء بأنني لم أعُد أعرف الحبَّ إلا لإسرائيل!

نعم، أنا أحبُّ إسرائيل؛ لهذا كنت أتابع فقط أخبارَ اللجنة من خلال برقيَّات إستير التي كانت تنقلُ لي الأحداثَ كأنني هناك، كنَّا ننشر أخبارَ شهادات اليهود أولاً بأول، مبيِّنين في الصُّحف تجنِّي الشُّهود من العرب على اليهود الضُّعفاء، ونطالب العالم أن يُثبتَ لليهود حقَّ المعيشة في سلام، إنهم يعيشون في أراضٍ اشترَوها بأموالهم، ولم يغتصبوها من أصحابها، وما زلنا نُناشد العربَ في فلسطين أن يتقبَّلوا وضعَ إخوانهم الذين ظُلموا في الأرض، فجاؤوا إلى أرض السَّلام ليعيشوا في سلام، ويزرعوا الأرض، ويحملوا مشاعلَ التنوير والتطوير للصَّحراء التي اشترَوها جَرداء، وحوَّلوها إلى جنَّات برتقال، ووفَّروا فرصَ العمل للعرب، لكنَّ قرار اللجنة الوارد في بيانها جاء مخيِّبًا لآمالنا، لقد حكمت اللجنة بأن الإسرائيليِّين هم السببُ في نشوب هذا العنف، وأنهم استفزُّوا العرب بأفعالهم، وأن أعدادهم تتزايد، والواجبُ عليهم الابتعاد عن كلِّ ما يستفزُّ العرب؛ تفاديًا للمشاكل، ونصحت اللجنة بالحدِّ من الهجرة إلى

فلسطين؛ فإن الأعداد التي تهاجر إليها لا تتناسب والوضع العامَّ للمكان...

مثَّل لي هذا الخبرُ صدمة، لكنَّه في نفس الوقت أطربني، فقد صدر قرارٌ جديد يعترف بالوجود الإسرائيلي، لكنَّنا دخلنا في حرب أخرى مع الصُّحف الفلسطينية الصَّادرة في القاهرة، وما كان منَّا إلا أن نرتِّبَ حملتنا الصَّحفية للردِّ على هذه الصُّحف، وانتقاد قرارات اللجنة، وكان أوسع منبر لي هو جريدة «إسرائيل» التي حملت القضيَّة على عاتقها، وقرَّرنا نشر مقالات تؤكِّد أن اللجنة تخالف بقراراتها صكَّ الانتداب، وأنها بالتدخُّل في موضوع الهجرة تخالف الوعدَ بالوطن القومي، إنه الوطن الذي يجمع اليهودَ من شتاتهم في العالم، والهجرة هي روحُه، فكيف تُمنَع الهجرة أو يتدخَّل في معدَّلاتها غيرُ أصحاب الشأن؟ ونحن أصحابُ الشأن، وليس لأحد أن يفرضَ علينا رغباته.

قرَّرنا أن نسلكَ الطريق الأكثر ضمانًا وأمنًا، فانعقد اجتماع في «السيناجوج»، بدأه الحاخام بخطبته، كانت رائعة جدًّا، تبثُّ الحماسة في نفوس جميع الحاضرين، حتى شعرتُ أنني أريد سلاحًا لأقتلَ كلَّ العرب في إسرائيل، وقام عددٌ من الحاخامين يُسْهمون بخُطَب وأدعية لنصرة الإسرائيليين في وطنهم، رقصت روحي؛ لأن حاييم ناحوم بدأ في تنفيذ ما عرضته عليه، فقد بدأ «السيناجوج» مرحلةً جديدة في تاريخه، بدأ في الخوض في

السِّياسة، إنها ليست البداية، بل هو البعث الحقيقي...

في خضمِّ فرحتي تقلَّبت الأمواجُ في بحر حياتي، أرى «رحيل»، وأرى طيبة، وأرى فتنة، فتنة التي حين تضحك تبعث الأمل، وحين تبكي هي الطفلة المدلَّلة، وحين تضمُّ هي الأم الحنون.

قرَّر الحاضرون كتابة عريضة تُرفَع للحكومة المصرية، مطالِبةً بوقف الدِّعاية الفلسطينية المعادية لمصر، أشار يوسف باشا قطاوي إليَّ، فاقتربت منه:

- جاهز يا إيزاك؟

- إلامَ يا معالي الباشا؟

- لأن تكتبَ العريضةَ ببلاغتك المعهودة.

- لك الأمر يا باشا.

جلست إلى الطاولة الكبيرة، كان أهمَّ من الكتابة أن أرى هذه الوجوهَ مجتمعةً في «السيناجوج» يتخذون قرارًا ليس بالقرار السَّهل، لا أقصد العريضة، وإنما أن يجتمعوا في «السيناجوج» لتنطلقَ منه القرارات، في الوقت الذي يتراجع فيه أزهرُ المسلمين عن مهمَّته التي يحكي عنها التاريخ.

تناولت الأوراق والقلم، وكتبت:

«إن ما تمرُّ به مصر اليوم لهو منعطفٌ تاريخيٌّ يستوجب الوقفةَ

المتأنِّية والعينَ البصيرة؛ فبلد الأمن والأمان وقلبُ العالم الذي استوعب الدِّيانات في بُوتَقَة من الأخلاق والرَّحمة يتعرَّض لهجمة منظَّمة، الهدف منها الفتُّ في عَضُد الإصرار المصريِّ على تحقيق استقلاله، وعلاج قضاياه الملحَّة؛ ليتحوَّلَ إلى مسرح لعرض ما يراه الفلسطينيُّون من أوهام، متَّخذين من القاهرة الآمنة بأهلها ساحةً لممارسة دعَوات للعُنف، مستغلِّين عطفَ الحكومة وتسامح الشَّعب، ومشوِّهين لصورة الإسلام بما يفعلون، وموقعين النظام الحاكمَ في الكِنانة في حرَج أمام العالم، غيرَ مقدِّرين للمسؤولية، وغيرَ حافظين للجميل.

لهذا نتقدَّم إلى جلالة ملك مصر، وسيِّد «النوبة» و«كردفان» و«دارفور» الملك فؤاد بطلبنا التدخُّل واتخاذ القرار لصالح مصر، وليس لصالح طائفة أو جماعة أو نزلاء في بلاده».

تُنوقلت الورقة بين أيدي الحاضرين، كلٌّ من ينظر فيها ينظر إليَّ، ويهزُّ رأسه استحسانًا، مع ابتسامة ملأى بالسَّعادة والدَّهاء في وقت واحد.

تولَّى مهمَّة رفع العريضة للملك وتقديمها له يوسف باشا قطاوي، وجوزيف سيكوريل، وليون كاسترو والحاخام حاييم ناحوم.

تابعت الكتابة في جميع الصُّحف، مناديًا بحقِّ كلِّ من له حقٌّ، فالأرض أرضُ الربِّ، ووحدَه يبسط سُلطةَ من يشاء على

من يشاء في أيٍّ أرض يشاء، وقضَيتُ أسبوعًا كاملاً أتابع أهمَّ الإنجازات في مصر، كنت أريد أن أحضُرَ أهمَّ ما أُنجز، فوجدتُ أننا حقَّقنا الكثير من المسائل التي ستبقى عالقةً مدى الدَّهر، فالنساء في الشَّوارع، والحانات في الليل عامرة، وطبائع اليهود سكنت كلَّ بيوت مصر، والقومية الوطنية المصرية على أشُدِّها، فإعلان الاستقلال منذ الثاني عشرَ من (مارس) إلى الآن لم يأتِ بجديد، وإنكلترا تُلاعب الشَّعب المصري، والشَّعب المصري يناضل من أجل أن يستقلَّ استقلالاً تامًّا، لكنَّني أراه سيتوه أكثر بين أحزابه، وتضارُب الأفكار والتيَّارات التي صارت ثمارها لا تنقطع طَوالَ العام، وإنني لأفخَرُ بمقالاتي التي أعادت الفرعونَ النائم في قبره الحجَري؛ ليجدَ مكانه بدلاً من البحث عن خيول فتيَّة توحِّد الصفَّ...

- عجبًا لك يا إيزاك! أيُّ صفٍّ تريد توحيده؟

- إنني أتأمَّل، ولا أحلُم، ألا يتأمَّل الفنَّان اللوحةَ كيف أبدعها وقد كانت ألوانًا شتَّى؟ ألا يتأمَّل النحَّات تمثاله الضَّخم وقد كان صخرةً صُلبة في جبل أشمَّ، انتُزعت منه لتُنحَتَ كما أراد؟ ألا يقف القاتل أمام المقتول متأمِّلاً ومخاطبًا إياه: أنت وقفت في طريقي، وهذا قدَرُك أن تُقتلَ على يدي!

أحكي لنفسي وأنظر في التاريخ، يا نفسي التي تجاوزت مساحاتُ أحلامها مساحات البحر، أرى الإسرائيليِّين يقبضون

أكفَّهم على الأرزاق والأموال والعقول، ويعرفون كيف يرسُمون للناس الطريقَ الذي يسيرون فيه، لا يرَون إلا ما يراه الإسرائيليون في أرض إسرائيل.

في رأسي فكرةٌ لو بُحْت بها لا بدَّ أن من يسمعها سيقول: إنني مجنونٌ لا محالة، لكنَّني سأفعلها حين أصل لبيت الخيَّاميَّة، فأنا محتاج جدًّا إلى هذا الآن.

مررتُ في طريقي بمعرِض عزرا الذي أخبرني أن أرصدتنا ارتفعت بما لم نحسُب له حسابًا؛ نتيجةً لرواج تهريب المبالغ الكبيرة إلى إسرائيل وإلى خارج إسرائيل، نظرتُ في وجهه وابتسمت مشجِّعًا ومحذِّرًا، وسألته عن زُبُنه، فأخبرني أنه يبيع لبعضهنَّ، ويصاحب بعضَهنَّ، والحياة تسير كلَّ يوم بطعم.

وصلت إلى بيت الخيَّاميَّة، اغتسلت من عناءات كثيرة، دخلت عليَّ فتنة مهنِّئةً بأن «إسماعيل صبري» أصدر قرارًا بتعطيل بعض الصُّحف الفلسطينية الصادرة في القاهرة، وضيَّق على الأنشطة المعادية لليهود، وهدَّد بأنه سيضرب بيد من حديد على يد أيِّ إنسان يتعرَّض للأديان، خصوصًا اليهودية.

سألتُها عن أحوال الشَّبكة في القاهرة والأقاليم، ردَّت بقولها: أشعلنا النار، وهي مستمرَّة في الاتقاد كلَّما قابلت هشيمًا، أما الأخضر فلا يحترق، لكنَّها تمتصُّ ماءه رويدًا رويدًا، صارت فتنة تتكلَّم بالتصوير البلاغيِّ!!

حاولت أن تنظرَ في أوراقي كالعادة، لكنَّني هذه المرَّة رغبت أن أداعبَها، فلم أُطلعها على الأوراق، سألتني إن كنت أريد أن آكلَ شيئًا، فلم أجبها، وطلبت أن تُحضرَ لي الشِّطرَنج، وتتركَني وحدي قليلاً، وضعت الرُّقعةَ أمامي، صففتُ القِطَع في أماكنها، لعبتُ كما لعبت من قبلُ مع عماد، فلم يَرُق لي اللعب القديم، قرَّرت أن أبتكرَ طرقًا جديدة للعب.. سيحتاج هذا الأمر إلى بعض الوقت، وإلى طبيعة نفسيَّة جديدة، لا بأس، قمت لأجمعَ بقيَّةَ الأوراق، ورتَّبتها على الطاولة.

- ولِمَ لا؟

- أفعل؟

- أنت مجنون بقدر ذكائك.

- أنا فعلاً أحتاج إلى بعض الرَّاحة.

- استرح يا إيزاك كي لا تسقطَ في الطريق، فالطريق طويل، نادِها.

ناديت فتنة، فأتت تحمل نبيذًا، كيف عرفت أنني أريد النبيذ! أفرغت لنا في كأسين، سألتني: ما هذه الأوراق؟

- رواية.

- ذكرتني فيها؟

- بكلِّ التفاصيل.

- ستفضحنا.

- ذات يوم سيتحرَّر التاريخ ويقول أكثر، هي مرحلة أطويها لتبدأ مراحلُ جديدة في «السيناجوج».

- أنتَ داهية، وأفكارك ملأت كلَّ بيت واستقرَّت في كلِّ عقل.

- الأهمُّ أن «السيناجوج» بدأ اجتماعًا، وانتهى معبدًا تنطلق منه دعَوات لعبادة الأوطان والأشخاص واللذَّات؛ لتبقى إسرائيل وحدها.

- وهل أتممت الرِّواية؟

- أتممتها لتبدأ يا «فتنتي»، وحين نعود يبدأ جزءٌ ملتهب مشتعل.

- نعود؟ من أين نعود؟

- تتزوجينني؟

تخشَّبت فتنة، لم تنطِق بكلمة، وما هي إلا ثوانٍ حتى تعلَّقت بعنقي كالقِلادة الثمينة...

- لكن بشرط.

- موافق.

- على أيِّ شرط؟

- على كلِّ الشُّروط.

- هو شرطٌ واحد لا غير.

- تفضَّلي ولك ما تريدين.

- أريد أن تكونَ هذه الرِّواية مهري.

- موافق.

- وحين نعود تُكمل.

- موافق.

- لكن من أين نعود يا إيزاكي وحدي؟

- من إسرائيل، أحتاج أن أستريحَ معك.

- هناك؟ في وسط عدم الاستقرار؟

- أريد أن أرى إسرائيل بكلِّ تفاصيلها في الدَّاخل، أنا أراها من هنا وأراها في جَوَّانيَّتي، في نفس الوقت أريد أن أبتعدَ عن مصر؛ لأرى ما فعلناه بها من بعيد؛ لأقوِّمَ النتائج، ونبحثَ عن علاجات للأخطاء.

- وحين نعود؟

- نرى الأيام والناس، ونُعِدُّ جيلاً جديدًا لنبقى، إسرائيل قوَّتها في أن يبقى كلُّ من حولها منشغلين بقضاياهم وخلافاتهم. . .

فتنة.

- نعم يا إيزاكي.

- أرأيتِ ما يفعله «سيناجوج» واحدٌ حين يكون بداخل كلِّ إسرائيلي؟

- نعم يا إيزاك، «السِّيناجوج» يُبنى في كلِّ يهودي، ويثمر بداخله، ويشكِّل نفسه وطبائعه.

- فماذا لو أن كلَّ «سيناجوج» في كلِّ بلد نبت في كلِّ يهوديٍّ في البلد؟ أتتصوَّرين أن يقفَ أحدٌ في وجه اليهود، أو يُبارِيَهُم في فنون السِّياسة والدِّين؟

- ليس السِّياسة والدِّين وحدهما يا حبيبي، بل واللغة، أنت حَرَصتَ أن يتعلَّمَ اليهود العربية في مصر، فلنحرِص على إقامة سياجٍ حول العبرية، فلا يتعلَّمونها؛ لأن من يتعلَّمها سيجرُّ على نفسه المتاعب، ويعرِّض دينه للخطر، فلغة اليهود تجرُّ إلى كتاباتهم الأفكار المعادية للإسلام، وتخلخُل العقيدة في نفوس المسلمين والمسيحيِّين معًا، هل نسيت هذا الذي كنت تكرِّره عليَّ كلَّما رأيتك تحفظ الشعر، أو تقرأ كتابهم تاريخ محمد؟!

أعادت عليَّ فتنة كلامي، وتنهَّدت مُرخيةً رأسها على كتفي، تطوِّق خصري بذراعها الأيمن وأنا أكتب:

«تمت إلى أن تبدأ»

إيزاك يعقوب القمَّاش

روح إسرائيل التي إن خرجت من جسد

بُعثت في آخرَ

متجدِّد.

روايات جديدة

– العيون السود
– العاشرة مساء

سينـا جـوج
9 786038 111048
Jeraisy Tel - 4022564

توزيع: مؤسسة الجريسي- الرياض- هاتف: (٤٠٢٢٥٦٤).

روايات جديدة

– العيون السود
– العاشرة مساء

سينا جوج
9786038111048
Jeraisy Tel - 4022564

توزيع: مؤسسة الجريسي- الرياض- هاتف: (٤٠٨٨٥٦٤).